المحتويات

مُقدّمة

لم يتعرَّض أحد من البشر على مدى تاريخ البشرية الطويل لموجات ظالمة من الاتهامات والافتراءات الباطلة مثلما تعرَّض نبي الإسلام محمد ﷺ، ولا عجب في ذلك فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون لكل نبي من الأنبياء أعداء يحاربون دعوته، يقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان: ٣١). وقال وَرَقَة بن نَوفَل لرسول الله ﷺ في بداية بعثته: "لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي"[١].

وإن من الحقائق التي لا يماري فيها أحد أن الأخلاق إحدى مقومات أربعة يقوم عليها الإسلام، ولا يتكامل مفهومه، ولا يستقر إلا بها، وهي: العقيدة، والشعائر، والأخلاق، والتشريع، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإسلام دعوة مؤسسة على حسن الخلق، بل إن الدعوة المحمدية دعوة إلى حسن الخلق، يقول النبي ﷺ: "إنما بعثت لأتـمِّم صالح الأخلاق"[٢].

وكذلك لا يستطيع أحد أن يماري في أن أخلاق النبي ﷺ هي الأنموذج الأمثل الذي ظهرت فيه الأخلاق الإسلامية بكل جلاء، بوصفه القدوة الأولى لكل المسلمين، فهي نموذج حي لتطبيق تعاليم الوحي، فقد سئلت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلق النبي ﷺ فقالت: "كان خلقه القرآن"[٣].

ولقد أدرك هذه الحقائق خصوم الرسالة المحمدية ـ وهم أكثر من أن يُحْصَوا ـ منذ بداية دعوته ﷺ حتى العصر الحالي، فعمدوا إلى تشويه معجزة عظمى، ودليل من أهم دلائل نبوته ﷺ وهو أخلاقه ﷺ، نعم لقد كان كمال أخلاق النبي ﷺ معجزة عظمى ودليلًا من دلائل نبوته، فمجرد أن قال صُدِّق.

ومن هذا المنطلق كان من الواجب أن يستقل جزء من هذه الموسوعة التي خُصصِّت للدفاع عن شخص النبي ﷺ بالرد على الشبهات التي أُثيرت حول أخلاقه ﷺ، والمتأمل في هذه الشبهات يجد أن مثيريها لم يتركوا خلقًا حميدًا من أخلاق النبي ﷺ إلا وحاولوا الانتقاص منه والقدح فيه وتشويهه، كما لم يتركوا نقيصة أخلاقية إلا وحاولوا إلصاقها زورًا بالنبي ﷺ، وهم في كلتا الحالتين لا يريدون سوى تشويه الحق الناصع، وإثارة الغبار حول أخلاق النبي ﷺ، وصرف المسلمين عن الاقتداء بها؛ خشية أن يعودوا إلى روح الإسلام الحق، ومن ثم استعادة أمجادهم، وحضارتهم، وريادتهم للعالم من جديد.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢)، واللفظ للبخاري.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٩٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب حسن الخلق (٢٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٣٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حب النبي ﷺ، فصل في خُلق الرسول ﷺ وخَلْقه (١٤٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١).

والملاحظ كذلك في هذه الشبهات المثارة حول أخلاق النبي ﷺ أن جُلَّها ـ لم يخطر على بال أحد من أعداء النبي ﷺ المعاصرين له ـ رغم حرصهم في العثور على أية هفوة له ﷺ ـ بل أُثيرت في قرون تالية بعد موت النبي ﷺ على أيدي المستشرقين والمبشرين المتعصبين.

ويمكننا تقسيم هذه الشبهات إلى محاور ثلاثة هي:

١. ما أُثير حول أخلاق النبي ﷺ الجِبِلِّيَّة مثل: الطعن في حيائـه، وإنكـار شـجاعته، واتهامـه بـالنَّهَم والـشرَه، وسوداوية المزاج... إلخ.

٢. ما أُثير حول أخلاقه ﷺ مع أعدائه مثل: ادعاء أنه ﷺ كان يكيل الشتائم صاعًا بصاع، وأنه كان ينتقم لنفسه بقسوة، واتهامه بانتهاز الفرص لنقض العهود... إلخ.

٣. ما أُثير حول أخلاقه ﷺ مع أصحابه مثل: ادعاء أنه ﷺ كان يحتقر ذوي العاهات منهم، وأنه كان يغتاب بعض أصحابه بدافع من الحقد، ودعوى تكبره ﷺ على أصحابه، وانتقاصه من قدرهم... إلخ.

وعلى الرغم من إمكانية تقسيم الشبهات على النحو السابق، إلا أننا آثرنا ترتيبها حسب تسلسل أحداث السيرة النبوية؛ من شبهات حول أخلاقه ﷺ قبل البعثة، وشبهات حول أخلاقه ﷺ أثناء وجوده في مكة قبل الهجرة، وشبهات حول أخلاقه بعد هجرته إلى المدينة، ثم أَتْبَعْنا ذلك بشبهات عامة حول أخلاقه ﷺ.

هذا، وقد تمثَّل دورنا إزاء هذه الشبهات في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وكشف زيف هذه الافتراءات والأباطيل، وإجلاء الحقيقة الناصعة، دون تعصب منا لنبينا ﷺ أو تحامل على خصومه، **ويمكننا أن نلخِّص ما توصلنا إليه من نتائج في الآتي:**

- لقد هيَّأ الله تعالى محمدًا ﷺ ليكون الهادي إلى الحق وإلى صراط مستقيم؛ فوهبه الخلق الكامل الذي يؤلِّف القلوب، ويجمع النفوس، إلا من طغى واستكبر، وآثر الهوى على الحق.
- وتفرَّد النبي ﷺ بكمال الأخلاق حتى قبل بعثته، ونزول الوحي عليه، فقد كان قبل البعثة يحب العشير، ويقرب الصديق، ويبتعد عن الهوى وجموحه، لا يعادي، ولا يصخب، وهو الصادق الأمين الذي يعين الكَلَّ، ويغيث الضعيف، ويعين على نوائب الدهر.
- وامتدت هذه الأخلاق إلى ما بعد النبوة، فكانت دعامة الدعوة، وكانت أخلاقة تلك تجذب الناس إلى الإيمان به دون دليل ولا برهان.
- واتصفت أخلاقه ﷺ مع أعدائه بالرأفة والتسامح والوفاء بالعهود، والعفو عند المقدرة.
- لقد اتصفت أخلاقه ﷺ مع أصحابه والمؤمنين به بالمحبة والتواضع والمرحمة، والتسوية بينهم، ولين الجانب معهم، وعدم تتبع عيوبهم، والحرص على كل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.
- إننا لو جمعنا كل خلق عظيم في العالم، وكل تصرف أخلاقي حميد تصرفه في يوم من الأيام إنسان، لوجدنا في

حياة الرسول ﷺ ما يربو على هذا كله مجتمعًا، بل إننا لا نستطيع أن نجد في حياته ﷺ كلها تصرفًا يمكن أن نرى أعظم منه في حياة البشر، وكل هذا يؤكد نبوته ﷺ وإلهية رسالته.

ثم إننا في النهاية لا يسعنا أن نثني على أخلاق النبي ﷺ بما فيه الكفاية، وحسبنا ثناء الله عز وجل عليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم: ٤).

الشبهة الأولى

ادِّعاء أن النبي ﷺ لم يخرج عمَّا كان عليه قومه من حبِّ المجون وكُره التَّنسُّك (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المدَّعين أن خلوة النبي ﷺ في غار حراء قبل بعثته لم تكن للتعبُّد ولا للتفكُّر، ولا حتى للابتعاد عن ضلالات قومه، وإنما كانت للاستجمام والهروب من حرِّ مكة، كما يزعمون أن تصرفاته ﷺ قبل بعثته لم تخرج في مجملها عن جملة تصرفات قومه وميولهم. ويستدلون على ذلك بما اشتُهر به من مخالطة قومه، ومشاركته إياهم في حياتهم الاجتماعية. ويتساءلون: أنَّى لمحمد أن يدَّعي لنفسه شيئًا يخالف دين قومه، وهو الذي شاركهم فيه سنين عددًا؟ ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في أخلاقه ﷺ قبل البعثة إيذانًا بالقول بأن أخلاقه تلك لا تؤهله لنشر دين، ولا تحمُّل دعوة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد كانت خَلوَة النبي ﷺ في غار حِراء قبل بعثته لعبادة الله على ما كان يعرف من دين إبراهيم عليه السلام، وللتأمل في خَلْقِه ﷻ، وكانت عزوفًا عما كان يجري في المجتمع الجاهلي من مساوئ ومنكرات.

٢) إن خلوة النبي ﷺ، وتعبده، وتفكره في الكون وخالقه قبل بعثته ـ صاحبها حفظ من الله ﷻ لنبيه مما اتصف به غيره من اللهو والعبث، وعبادة الأصنام وتقديسها.

٣) إن ما حفلت به حياة النبي ﷺ قبل البعثة من سفر للتجارة، ومن قبلها رَعْي للأغنام ـ من شأنه أن يُرَبِّي في شخص النبي ﷺ ملكات خاصة، وهذا من قبيل إعداد الله ﷻ لنبيه ﷺ.

٤) نحن لا ننكر مشاركة النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية لأهل مكة، لكنها مشاركات قليلة، وكانت مع قلتها تنمُّ عن فطرة سامية، تنأى عن أفعال الجاهلية وانحرافاتها.

التفصيل:

أولا. خلوة النبي ﷺ في غار حراء كانت للعبادة والتأمل لا للهروب من حر مكة:

من المعروف أن النبي ﷺ كان يقيم بغار حراء ـ قبل البعثة ـ الليالي ذوات العدد؛ للتأمل والعبادة على ما كان يعرف من دين إبراهيم أبي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وكانت خلوته ﷺ عزوفًا عما كان يجري في المجتمع الجاهلي من مساوئ ومنكرات، والتأمل في صنع الله بعيدًا عن الناس أقصر طريق لصقل القلوب، وتصفية النفوس وتقوية صلتها بالله.

هذه المعاني الرفيعة، والمقاصد النبيلة، والملامح الوضيئة من سيرة خاتم الرسل ﷺ يحاول هؤلاء المدَّعُون أن يطمسوها، ويثيروا حولها سحبًا من الضباب الكثيف القاتم، فيزعمون أن النبي ﷺ إنما كان يذهب إلى غار حراء لتفادي حر مكة؛ لأنه كان من

(*) محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م. افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. محمد رسول الله، أتيين دينيه، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، د. ت. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م.

الفقراء الذين لا يملكون القدرة على الذهاب إلى الطائف.

وهذا افتراء محض منهم، والواقع وسيرة النبي ﷺ يكذبان ذلك، وذلك للاعتبارات الآتية، كما يفنِّدها د. عبد العظيم المطعني:

مما لا يماري فيه أحد أن محمدًا ﷺ لم يكن هو الفقير الوحيد في مكة، فلماذا ترك الفقراء الآخرون محمدًا ﷺ يتمتع وحده. بهذا المصيف الرائع؟!

ثم إن مكة مليئةٌ بالجبال؛ فلماذا لم يشتهر عن الفقراء الآخرين أنهم كانوا يفرون إلى الجبال الأخرى كما فرَّ محمد ﷺ إلى جبل حراء؟!

إن هذا الجبل الذي كان يلجأ إليه النبي ﷺ ما أصعب الصعود إليه، وما أصعب الهبوط منه، كما أن هذا الغار ـ حراء ـ لم يكن في سفح الجبل "بل كان أعلى من ذلك، ولا يصل إليه قاصده إلا بمرتقًى صعب، وليس بالسهل، والناظر إليه الآن لا يجد الوصول إليه بغير شق النفس"[1]؛ أي أن رحلة الصعود إليه تتطلب جُهْدًا مضنيًا، فلماذا كان ﷺ يتحمل هذا العناء؟ ألم يكن يكفيه أن يلجأ إلى ظل شجرة أو ظل حائط إن كان فِعْلًا يفر من شدة الحرارة؟!

ثم إن أهل مكة قديمًا كانوا يبنون منازلهم على شكل قِباب لها نوافذ تسمح بمرور الهواء وترطيبه، كما كانوا يرشّون الأرض بالماء، تُرَى هل كان محمد ﷺ يعجز أن يصنع مثل صنيعهم إن كان يضايقه حر مكة كما يزعمون؟

من الثابت ـ كما روت كتب السيرة ـ أن النبي ﷺ لم يكن يتزوّد أثناء خلوته تلك إلا بالماء والتمر والخبز الجاف، فأين الاستجمام وطلب المتعة الحسية في هذا الاعتزال؟!

لقد نسي هؤلاء أن محمدًا ﷺ وقتذاك كان زوجًا لخديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ وأنها كانت من أثرى أثرياء قريش، ولو كان ﷺ يريد الهروب من حر مكة ـ كما يزعمون ـ لاستطاع أن يقيم هو وزوجه وأولاده منها في قصر منيف بالطائف فيه ما لذَّ وطاب من المأكول والمشروب والمنظور، وما كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ لتبخل عليه بمالها، وله عندها منزلة ما حظي بها زوج من زوج.

من المعروف أن النبي ﷺ كان يختلي في غار حراء مرة في العام، وكانت هذه المرة تكون في شهر رمضان خاصة، ومن المعروف أيضًا أن شهر رمضان من الشهور القمرية، ولا يشترط أن يكون في كل عام في الصيف.

وأخيرًا فإن محمدًا ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل وبعض الصدِّيقين في هذا الأمر؛ فزكريا ؈ كان يعتزل قومه، ومريم الصدِّيقة كانت تعتزل قومها، وكل منهما أوتي في عزلته فضلًا وآيات من الله. زكريا بُشِّر في خلوته بيحيى ؈ بعد عُقْم، ومريم أنجبت رسول الله عيسى ؈ من غير أب ليكون آية للناس، ومحمد ﷺ تلقى في تلك الخَلْوة مراسم الرسالة الخالدة. إنها خَلَوات كانت بتدبير من ذي الجلال والإكرام، وليست لطلب الملذّات الدنيا، ولا الهروب من معاناة ظروف الحياة كما يزعمون.

---

١. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص٢٦٦.

إننا نعجب من هؤلاء الذين سكتوا عن عُزْلَتي زكريا ومريم ـ عليهما السلام ـ وتناولوا عزلة رسول الله ﷺ بالتشويه، ليس لشيء إلا لأنه رسول الإسلام فحسب[1].

ثانيًا. التَّحنُّث[2] والخَلوَة والتفكر في الكون وخالقه، صاحبها حفظ من الله ﷻ لنبيه:

لقد كان من الأسباب التي دعت النبي ﷺ إلى الخلوة والتحنُّث ـ الهرب من الانحلال الأخلاقي والضلال الديني اللذين سادا العرب آنذاك، ويتضح لنا ذلك من خلال النظرة السريعة لأحوال تلك البيئة في ذلك الوقت، "ففساد العقيدة يسود في كل مكان، إذ العقائد السائدة ـ حتى السماوية منها ـ لا تملك القدرة على السمو بالإنسان، إما لتحريفها عن أصولها الأولى السليمة، أو لتسفُّلِها وارتباطها بالمادية المغرقة.

وسوء الحالة الاقتصادية نتيجة لقسوة الطبيعة من جهة، ولسوء توزيع الثروة من جهة منعت كل تطور مدني في المنطقة، حتى بقيت البيئة العربية تسيطر عليها البداوة على الرغم مما وجد فيها من ممالك.

والأمية والجهل عَقَلا[3] الفكر عن الانطلاق والتفتُّح، وجعلاه أسير عادات متخلفة بالية، وعقائد خرافية زائفة، يضيق بها أحيانًا، ولكنه لا يتخذ من هذا الضيق مخرجًا.

وفساد التركيبة الاجتماعية ابتداءً من نظم الزواج المسئولة عن تكوين الخلية الأولى في المجتمع، وانتهاءً بالعصبية القبلية التي جعلت شعارها: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"[4].

وغياب الدولة السياسية التي تجمعُ القبائل وتظلها بمظلَّة واحدة، جعل القوِي من القبائل يأكل الضعيف، وقانون الغاب هو الذي يحكم.

وجوّ القلق والخوف الذي يسيطر في كل بقعة من أنحاء الجزيرة العربية، استلَّ السعادة من النفوس، وجعل الأعصاب مشدودة دائمًا"[5].

"ذلك هو الضلال الذي أحزن محمدًا ﷺ وأرَّقه، وجعله لا يستطيع الصبر على رؤيته، وهو ضلال ليس في طوقه إزالته؛ لأنه متأصل عميق، ولأنه عام شامل، وهو جالب لا محالة على مواطنيه عقاب السماء الرهيب، يعصف بهم كما عصف بعاد وثمود؛ لهذا كان يلجأ إلى الأماكن الخالية من بني البشر، حتى لا يختلط بهم، وحتى يزيل من ذاكرته شبح ما هم فيه من ضلال بشع أليم.

كان يستسلم إذن لرغبة قوية عنيفة تسيطر على نفسه، وتتجه به نحو الوحدة والعبادة، فيسير في

١. افتراءات المستشرقين على الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مرجع سابق، ص٧، ٨ بتصرف.
٢. التحنُّث: التعبُّد والتَّنسُّك.
٣. عَقَل: قيَّد.
٤. لقد صحَّح النبي ﷺ هذا المفهوم الجاهلي، فجعل نُصرَة الظالم منعه من الظلم، وهذا ما ورد في قول النبي ﷺ: "انصر أخاك ظالمًا أومظلومًا"، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: "تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نَصره". (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٥٥٢)، وفي مواضع أخرى).
٥. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعجي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٦.

الشعاب الرملية حسب منحنيات الوديان وتعاريجها، أو يصعد الجبال الصخرية ليجلس على قمتها ويترك بصره وخياله يسترسلان في الفضاء الجدب القاحل، الذي يبدأ عند قدميه ثم يسترسل، ويسترسل حتى يختفي في لا نهائية الأفق"[1].

ويذكر الإمام محمد أبو زهرة: "أن محمدًا ﷺ كان يجتهد في العبادة بعد أن اطمأن على رزقه ونظم تجارته في مال خديجة... وكان كلما تقدمت به سن الشباب ازداد نُسُكًا واختلاء وانصرافًا عن الملاذ والشهوات، وقد اتخذ لنفسه شهرًا من أشهر السنة يختلي فيها بغار حراء، "وكان حراء نسكًا للعرب في جاهليتهم، كما جاء في "البداية والنهاية" لابن كثير، فقد قال: وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حِراء في كل عام شهرًا ينسك فيه، وكان من نسك قريش في الجاهلية"[2]؛ أي: أنه كان من الأماكن التي تعتبرها قريش من النسك في الجاهلية، ولعلهم كانوا يضيفونها إلى نسك الحج، وقد رأى محمد ﷺ أن هذا خير مكان لعبادته؛ لأنه لا يُطرق طول العام، ولم يكن كالبيت الحرام، إذ يُطاف بالكعبة المشرفة فيه كل يوم، ويظهر أنه بمضي الزمان قد هُجِرَ اتخاذه نسكًا.

وقد جاءت الأحاديث الصحاح بأنه ﷺ كان يتحنث ـ أي يتعبد على الحنيفية السمحة ـ الليالي ذوات العدد، وكان يتخذ دائمًا شهر رمضان من كل عام يتزود لذلك، ويبتدئ بالذهاب إلى البيت الحرام يطوف به، ويتصدق بالصدقات العظيمة ويطعم الطعام، ثم يذهب إلى غار في جبل حراء، حتى إذا أتم الشهر ـ رمضان ـ عاد إلى بيته، وقبل أن يأوي إليه يمر بالبيت الحرام، فيطوف، ويتصدق بما بقي معه من زاد، ويطعم الطعام مما بقي له، ثم يأوي إلى خديجة زوجته الطاهرة"[3].

كان من المفترض أن يلُف التيار الجارف محمدًا ﷺ ويدفع به في مساره، كما لف سائر شباب العرب ودفع بهم في مساره، ولكن محمدًا ﷺ شخصٌ ليس كبقية الأشخاص، فقد حباهُ الله ﷻ عقلًا راجحًا لا نظير له في رجالات العرب، فما كان له أن يهجر عقله ويتبع غيره؛ ولذلك فإنه كان ينظر إلى العادات والأعراف، والتصرفات السائدة في البيئة التي نشأ فيها نظرة فكر وتأمل، فإذا كانت صالحة كان أول الآخذين بها والمشجعين عليها.

أما إذا كانت العادة السائدة في هذه البيئة لا تتفق مع عقل ولا منطق، ولا خلق كريم، فقد كان رسول الله ﷺ يتأثر بها تأثرًا عكسيًّا، فيقف ضدها ويحاربها ويعمل على إزالتها.

لقد أنكر محمد ﷺ عبادة الأصنام منذ أن عقلها، فلم يسجد لصنم قط، بل كان يكره الأصنام منذ نعومة أظفاره، وإننا لا ننسى جوابه للراهب "بَحِيرَا" يوم استصحبه عمه أبو طالب معه إلى بُصْرَى من بلاد الشام وعمره آنذاك تسع سنوات، حيث نزلوا قريبًا منها، فدعاهم الراهب "بحيرا" إلى طعام، ولما حضروا بدأ يتفحّص الطفل محمدًا ببصره، ثم قال له: يا غلام،

1. محمد رسول الله، أتيين دينيه، مرجع سابق، ص١٠٥.
2. البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، مصر، د. ت، ج٢، ص٧.
3. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٦ بتصرف.

أسألك بحق اللات والعزى إلَّا أخبرتني عما أسألك عنه، فما كان من الطفل محمد إلا أن انتفض غضبًا وأجاب: لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما".

وكما أنكر ﷺ عبادة الأصنام التي كانت منتشرة في بيئته قبل أن تنزل عليه النبوة، أنكر أيضًا اضطهاد المرأة والتعيُّر منها، ووأْدها وهي حية، وأنكر هتك حرمة شرف الكلمة على لسان شعراء لا يرعون لشرف الكلمة حرمة، يتخذونها عدة للباطل وسلاحًا على الحق، فبُغِّض إليه قول الشعر، فلم يُعْرف عنه أنه قال شعرًا، أو أنشأ قصيدة، أو حاول ذلك؛ لأن ذلك لا يتلاءم ومقام النبوة، وأنكر التعصب للنسب والقبيلة والتفاخر بهما، وأنكر سوء توزيع الثروة بين الناس.

لقد أنكر ﷺ عادات كثيرة سادت في البيئة التي نشأ فيها، ولم تستطع هذه العادات ـ رغم تمكنها في هذه البيئة ـ أن تلُفه ثم تجرفه في تيارها كما جرفت الآلاف من شباب العرب؛ لأن التيارات لا تجرف إلا الهش الضعيف، وما سمعنا قط أن تيارًا جرف جبلًا، ومحمد جبل أشم؛ ولذلك تحطمت عليه التيارات[1] ®.

ثالثًا. رعي الأغنام والسفر للتجارة، أمور من شأنها أن تربي في نفس صاحبها ملكات وصفات خاصة، وهذا من قبيل إعداد الله ﷻ لنبيه ﷺ:

اشتغل النبي ﷺ في صباه برعي الغنم: رعاها لأهله، ورعاها لبعض أهل مكة، وبذلك ضرب مثلًا عاليًا منذ صغره في اكتساب الرزق بالكَدِّ والتعب، وكان النبي ﷺ يذكر ذلك في كِبَره وهو مغتبط مسرور، رُوي عن أبي سعيد الخُدري أنه قال: "افتخر أهل الإبل والغنم عند النبي ﷺ فقال النبي: "الفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم"[2]. وقال: "بُعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت أنا وأنا أرعى غنمًا لأهلي بأجياد"[3]. وقال: "ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم"، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: "نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"[4].

ولا شك أن ما في رعي الغنم من قضاء نهاره وبعض ليله في البادية، يتمتع بالسماء الصافية، والشمس المشرِقة، والهواء النقي، ويطيل التأمل والنظر في السماء ذات الأبراج، والأرض ذات الفِجاج، والجبال ذات الألوان ـ لا شك أن ذلك يجعل التأمل والتدبُّر ملكة من ملكات النفس"[5].

ومن الثابت تاريخيًّا أن الحرفة الرئيسة لأهل مكة كانت التجارة؛ وذلك لما تتمتع به من مكان متميز،

---

١. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعجي، مرجع سابق، ص٣٩: ٤٢ بتصرف.

® في "**خلوة النبي ﷺ لا تعني سوداوية مزاجه**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن (٤١٢٧).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري ﷺ (١١٩٣٧)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب المريض، باب الإبل عِزٌّ لأهلها (٥٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٤٥٠).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٢١٤٣).

٥. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص ٢٠٩، ٢١٠ بتصرف يسير.

وكانت لهم رحلتان في العام: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، ومحمد ﷺ ورث حرفة آبائه، فلما بلغت سنه ﷺ الثانية عشرة خرج مع عمه أبي طالب في تجارة له إلى الشام، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سافر فيها إلى الشام.

"ولما بلغت سنه ﷺ خمسًا وعشرين سنة سافر إلى الشام المرة الثانية، وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية كانت سيدة تاجرة ذات مال وشرف، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن محمد من الأمانة وصِدق الحديث ما لم تعرفه في غيره، حتى سمّاه قومه الأمين، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ممّا كانت تعطي غيره، فسافر مع غلامها مَيْسرة، فباعا وابتاعا وربحا ربحًا عظيمًا، وظهر للسيد الكريم في هذه السفرة من البركات ما حبّبه إلى قلب ميسرة غلام خديجة"[1].

وهكذا عاش النبي ﷺ حياته قبل البعث حياة جادة لا مجال فيها للهو والعبث والمجون، فقد ابتدأ بِرَعْي الغنم صبيًّا، فلما تجاوز الصبا إلى المراهقة اتجه إلى صناعة أشراف مكة، وهي التجارة، وقد كان ﷺ في حياته الأولى - راعيًا للغنم، أو تاجرًا - مثالًا للأمانة والصدق والوفاء بالعهد، ولطف العشرة.

رابعًا. قلة مشاركات النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية لأهل مكة:

لقد عاش النبي ﷺ بين أهل مكة معيشة تجلّت فيها الكثير من الصفات الإنسانية العالية والمتميزة، والتي جعلتهم جميعًا يشهدون له بالعقل ورجاحته، ويلقبونه بـ "الصادق الأمين"، ومن ثم لم ينقطع ﷺ عن قومه في أعمالهم الجماعية إذا كانت تتعلق بالتعاون على خير يقومون به، فإذا كانوا على أمر جامع ذهب إليه وشارك فيه ما وسعته المشاركة، من غير أن يرضى بباطل، أو يجور على حق، إنما كان دائمًا مع الحق يستبشر به، وضد الباطل يَنغُض[2] رأسه به، من غير صخَب[3] ولا شحناء، فما كانت الشحناء من شأنه، ولا المباغضة من خلقه، بل هو في كل أحواله الودود الحليم، والنفس الطيبة، وكان يحضر "دار الندوة" إذا انعقدت، ويستمع إلى كُبَراء العرب، فما يرضيه من قول الحق يستشرف[4] إليه ويستبشر به، وما لا يكون حقًّا يبدُو نفوره منه ولا يرتضيه[5].

ويدل على مشاركته ﷺ قومه في الخير حله لمشكلة وضع الحجر الأسود، حين جمعت القبائل القرشية الحجارة لبناء الكعبة، "كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البناء موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحازبوا[6] وتحالفوا، وأعدُّوا للقتال، فقرّبت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُمُّوا لعقة الدم، فمكثت قريش على

١. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص٨: ١١ بتصرف.

٢. يَنغُض: يُعرِض.
٣. الصَّخَب: ارتفاع الصوت واختلاطه.
٤. يستشرف: يتطلع إليه.
٥. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص ١٣٢ بتصرف يسير.
٦. تحازبوا: صاروا أحزابًا؛ أي: جماعات.

ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد الحرام، وتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم - وكان عامئذ أسنّ قريش كلها - قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه، ففعلوا.

فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: "هلمّ إلي ثوبًا"، فأتى به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب"، ثم ارفعوا جميعًا، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه"[1].

يتضح لنا مما سبق أن النبي ﷺ كان يشارك قومه في الأمور الاجتماعية، بَيْد أنها كانت مشاركات قليلة، وكانت هذه المشاركات في حدود الأخلاق الفاضلة، ولم تكن مشاركات في الانحرافات السائدة عندهم.

أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ كان مشهورًا بينهم بالأمانة، حتى إن القرشيين كان يضعون الأمانات عنده لثقتهم في أمانته وإخلاصه وصدقه، وكان القرشيون على استعدادٍ لأن يمنحوا من لقَّبوه بالأمين من مراتب الشرف ما تطمح إليه النفوس وما تعتز به، وأن يمكِّنوه من مركز اجتماعي سَامٍ، غير أن نفسه - وهي بمَعْزِل عن العُجْب والطمع - كانت ترفض في ازدراء كل عَرْض من هذا النوع[2].

ومن ثم فقد كان النبي ﷺ أمة وحده في أخلاقه؛ ولهذا رأى من آمن من قومه أو غيرهم في أخلاقه ﷺ أكبر دليل على صدق نبوته ﷺ.

مما سبق يتضح لنا أن النبي ﷺ "لم يكن صاحب لَهْو ولا عبث، كان كذلك غلامًا، ثم شابًا، ثم أصبح بعد ذلك عاكفًا زاهدًا، منصرفًا عن الناس إلا ما يوجبه حق المجتمع عليه، من عطاء يقدمه لمحتاج، أو معاونة لمستعين، أو إغاثة لملهوف، أو حمل لكَلٍّ[3]، أو قِرًى[4] لضيف، أو صلة لرحم... وغير ذلك، فكان المتحمِّل للواجبات، المعتزل الذي يؤثر العزلة عن الاندماج في غمار الناس، حتى لا يصيبه شيء مما يخبثون به؛ لأنه الطاهر الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، فكانت حياته قبل البعثة مرشحة لحياته بعدها[5].

الخلاصة:

- من المعلوم من سيرة النبي ﷺ أنه كان يقيم في غار حراء عدة ليالٍ من شهر رمضان كل عام بعيدًا عن منكرات المجتمع الجاهلي؛ وذلك للتعبد والتأمل في خلق الله، أما ما يزعمونه من أنه ﷺ كان يفعل ذلك هروبًا من حر مكة فإن الواقع يكذبه لعدة اعتبارات منها:
  - أن النبي ﷺ لم يكن الفقير الوحيد في مكة، فلماذا لم يفعل الفقراء الآخرون مثله.
  - أن الناظر إلى غار حِراء الآن يجد أنه لا يمكنه

---

١. الرسول ﷺ، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

٢. محمد رسول الله، أتيين دينيه، مرجع سابق، ص ١٠٣ بتصرف.

٣. الكَلُّ: الضعيف والمُتعَب.

٤. قِرَى الضيف: إطعامه.

٥. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٥.

الوصول إليه إلا بشقِّ الأنفس؛ فلماذا يتحمل النبي ﷺ هذا العناء إذا كان يريد المتعة الحسية. كان الأولى بـه أن يلجأ إلى ظل شجرة، أو ظل حائط.

- لقد كان النبي ﷺ متزوجًا من السيدة خديجة، وهي من أثرى أثرياء قريش، فلو أراد الهروب من حر مكة، لاشترت له قصرًا منيفًا في الطائف مصيف مكة.

- كان رسول الله ﷺ - قبل البعثة - يحب الانـزواء عن قومه، لما يراهم عليـه مـن عبـادة الأصنام، فكـان يخلو ﷺ بنفسه، فكان يصعد إلى غار حراء شهرًا من كل عام، يخلو فيه بنفسه ويعبد الله، وقد عصمه الله ﷻ من الكذب، والخيانـة، حتـى عُـرف بـين قومـه بالـصادق الأمين، وعصمه مـن تعظـيم الأصـنام، وعـصمه مـن المشاركة في لهو الجاهلية ومجونها.

- اشتغل النبي ﷺ برعي الأغنام، وسافر للتجارة إلى بلاد الشام، وهذه الأمور من شأنها أن تربي ملكات خاصة في نفس النبي ﷺ تعاونه في تحمل أعباء الدعوة، كما أن فيها الدليل على حياة النبي ﷺ الجادَّة منذ صباه، فلم يقضها ﷺ في اللهو والمجون كما يزعمون.

- لقد شارك النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية لأهل مكة، ولكنها مشاركات قليلة، مثل: دوره في حادث بناء الكعبة، وحمله للأمانات، وكانت هذه المشاركات مع قلتها تنمُّ عن فطرة سامية، تنأى عن أفعال الجاهلية وانحرافاتها.

الشبهة الثانية

اتِّهام النبي ﷺ بالانتهازية والوصولية (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعـض المغرضـين أن النبـي ﷺ كـان انتهازيًّـا وصـوليًّا؛ إذ تـزوج الـسيدة خديجـة رضي الله عنهـا، لتحقيـق مـصالحه الشخـصية، زاعمـين أنـه تزوجهـا قَسْرًا[1] دون رضا أهلها، وأنه كان فقيرًا مغمورًا، فرأى أن يتزوجها وهو في مقتبل عمره للاستفادة مـن مالهـا، وليضمن بذلك وجاهة واحترامًا في المجتمـع. هـادفين من وراء ذلك إلى الطعن في مبادئه وقِيَمِه ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) تزوج النبي ﷺ أُمَّ المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - بناءً على رغبتها وبمباركة أهلها وترحيبهم، بل إنها هي التي سَعَتْ إلى الزواج منه لِمَا أحسَّتْه ولمسَتْه بذكائها من كونه الشخصية النموذجية في عصرها.

٢) لو تزوج النبـي ﷺ خديجـة - رضي الله عنهـا - لتحقيق مـصالح شخـصية، كالحـصول عـلى المـال، أو الوجاهة الاجتماعية وغيرها - لما ظلَّ وفيًّا لها بعد وفاتها رضي الله عنها.

التفصيل:

أولا. تـزوُّج الـنبي ﷺ خديجـة - رضي الله عنهـا - بنـاء على رغبتها:

بعـدما رجـع النبـي ﷺ بتجـارة الـسيدة خديجـة

(*) لكن محمدًا لا بـواكي لـه، د. إبـراهيم عـوض، دار الفكـر العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.

١. القَسْر: القهر والكره.

-رضي الله عنها- من الشام، وقصَّ غلامها ميسرة عليها ما قد رآه من كرامات للنبي ﷺ، وما سمعه من الراهب نسطورا، وبعدما رأت خديجة مالها قد تضاعف أُعجبت بالنبي ﷺ وبأمانته، وأرادت الزواج منه بعدما ضنّت بنفسها على وجهاء قريش، ولكن كيف ذلك؟ كيف تعرض امرأة الزواج على رجل؟ هذا ما تأباه البيئة العربية، ولكن.. كان هناك من حلَّ هذا اللغز، إنها نُفَيْسة بنت مُنْية، خادمة السيدة خديجة، لنسمعها وهي تحكي هذه القصة قائلة:

"كانت خديجة امرأة حازمة جَلْدة شريفة، مع ما أراد الله ﷻ بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالًا، وكل قومها كان حريصًا على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها، وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيسًا[1] إلى محمد بعد أن رجع في عِيرها[2] من الشام، فقلت: يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: "ما بيدي ما أتزوج به"، قالت: فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيتَ إلى المال، والجمال، والشرف، والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: "فمن هي"؟ قالت: قلت: خديجة، قال: "وكيف لي بذلك"؟ قالت: قلت: عليَّ، قال: "فأنا أفعل"، فأعْلَمَت خديجةُ أهلها، فوجدت منهم قَبُولًا وترحيبًا، وحددت للنبي ﷺ وأهله موعدًا يحضرون فيه، وذكر النبي ﷺ ذلك لأعمامه، فخرج معه عمّاه: أبو طالب وحمزة، حتى جاءوا بيت خديجة، فوجدوا عندها عمها عمرو بن أسد حاضرًا، فخطبها منه أبو طالب لابن أخيه محمد، فوافق ورحَّب، وقال: هذا الفَحل لا يُقدَعُ أنفُه[3]، وخطب أبو طالب خطبة الإملاك[4]، وهي تنمُّ عن فضائل النبي وخصائصه، وشرفه، وشرف آبائه، وهي قطعة من بليغ الكلام، وفصيح القول"[5].

هذا هو حديث ذلك الزواج، لا تجد فيه دليلًا على "وصولية" أو "انتهازية" مما يزعمون، وإنما نجد شابًّا وكَهْلة[6] في سن أمه، أو أسنّ منها، فلو عاشت أمه آمنة بنت وهب لما تجاوزت الأربعين يومئذ، ونجد هذه الكهلة تعزُف عن الزواج؛ لأنها استشعرت من الخاطبين الأثرياء طمعًا في ثروتها الطائلة، فاعتصمت بالإباء، حتى وجدت ذلك الشاب الفقير، وجرَّبت أمانته، وعفته، وعزة نفسه، فأدركت أن له خُلُقًا يعصمه من الطمع في مالها، فأحبّت أن يكون زوجها.

فظروف ذلك الزواج إذن وأسبابه على نقيض ما يزعمه المفترون من التكالب، أو الرياء، أو الانتهازية.

وهذا الزواج المبارك الميمون كان له في حياة النبي ﷺ مُقدِّمات هيّأت أسبابه، ويسَّرت سبيله؛ فإن السيِّدة خديجة لم تكن لتسعى إلى الاقتران بهذا الشاب -وقد رَغِبَتْ عن كهول مكة وسادتها- إلا لما رأته من تميُّز شخصيته، وكرم خصاله، ونُبْل شمائله. وما أخطأ نظرُ خديجة؛ فقد كان الرسول ﷺ أكثر الناس أمانة، وأعف الناس عمّا لا يليق بحضرته، وأصدق الناس لهجة[7]،

---

١. دسيسًا: خفية وسرًّا.
٢. العِير: الإبل.

٣. لا يُقدَعُ أنفه: مَثَل يُضرب للكُفء الكريم.
٤. خطبة الإملاك: إعلان الزواج.
٥. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٠.
٦. الكَهْل: من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين.
٧. أصدق الناس لهجةً: أي: منطقًا وحكاية.

وكان هو الأعدل بين الناس؛ لأنه أعلمهم وأحكمهم، وأرحمهم، وآمن الناس، وأعف الناس، وقد اعترف له بذلك الجميع، حتى مخالفوه وأعداؤه، وكان يسمّى قبل ظهور نبوته: الصادق الأمين، قال ابن إسحاق: كان يُسَمّى الأمين بما جمع الله ﷺ فيه من الأخلاق الصالحة[1].

لقد كان ﷺ قليل المال، يأكل من كسب يده، ليس عالة على أحد، وكان مستودع الأمانات، ورغم فقره لم تتطلّع نفسه إلى شيء فيها، إن القوة النفسية التي تجعل صاحبها يصمد لإغراء المال أو الكسب الحرام وهو فقير، هي بعينها التي يمكن أن تتجه إلى إغراء الجنس أو اللذة الحرام، كي تمنع صاحبها من الزلل، فإذا هو "أمين".

ولذا كانت أمانته ﷺ في الأموال مَضرِب المثل، وهي في الواقع أمانة فرعية، أصلها الأمانة الكبرى وهي قوة النفس التي تُلْجِم صاحبها عن تجاوز الحدود وإن كان ذلك التجاوز ميسورًا.

وتلك القوة الأصلية الكامنة هي التي ألزمته حدودًا لا يكترث لها الناس في تلك البيئة لذلك العهد، وهي حدود العفة في الجنس، والأمانة على العِرْض.

لا زوجة يومئذ له، ولا رقابة ولا إلزام من العرف بالعفة، ولكنه كان العفيف الأمين يضن بنفسه عن خساسة الفحش والفجور؛ لأن نفسه المترفعة الصافية كريمة عليه، والكرامة تلزم صاحبها حدودًا أضيق مما يلتزمه الناس، فمحمد ﷺ الشاب الوسيم غير المتزوج هو الذي فرضت عليه نفسه هذه الحدود المرهقة[2].

كل هذا دفع السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى أن تستأجر النبي ﷺ ليكون أمينًا على تجارتها "وكانت ـ رضي الله عنها ـ سيدة تاجرة ذات شرف ومال، وتجارة تبعث بها إلى الشام، وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة[3]، وكانت قريشٌ قومًا تُجَّارًا، ومن لم يكن تاجرًا فليس عندهم بشيء.

وكان النبي قد ناهز العشرين من عمره المبارك، وأصبح شابًّا جَلْدًا قويًّا، أَغَرَّ الطالع، ميمون النَّقيبة[4]، يزيِّن شبابَهُ الغضَّ ما يتمتع به من حُلْو الشمائل، وكرم الأخلاق: من أمانةٍ، وصِدق حديثٍ، وعِفَّةٍ، وعزوفٍ عما ينغمس فيه أمثاله من الشباب من لهو ومجون، فكان ذلك مما وَجَّه السيدة خديجة إلى أن يعمل لها في تجارتها، فأرسلت إليه، فلما جاء إليها قالت له: دعاني إلى طلبك ما بلغني من صِدْق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلًا من قومك، فذكر ذلك لعمه أبي طالب، فقال له: إن هذا لرزق ساقه الله إليك"[5].

فلا انتهازية ولا وصولية مما يدّعيه هؤلاء؛ فالسيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ هي التي دعَتْ النبي ﷺ للخروج بالتجارة، ولم يسْعَ هو ﷺ لذلك، كما رأينا، بل

١. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٤٥ بتصرف.

٢. محمد في حياته الخاصة، نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٥٣، ٥٤ بتصرف يسير.

٣. تدفع إليهم المال مضاربة: يعملون لها في التجارة ولهم نصيب من الرِّبح.

٤. النَّقيبة: السَّجيَّة والطبيعة.

٥. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢١٤، ٢١٥.

هي التي طلبته ورغبت في أخلاقه وأمانته، وخرج النبي بتجارة خديجة إلى الشام، وكانت سِنُّه تخطو إلى الخامسة والعشرين، وكان خروجه لأربع عشرة ليلة من ذي الحجة ومعه غلام خديجة "ميسرة"، حتى وصل سوق "بُصْرَى"، فنزل تحت ظل شجرة في هذا السوق قريبة من صومعة راهب يسمى "نسطورا"، فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة - وفي رواية بعد عيسى - إلا نبي!!

ولا تَسَلْ عما غمر نفس ميسرة من حب وتقدير وإكبار لسيده محمد ﷺ، لقد رأى تظليل الغمام له في مسيره هذا، ولَمَسَ عن كَثَبٍ[1] الكَثِيرَ من أخلاقه وبِرِّه وعطفه وحسن معاملته وأمانته، وسمع من نسطورا ما سمع، فلا عجب إذا كان حدَّث سيدته بعد عودته بما رأى وما سمع، وما وجده منه من حسن الخلق.

وباع النبي ﷺ التجارة وابتاع، وعاد بربح وفير، وعاد معه غلامُ خديجة، ووصل الركب في الظهيرة إلى مكة، وخديجة في عِلِّيَّة[2] لها ، فرأت النبي تكسوه المهابة والجلال، فلما دخل عليها أخبرها بخبر التجارة، وما ربحت، فسُرَّت لذلك سرورًا عظيمًا، وخرج النبي، وترك ميسرة يقص على سيدته من شأن سيده محمد ﷺ ما شاءت له نفسه أن يقص[3].

نخلص من هذا كله إلى أن هذا الزواج المبارك كان عن رضا وإعجاب متبادل بأخلاق كلا الطرفين وشمائله، ومنزلته من قريش، وكان سعي خديجة - رضي الله عنها - موفّقًا، وكانت فِراستها صادقة؛ إذ أسفر سعيها الناجع هذا عن زواجها من سيد العالمين وسيد الأولين والآخرين ﷺ ®.

ثانيًا. وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة رضي الله عنها حتى بعد وفاتها:

لو كان تَزَوُّج النبي ﷺ من السيدة خديجة لغرض الحصول على المال أو الوجاهة الاجتماعية، لظهر ذلك في سلوكه ونشاطه بعد الزواج، ولكنه لم يكن من أمره بعد زواجها ما يدل على إسرافه في مالها، كما يفعل النفعيّون الذين يتزوجون العجائز الثريات، فلم يعمد إلى البذخ في مظهره، بل كان متواضعًا عفيفًا، ولم يعمد إلى القصف مع أبناء المياسير إظهارًا لثرائه الطارئ، بل ازداد تباعده عن كل ألوان القَصْف[4]، وزاد زهده في الرخاء والترف، وصار يقضي الكثير من وقته صائمًا معتزلًا للناس وحده في الجبل.. حتى كانت خديجة تخرج للبحث عنه مع خدمها، كما تبحث الأم عن ابنٍ لها أقلقها طول غيابه، وتحمل إليه هناك الطعام، لقد زاد الرجل بالزواج من الكَهْلَة عِفَّة واستقامة، وزاد الرجل بالزواج من الثرية نزاهة وعزوفًا عن البذخ والترف، فأين الطمع هنا، وأين الوصولية؟ لا طمع ولا وصولية، ولكنها الأكذوبة التي لا تتورع ولا تستحيي.

وإن كان للوصولية موضع في حياة خديجة - رضي الله عنها، فلن يكون لها موضع وقد ماتت، فإذا به يحزن

١. الكَثَب: القرب.
٢. العِلِّيَّة: الغرفة العالية.
٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص ٢١٤: ٢١٦ بتصرف.

® في "رغبة السيدة خديجة في الزواج من النبي ﷺ" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة).
٤. القَصْف: اللهو واللعب والافتتان في الطعام والشراب.

عليها - حزنًا شديدًا، وإذا حزنُه يطول في حين اشتد عليه اضطهاد القرشيين وإيذاؤهم لشخصه، وقد زاد من جرأتِهم عليه موت عمه أبي طالب في تلك السنة أيضًا.

وفي ذلك الحين أدرك المؤمنون القلائل أن نبيهم ﷺ في حاجة ماسة إلى من يؤنس وحشته، ويخفف عليه أعباء الجهاد ومتاعب الاضطهاد، وأن طفلته الصغيرة فاطمة الزهراء بحاجة إلى عناية الأمهات، وندب المؤمنون لمفاتحته في ذلك خولة بنت حكيم، فتلطفت في ذلك، ثم عرضت عليه أن يتزوج، فمن التي تزوجها ذلك "الوصولي المزعوم"؟ سودة بنت زمعة، امرأة متقدمة في السنّ ليس لها جمال خديجة، ولا مال لها على الإطلاق ولا جاه، وإنما هي أرملة طيبة القلب، ولم يكن للرجال فيها مأرب[1].

ثم أية مصانعة هذه التي تجعل الزوج يفي لزوجته بعد مماتها بسنين وسنين، فلا يذكرها إلا ورقّ قلبه ولهج لسانه بالترحم والثناء؟!

وهل ينسى المنصف ما حدث بعد موقعة بدر، فقد وقع "أبو العاص بن ربيع" زوج ابنته زينب في الأسر، وكان يومئذ على دين أبيه مستمسكًا بالكفر، وطُولب أبو العاص بالفِديَة كما طولب سائر الأسارى، وبعثت زينب بنت محمد ﷺ من مكة بالفدية، وفيها قِلادة كانت لأمها خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فإذا بالقائد الظافر يرقُّ لمرأى القلادة أيّما رقة، وكأنما تمثّل له جِيدَ[2] صاحِبَتِها الراحلة، وكم التمس معها من عزاء، وكم نَعِمَ معها بالراحة من وَعْثاء الجهاد[3] وعناء الدعوة، وما يلقاه من صدود وجفوة وقسوة وعناد وإيذاء، فالتفت إلى أصحابه ينشدهم أن يردوا القلادة إلى زينب، ويفرجوا عن زوجها المأسور إكرامًا لتلك الذكرى العزيزة.

وأبو العاص بن الربيع من هو؟ أليس ابن أخت خديجة، ابن هالة بنت خويلد؟ وكانت خديجة تعدُّه بمثابة ولدها، وهي التي أشارت على زوجها أن يزوجه من ابنتها زينب قبل بعثته.

وقد يتلكَّأُ ذو طويّة مغرضة في هذه المناسبة، فيزعم أنه ربما رقّ لمرأى القلادة، لأنه تذكر ابنته، ولأن هذه القلادة كانت من قَبْلُ لخديجة ثم "أَدْخَلَتْهَا بها على أبي العاص حين بَنَى عليها" كما جاء في سيرة ابن هشام.

ولكن ما القول في أمر وقع بعد ذلك بأعوام، ولا شبهة في أن تكون عاطفته في تلك المناسبة منصرفة إلى الوفاء للزوجة الأولى التي غَبَرَ[4] على موتها زمن مديد؟

فقد كانت عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - على صباها وملاحتها، وهي البكر الوحيدة التي تزوَّجها النبي ﷺ - تقول إنها لم تَغَر من امرأة إلا خديجة، "كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة"[5].

وكانت عائشة كثيرًا ما تغار منها كلما ذكرها ﷺ، وضاقت ذات يوم بما في صدرها فهتفت مغيظة محنقة:

---

١. محمد ﷺ في حياته الخاصة، نظمي لوقا، مرجع سابق، ص٥٨: ٦٠ بتصرف.

٢. الجِيد: الرَّقبة.

٣. وَعْثاءُ الجهاد: مشقَّته.

٤. غَبَرَ: مضى.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٦٠٧).

"وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشِّدْقَين[1] هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها"؟[2] فإذا وَجْه النبي ﷺ يربَدُّ[3]، ويصيح بعائشة في زَجْر وتقريع عنيف: "ما أبدلني الله ﷻ خيرًا منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء"[4]. ولم تجسُر[5] عائشة ـ الزوجة الشابة ذاتُ الحَظْوَة ـ أن تُجري ذكر خديجة على لسانها بعد تلك الغَضْبَة.

فمن ذا الذي كان محمد ﷺ يصانعه وهو يفي للسيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ هذا الوفاء الجميل الذي يستحق أن يكون مضرب الأمثال لسائر الأزواج، رجالًا ونساءً!

أتراه كان يصانع التي ماتت، ليُغضب التي يعيش معها ويحبها؟! ما القول في هذا الوفاء المعجز، والدنيا حافلة من حولنا بأمثلة العقوق ونسيان الفضل وخيانة العهد؟! وما كان أحرى ذلك "الوارث" أن يُعَوِّض ما فات عليه في ربع قرن من اللَّذَّات، لو أنه كان الرجل الانتهازي الذي يزعمون[6] ®.

الخلاصة:

- كان زواج الرسول ﷺ من خديجة ـ رضي الله عنها ـ نتاجًا للرضا الكامل، والقبول المتبادل والترحيب التام من الأهل والعشيرة، وليس فيه أية شبهة قسر أو نفور، بل إن السيدة خديجة هي التي سعت إلى الزواج من النبي ﷺ لِـمَا لَمَسَتْه بذكائها من كونه الشخصية النموذجية في عصرها، فقد نقل إليها غلامُها ميسرةُ خبرَ رحلةِ محمدٍ في تجارتها إلى الشام، وما كان من خلقه وسماحته ومهارته وحكمته، وكذلك ما ذكره الراهب النصراني نسطورا من نُبوءة وبِشارة بشأنه، وما كان له في ذلك السفر من الكرامات والخصائص.
- لقد كان ذلك الزواج موفّقًا، فقد كانت خديجة سيدة نساء مكة، وأوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالًا، وأوفرهم عفة واستقامة، وكان النبي ﷺ زينة شباب قريش جمالًا وعقلًا وأدبًا وخلقًا، مع مكانة اجتماعية، ووجاهة في قومه، واشتهار بجميل الخصال من صدق وأمانة، وكل هذه الصفات وتلك، كانت دافعًا للطرفين للاقتناع والرضا والقبول بهذا الارتباط الزوجي العظيم.
- لم يتزوج النبي ﷺ خديجة ـ رضي الله عنها ـ من أجل تحقيق مصالح شخصية، كالحصول على المال، أو

---

١. الشِّدْق: جانب الفم مما تحت الخد.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٦١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين (٦٤٣٥)، واللفظ له.

٣. اربدَّ وجهه: احمرَّ حُمرَة فيها سواد من الغضب.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٩٠٨)، والطبراني في المعجم الكبير، باب الباء، ذكر أزواج رسول الله ﷺ منهن (٢١)، وصححه الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد (٢٤٩٠٨).

٥. تجسُر: تجرُؤ أو تتمكَّن.

٦. محمد ﷺ في حياته الخاصة، نظمي لوقا، مرجع سابق، ص٦١: ٦٤ بتصرف يسير.

® في **"حزن النبي ﷺ على خديجة وفاء منه لها"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

الوجاهة الاجتماعية. فأما الوجاهة الاجتماعية، فلم تكن تُعْوِز النبي ﷺ، وهو الصادق الأمين، وهو الذي حكم بين قبائل قريش، وارتضت حكمه ورأيه حين اختلفوا حول وضع الحجر الأسود موضعه، ثم هو فتى بني هاشم، وزَهْرة شبابهم، وهم أهل السقاية والرفادة، وإليهم أمر البيت الحرام. وأما البحث عن المال، فلم يكن مطلبًا للنبي ﷺ بحال، وإلا لظهر على سلوكه بعد زواج خديجة ما يدل على هذا، تبذيرًا في الإنفاق، وبذخًا في المظهر، وترفًا في الحياة، لكن شيئًا من هذا لم يكن.

- لو كان النبي ﷺ في زيجته هذه وصوليًّا انتهازيًّا لما عرف الوفاء إلى قلبه أو لسانه طريقًا، لكنه ظلّ لخديجة الزوجَ الوفي، الذاكرَ بالخير والثناء لها دائمًا، الواصلَ لأهلها وصديقاتها، فلم تزده وفاتها إلا برًّا ووفاء لها، وما هكذا يكون شأن الوصوليين.

وهكذا ضرب النبي ﷺ المثل الكامل، في الحب الكبير والمودة الصافية لزوجته خديجة رضي الله عنها في حياتها، ثم الوفاء المُعْجِز والأحدوثةِ الطيبةِ الخالدةِ بعد وفاتها.

الشبهة الثالثة

ادِّعاء أن النبي ﷺ كان سَوداوي المزاج(*) (1)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الطاعنين أن النبي ﷺ كان سوداوي المزاج، ويستدلون على ذلك بأنه ﷺ كان يميل إلى التنزهات الطويلة منفردًا، وأنه ﷺ كان يميل إلى التأملات المستغرقة في شِعاب مكة الموحشة، وأن بعض أحاديثه تحث على العزلة واجتناب الناس، وهم بذلك يطعنون في حلمه ﷺ واتزان أقواله وأفعاله، ومخالفة أخلاقه لما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الأنبياء.

وجوه إبطال الشبهة:

1) خَلوَة النبي ﷺ في غار حِراء لا تعني أنه كان سوداوي المزاج، فقد كانت الخلوة عادة متأصِّلة في قريش، وكان هدفه ﷺ منها التفكر والتدبُّر في مظاهر الكون ودلائل عظمة الله.

2) كان النبي ﷺ حسن العِشْرة مع أصحابه، وكان أجمل الناس ودًّا، وأحسنهم وفاءً وعهدًا، وأكثرهم للحقوق ذكرًا، وألين الناس جانبًا، حتى إنه كان يمازح أصحابه ولا يقول إلا صدقًا.

3) لقد حَثَّ النبي ﷺ في بعض أحاديثه على العزلة في حالات خاصة كعدم القدرة على كف الأذى عن الناس، وفي زمان الفتن، بخلاف ذلك حَثَّ على الخلطة بالناس.

التفصيل:

أولا. خلوة النبي ﷺ في غار حراء لا تعني أنه كان سوداوي المزاج:

لكي لا يُتَّهم النبي ﷺ بأنه كان سوداوي المزاج من خلال الاستيحاش بالناس، والاستئناس بالخلوة؛ إذ ذاك مظنة لهما، فإن من أبرز الحقائق التي صاحبت خلوته ﷺ أنه لم يكن مبتدعها في قريش، بل كانت تلك عادة متأصلة فيهم، فإن الزمن الذي كان يخلو فيه كان

(*) محمد رسول الله ﷺ، أتيين دينيه، مرجع سابق.

1. سَوداويَّة المزاج: الميل إلى الوحدة والعُزلة عن الناس مع الشعور بالكآبة.

شهر رمضان، وكانت قريش تفعله، كما كانت تصوم عاشوراء، وهم لم ينازعوا النبي ﷺ في غار حراء، مع مزيد الفضل فيه على غيره؛ لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته وكبر سنه، فتبعه على ذلك مَن كان يَتَألَّه[1]، فكان ﷺ يخلو بمكان جده، وسلم له ذلك أعمامه لكرامته عليهم[2].

ويفصِّل د. سعيد رمضان البوطي القول في مسألة خلوة الرسول ﷺ فيقول: "إن لهذه الخلوة التي حُبِّبت إلى قلب رسول الله ﷺ قُبيل البعثة دلالة عظيمة جدًّا، لها أهمية كبرى في حياة المسلمين عامة والداعين إلى الله بصورة خاصة، فهي توضح أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحليًا بالفضائل قائمًا بألوان العبادات، حتى يجمع إلى ذلك ساعات من العزلة والخلوة يحاسب فيها النفس، ويراقب الله ﷻ، ويفكر في مظاهر الكون ودلائل ذلك على عظمة الله.

وحكمة ذلك أن للنفس الإنسانية آفات لا يقطع شرها إلا دواء العزلة عن الناس، ومحاسبتها في نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها، فالكِبْر والعُجْب والحسد والرياء وحب الدنيا، كل ذلك آفات من شأنها أن تتحكم في النفس وتتغلغل إلى أعماق القلب، وتعمل عملها التهديمي في باطن الإنسان، رغم ما قد يتحلَّى به ظاهره من الأعمال الصالحة والعبادات المبرورة، ورغم ما قد ينشغل به من القيام بشئون الدعوة والإرشاد وموعظة الناس، وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يختلي صاحبها بين كل فترة وأخرى مع نفسه ليتأمل في حقيقتها ومنشئها، ومدى حاجتها إلى عناية الله ﷻ وتوفيقه في كل لحظة من لحظات الحياة، ثم ليتأمل في الناس ومدى ضعفهم أمام الخالق ﷻ، وفي عدم فائدة مدحهم أو قدحهم، ثم ليتفكر في مظاهر عظمة الله وفي اليوم الآخر وفي الحساب وطوله، وفي عظيم رحمة الله وعظيم عقابه، فعند التفكير الطويل المتكرر في هذه الأمور تتساقط تلك الآفات اللاحقة بالنفس ويحيى القلب بنور العرفان والصفاء، فلا يبقى لعكر الدنيا من سبيل إلى تكدير مرآته.

إن الوسيلة إلى محبة الله ﷻ ـ بعد الإيمان به ـ كثرة التفكير في آلائه ونعمه، والتأمل في مدى جلاله وعظمته، ثم الإكثار من ذكره ﷻ بالقلب واللسان، وإنما يتم كل ذلك بالعزلة والخلوة، والابتعاد عن شواغل الدنيا وضوضائها في فترات متقطعة متكررة من الزمن"[3].

بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من عزلة رسول الله ﷺ أنه كان ينصرف عن الناس انصرافًا كليًّا؛ لأنه ﷺ كان يختلي بنفسه بعض الوقت لا كله، فالأصل في حياته ﷺ المخالطة بالناس سواء قبل البعثة أم بعدها، فما خلا بنفسه قبل البعثة إلا أيامًا محدودة من السنة، وهي شهر رمضان؛ وذلك من أجل التفكر في ملكوت السماوات والأرض والتدبر، وتصفية النفس من الهموم.

"قال ابن إسحاق: حدثني وهب بن كيسان قال:

١. يتألَّه: يتعبَّد.

٢. تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٥٨ بتصرف يسير.

٣. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٦٤: ٦٦.

قال عبيد: فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به ـ إذا انصرف من جواره ـ الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعًا، أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله ﷻ به ـ أي: النبي ﷺ ـ فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله ﷻ فيها ـ وذلك الشهر هو شهر رمضان ـ خرج رسول الله ﷺ إلى حِراء كما كان يخرج إلى جواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل ؑ بأمر الله ﷻ"[1].

وهكذا فإن جميع الروايات تؤكد على أن الأصل في حياته ﷺ كان الاجتماع والمخالطة، فقد كان ﷺ يعمل ويحضر مجالس الخير، ويشارك في الأعمال الجماعية النافعة كبناء الكعبة، ولو كان سوداوي المزاج هل كان أهل مكة سيحكمونه في وضع الحجر الأسود؟!

إن سوداوي المزاج لا يطمئن الناس إلى تحكيمه فيما بينهم؛ خشية أن ينعكس مزاجه في حكمه، إن سوداوي المزاج لا يمكن أن يأتي حَلُّه وحكمه في غاية الدقة والاتزان كما كان حكم رسول الله ﷺ في وضع الحجر الأسود، إنما يدل تصرفه ﷺ على صفاء ذهنه، وكامل اتزانه الفكري والعقلي، فما يستطيع أن يحكم هذا الحكم الأمثل إلا رجل ذو فطرة سامية وعقلية ناضجة نقية، وهكذا كانت شخصية رسول الله ﷺ شخصية متوازنة غير جانحة، تَنُمُّ عن الاستقرار المزاجي المتعقِّل، والضبط النفسي المستنير، والحس المرهف النبيل، والوجدان الهادئ الرزين، وأعظم من ذلك دلالة على نزاهة مزاجه واعتدال سلوكه واتزان أفعاله، أن أعداءه كانوا يُودِعون عنده الأمانات ـ رغم عداوتهم له ـ لما علموا من صدقه وأمانته.

فهل سوداوي المزاج يتصف بالأمانة والصدق؟ وهل يمكن أن يثق به الناس؟ إن سوداوي المزاج يكون دائمًا متقلبًا في عواطفه وأحكامه، وينعكس مزاجه السوداوي على تصرفاته وأفعاله.

إن سوداوي المزاج يكون ذا شخصية معقدة مكروهة من الناس، فهل شابت رسول الله ﷺ شائبة من ذلك حتى يقال إنه ﷺ كان سوداوي المزاج؟!

إن ما اجتمع للرسول ﷺ من حب في القلوب لم يجتمع لأحد قبله ولا بعده، بل إن أعداءه لم يكونوا يبغضونه، بل كانوا يحقدون عليه، ويناصبونه العداء حسدًا وكبرًا، فلم يحب أحد أحدًا كما أحبه أصحابه والمؤمنون في كل زمان ومكان، وهذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان، بل هي ـــ بشهادات أعدائه ومواقف أصحابه ـ أشهر من أن تذكر أو يدلل عليها، فأصحابه كانوا يحبونه أكثر من أنفسهم، وكذلك كل من صدق إيمانه في كل زمان ومكان، فهل يمكن أن يجتمع كل هذا الحب لشخص سوداوي المزاج؟!

إن الشخص السوداوي المزاج أو المكتئب لا تكون طباعه سويَّة، والنفوس دائمًا تنفر من الطباع غير السوية، أما رسول الله ﷺ فقد أجمعت الفِطَر السويَّة على ائتلاف شخصه وحبه ﷺ ®.

---

1. الروض الأُنف، الإمام السهيلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج١، ص٢٦٨.

® في **"خلوة النبي ﷺ واعتزاله عادات قومه"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء.

ثانيًا. كان النبي ﷺ حسن العِشْرة مع أصحابه:

لقد كان النبي ﷺ حسن العِشْرة مع أصحابه وخدمه، فما نهر خادمًا، وما ضرب بيده أحدًا إلا أن يكون جهادًا في سبيل الله، قال أنس ﷺ: "خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفٍّ قط، ولا قال لي لشيء: لِمَ فعلت كذا؟ وهلَّا فعلت كذا"؟[1] وكذلك كان ﷺ مع عبيده وإمائه ما ضرب منهم أحدًا قط، وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية لولا التأييدات الربانية.

وقد جاء عن أنس بن مالك أنه قال: "كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت"[2].

ودخل الحسن بن علي - رضي الله عنهما - والنبي ﷺ يصلي، فركب الحسن ظهره وهو ساجد، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظَهرانيّ صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يُوحَى إليك، قال: "كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أُعْجِله حتى يقضي حاجته"[3].

وكان ﷺ يباسط أصحابه، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: إن رجلًا من أهل البادية يُقال له زاهر بن حَرام كان يهدي إلى النبي ﷺ الهدية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله ﷺ: "إن زاهرًا باديتنا ونحن حاضروه"، قال: فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني من هذا؟! فالتفت إليه، فلما عرف أنه النبي ﷺ جعل يلزق ظهره بصدره، فقال رسول الله ﷺ: "من يشتري هذا العبد"؟ فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسدًا![4] قال: "لكنك عند الله لست بكاسد"، أو قال ﷺ: "بل أنت عند الله غالٍ"[5].

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا؛ فمن ذلك أن جاء له رجل فيه بَلَه[6]، فقال: يا رسول الله، احملني، فقال النبي ﷺ: "إنا حاملوك على ولد ناقة"، فقال: وما أصنع بولد الناقة؟ فقال النبي ﷺ: "وهل تلد الإبل إلا النُّوق"[7]؟

وجاءت عجوز إلى المصطفى فقالت: يا رسول الله، ادع الله لي أن يُدخلني الجنة، فقال: "إن الجنة لا يدخلها عجوز"، فولَّت تبكي، فقال: فذهب نبي الله ﷺ فصلَّى،

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٩١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله أحسن الناس خلقًا (٦١٥١)، واللفظ له.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر (٥٧٢٤).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث شداد بن الهاد ﷺ (١٦٠٧٦)، والنسائي في سننه، كتاب صفة الصلاة، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة (١١٤١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (١١٤١).

٤. الكاسد: غير الرائج لقلة الرغبة فيه.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٢٦٦٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر والإباحة، باب المزاح والضحك (٥٧٩٠)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٠٤).

٦. البَلَه: ضعف العقل.

٧. صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب المزاح (٢٦٨)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح (٥٠٠٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٤٩٩٨).

ثم رجع إلى عائشة. فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقَّة وشدة، فقال نبي الله ﷺ: "إن ذلك كذلك، إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهنَّ أبكارًا"[1].

وصفوة القول أنه كان ﷺ أجمل الناس ودًّا، وأحسنهم وفاء وعهدًا، وأوفرهم للحقوق ذكرًا، وأكثرهم تواضعًا، وأجزلهم عفة وصيانة، وأنضرهم بهجة، وأصدقهم لهجة، وأجملهم سرًّا وإعلانًا، وأغزرهم فضلًا وإحسانًا، ذا مروءة وافرة، يرعى حق الصحبة القديمة، ويتعطف على ذوي رَحِمه بصلاته، ويتلطف بالصغار من أولاده حتى في صلاته، ويعرض عمن تكلم بغير جميل، مجلسه مجلس هدى وعلم، ومحل خير وحياء وحلم، لا تذكر فيه العيوب، ولا تخفر فيه الذمم، إن تكلم أطرق جلساؤه، وإن صمت زاد وقاره وبهاؤه.

لم يكن ﷺ بالجافي ولا المهين، وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا وصاروا عنده في الحق سواء، يعطي كلًّا من جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون المنصَرَف منه، يؤثر أهل الفضل على قدر فضلهم في الدين والخلق، يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشْرَه، يتغافل عما لا يشتهي ولا يكاد يواجه أحدًا بما يكره، أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم لديه أحسنهم مواساة ومؤازرة، كان إذا رآه الناس لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، كان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم، وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم؛ رفقًا بهم وتأليفًا لهم.

يجيب دعوة المسكين والمسكينة، ويعود المرضَى في أقصى المدينة، يقابل عذر المعتذر بالقبول، ويأمر بالحسنة ويدني أهلها، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح، ويتجاوز عن المسيء ويسمح ويدفع بالتي هي أحسن، ويأتي من المعروف بما أمكن، يصل الرحم، ويُقري[2] الضيف، ويقطع أسباب الجَنَف[3] والحَيْف[4]، وعده مقرون بالإنجاز، ولفظه يشتمل على الإيجاز، يدعو أصحابه بكُناهم وأحب أسمائهم إليهم، ويميل إلى محادثاتهم ومداعبة أبنائهم، ولا يجيب أحدًا منهم إلا بالتلبية، ويعم جميع جلسائه من مودته بالتسوية[5]، فأين سوداوية المزاج يا معاشر الحُصَفاء®؟!

ثالثًا. دعوته ﷺ إلى العزلة في بعض أحاديثه يرتبط بحالات معينة:

ينبغي ألَّا يفهم من الأحاديث التي دعت إلى الخلوة،

١. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، الجزء الخامس، من اسمه محمد (٥٥٤٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب صفة أهل النار، باب فيمن يدخل الجنة من عجائز الدنيا (١٨٧٦٤)، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل (٢٠٥).

٢. يُقرِي: يُطعِم.

٣. الجَنَف: الميل والجَور.

٤. الحَيف: الظلم.

٥. محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مكتبة دار المحبة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٢٧: ٢٩ بتصرف يسير.

® في **"تواضع النبي ﷺ مع الصحابة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من هذا الجزء.

أن معناها الانصراف الكلي عن الناس، واتخاذ الكهوف والجبال موطنًا، باعتبار ذلك فضيلة بحد ذاتها، فقد جاءت أحاديث أخرى ترغِّب في الخلطة وتحث عليها.

ونسوق على هذا نماذج من النوعين، ثم نبين الوجه في تأويل كل منها، وإن كان بعضها يكمل بعضًا، ويجري معه على سنن الوفاق، وقضية الائتلاف والاتساق.

فأما أحاديث مدح العزلة، فأكثرها جاء بمدح نوع خاص من العزلة، أو مدح العزلة في زمن خاص، كمدح العزلة عن سلاطين السوء، ومدح العزلة في زمن الفتنة، أما مدح العزلة مطلقًا فلم يثبت فيه من الأحاديث إلا القليل، منها:

- ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: "مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله"، قالوا: ثم من؟ قال: "مؤمن في شِعْب من الشِّعاب، يتقي الله ويدع الناس من شره"[1].

- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عِنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَة[2] طار إليها يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غُنَيمة في رأس شَعَفَة[3] من هذه الشَّعَف، أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير"[4].

- ما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يعجب ربكم من راعي غنم في رأس شظية[5] بجبل، يؤذن بالصلاة ويصلي، فيقول الله تبارك وتعالى: انظروا إلى عبدي هذا يؤذِّن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة"[6].

وإلى جانب هذه الأحاديث، ثبت عن النبي ﷺ أحاديث أخرى تحث على الاختلاط بالناس ومصاحبتهم، والصبر على أذاهم، وهي **كثيرة منها:**

- حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"[7].

- ما رواه الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المِسك ونافخ

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله (٢٦٣٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط (٤٩٩٤).

٢. الهَيْعَة: كلُّ ما يُفزِع الناس.

٣. الشَّعَفَة: أعلى الجبل.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط (٤٩٩٧).

٥. شَظِيَّة بجبل: القطعة من رأس الجبل.

٦. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب صلاة السفر، باب الأذان في السفر (١٢٠٥)، والنسائي في سننه، كتاب الأذان، الأذان لمن يصلي وحده (٦٦٦)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الأذان (١٦٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١).

٧. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ (٢٣١٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب الذي يصبر على أذى الناس (٣٨٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٩).

الكِير[١]، فحامل المسك إما أن يُحذِيك[٢]، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة"[٣].

- وعن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله ﷻ: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ"[٤].

وليس بين هذه الأحاديث تعارض، بل إن المتأمل لها يجد أن بعضها يكمل الآخر، وأن مجموعها يكوِّن الصورة الصحيحة لموقف الإسلام من قضية العزلة والخلطة، ويمكن ضبط جملة ذلك بالآتي:

إن الإسلام دين الجماعة، والأصل في المسلم الاختلاط بالناس، ومعاشرتهم ومخالقتهم؛ ولذلك جاء الشرع بالأمر بالجماعة في الصلوات، في الجمعة، والفرائض، والعيدين، والكسوف وغيرها، إما فرضًا على الأعيان أو على الكفاية.

وجاء الشرع بالهجرة إلى الله ورسوله وذم المتخلفين عن ذلك، ونهى المرء أن يرتدَّ أعرابيًّا[٥] بعد الهجرة، وفي الهجرة اجتماع المسلمين في بلد واحد وتعاونهم وتكاتفهم.

وجاء الشرع بتنظيم العلاقات الاجتماعية وبيان الحقوق والواجبات للفرد والجماعة، وأمر النبي ﷺ بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتَشْمِيْت العاطس، وردِّ السلام، ونصرة المظلوم، وإجابة الداعي، وإبرار المقسم.

وجاء الشرع بإيجاب طلب العلم بالله ودينه إيجاب عين في بعض المسائل، وإيجاب كفاية في بعضها الآخر، وجاء بإيجاب بذل العلم ونشره وتيسيره لمن طلبه، وجاء الشرع بإيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة، والرد على أهل البدع، وجهاد الكفر إيجابًا كفائيًّا، يأثم بتركه والتفريط فيه جميع المسلمين.

وجاء الشرع بالأمر بحسن الخلق واللين والتودد والملاطفة، والتحذير من البذاءة والجفاء، والحسد والحقد، والتباغض والتدابر، وغيرها من الأخلاق الرديئة المذمومة، مما لا يتسع المجال لبسط أدلته.

ومن المعلوم أن الإنسان لا يدري مقدار تحققه بالأخلاق الفاضلة، أو مقدار تخلصه من الأخلاق المذمومة إلا بمخالطة الناس ومعاشرتهم ومعاملتهم في الشئون المختلفة، بحيث يتبين مدى صبر الإنسان وحلمه، وسعة خلقه وطيب معشره، أو يتبين ضد ذلك من التبرُّم، والضيق، وسوء الخلق، ورداءة الطبع.

فالإسلام دين الجماعة، والتوجيهات الإلهية في معظمها موجهة إلى (الذين آمنوا)، وفيها الحث على الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق، وفيها الحث على التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وفيها الحث على الجهاد والقتال صفًّا واحدًا كأنهم بنيان

١. الكِير: وعاء من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإشعالها.

٢. يحذيك: يعطيك.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك (٥٢١٤)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء (٦٨٦٠).

٤. صحيح: أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في المتحابين في الله (٣٥٠٧)، وأحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل (٢٢٠٨٣)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٧٧٨٠).

٥. يرتدَّ أعرابيًّا: أي: يسكن البادية.

مرصوص... إلخ.

وجاء الشرع بإقامة الأخوة الإسلامية بين المؤمنين، وبيان فضلها وأهميتها، والوعد بعظيم الأجر للمتاحبين في الله، والمتزاورين فيه، والمتبادلين فيه، كما جاء بالنهي عن التباغض، والتدابر، والتهاجر، وسائر الأسباب التي تورث الضغينة، وتسبب البغضاء بين المؤمنين.

وبناء على هذا الأصل المهم المتين، فإن الأصل في العزلة الكلية المطلقة هو المنع، إذ يترتب عليها تضييع الحقوق، وتفويت الفرائض، وتعطيل كثير من الواجبات، كترك التعلُّم والتعليم، والأمر والنهي وصلة الرحم والقرابة، مع التعرُّض لكيد الشيطان ومكره ووسوسته وتلبيسه، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، كما في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من ثلاثة في قرية ولا بدوٍ لا تُقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوَذ عليهم[1] الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية"[2].

فهذا يدل دلالة واضحة على منع العزلة المطلقة، وقصة رواية أبي الدرداء هذا الحديث الشريف تدل على هذا المعنى؛ إذ سأل أبو الدرداء معدانَ بن طلحة اليَعْمُري: أفي قرية يسكن أم في مدينة، ثم أوصاه بسُكنَى المدائن.

أما الأحاديث التي وردت في مدح العزلة، وبيان فضل المؤمن المتعبد في شِعْب من الشِّعاب يدع الناس من شره، والثناء على رجل في غُنيمة في رأس شَعَفَة، أو بطن وادٍ يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير، **فتأويلها من وجهين:**

الأول: أن يكون هذا في حق أفراد لا يستطيعون الجهاد، ولا الأمر بالمعروف، ولا النهي عن المنكر، ولو خالطوا لتضرروا بالمخالطة، وأضروا بغيرهم؛ إذ من الناس من لا يستطيع منع أذاه وشره عن الآخرين، إلا باعتزالهم، فإذا خالطهم وجد المثيرات التي تحركه إلى الشر والإضرار بالنفس وبالناس، وذلك كمن يرى المنكرات مثلًا فيهيج وينفعل، ويغيِّر بطريقة غير مشروعة، بل فيها اعتداء وتسرع ربما يؤدي إلى مضاعفة المنكر، وربما يكون سببًا في إغلاق باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وربما يترتب عليه أذى للمؤمنين، وكمن يكون شديد الحساسية ضد المنكرات، فإذا رآها تأثر تأثرًا شديدًا، وتعكَّر مزاجه، وتكدَّرت حياته، فلم يهنأ بعيش ولا بعبادة، وتفاقم لديه الشعور بالغربة، دون أن يصنع شيئًا لضعفه وعجزه، وكمن يعرف من نفسه الضعف والميل إلى الفواحش، فإذا جاورها وخالط أهلها ورآها اقترفها، فهذا عليه بالرحيل عن تلك البيئات؛ حفاظًا لما هو أهم مما سيفقده حال الاعتزال.

فمثل هؤلاء قد تشرع في حقهم العزلة؛ كفًّا لشرهم عن الناس، أو حفظًا لهم عن شرور الناس.

ولذلك جاء في الأحاديث الآنفة نفسها التعبير

---

١. استحوَذ عليهم: استولى عليهم وغلبهم.

٢. حسن صحيح: أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التغليظ في ترك صلاة الجماعة في القرى والبوادي واستحواذ الشيطان (١٤٨٦)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة (٥٤٧)، وقال عنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح (٤٢٧).

بـ"... مؤمن في شِعْب من الشِّعاب يتقي الله، ويدع الناس من شره..."، "... وليس من الناس إلا في خير"، "ورجل اعتزل شرور الناس"، وهكذا.

ومن الظاهر أن المرء إذا كان لا يستطيع نفع المسلمين بعلم ولا جهاد، ولا أمر ولا نهي، ولا غير ذلك، ولا يستطيع كفَّ شره عنهم إذا خالطهم، أو لا يستطيع التَّوقِّي من شرهم في أمور دينه ودنياه فالعزلة في حقه أولى.

ولذلك جاء في أوائل الأحاديث الثناء على المؤمن المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، الممسك عِنان فرسه، يطير على متنه كلما سمع هَيْعَة طار إليها، يبتغي القتل أو الموت مظانه.

الآخر: أن يكون هذا خاصًّا في زمان الفتن التي أخبر عنها النبي ﷺ وأمر بالعزلة فيها، فتحمل هذه الأحاديث المطلقة على الأحاديث المقيدة.

ويؤيد هذا أن في بعض ألفاظ الأحاديث المستشهد بها على فضل العزلة ما يدل على تقيد مجموعها.

ففي حديث أبي هريرة ؓ مرفوعًا: "من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عِنان فرسه في سبيل الله، يطير على مَتنه، كلما سمع هَيعَة أو فَزعَة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غُنيمة"[1]، وهو من أقوى الأحاديث في فضل العزلة؛ إذ فيه العطف بالواو، بينما العطف في الأحاديث الأخرى بـ"ثم" أو عبارة "الذي يليه"، مما يدل على لزوم الرُّتبة، فهذا الحديث نفسه جاء في رواية الإمام أحمد بلفظ: "ليأتينَّ على الناس زمان يكون أفضل الناس فيه...". فذكر نحو ما سبق[2].

كما يؤكد هذا أن عددًا من أئمة الحديث أدخلوا الحديث في مصنفاتهم في كتاب الفتن، كعبد الرزاق، وابن ماجه وغيرهما، وقد صح المعنى عن النبي ﷺ مقيدًا في الفتنة في أحاديث أخرى؛ منها: ما رواه ابن طاووس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "خير الناس في الفتن رجل آخذ بعِنان فرسه خلف أعداء الله يخيفهم ويخيفونه، ورجل معتزل في باديته يؤدي الحق الذي عليه"[3].

وعن أبي هريرة ؓ قال: "يا أيها الناس، أظلَّتكم فتن كأنها قِطَع الليل المظلم، أنجَى الناس فيها صاحب شاة يأكل من رَسْل[4] غنمه، أو رجل من وراء الدرب، أخذ بعنان فرسه، يأكل من سيفه"[5].

فدل هذا على أن الحديث في المفاضلة هو في زمن الفتن، حيث يكون أفضل المؤمنين وأكملهم وأسلمهم رجل قد شغل نفسه بالجهاد وقتال أعداء الله، يخيفهم ويخيفونه، فإن لم يقدر على ذلك نجا بنفسه من الفتنة

---

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط (٤٩٩٧).

2. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ؓ (٩٧٢١)، وابن حبان في صحيحه، كتاب السير، باب فضل الجهاد (٤٦٠٠)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان (٤٦٠٠).

3. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق، باب خير الناس في الفتن (٢٠٧٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٩٨).

4. الرَّسْل: اللبن.

5. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق، باب الفتن (٢٠٧٣١)، والحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم (٨٤٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٨٨).

باعتزالها واعتزال أهلها، والتفرُّد في رأس شَعَفَة أو بطن وادٍ، ولذلك قال الحافظ ابن حجر حول تلك الأحاديث المفضِّلة للعزلة بإطلاق: "وهو مقيد بوقوع الفتن".

أما في الأحوال العادية التي ليس فيها فتنة عامة، فالأصل فيها أن المسلم الذي يستطيع أن يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، ويوصل إليهم النفع الديني والدنيوي هو خير من الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على أذاهم، بل يعتزل شرورهم ويتفرد بنفسه، فقال: وهذا - أي ترجيح الخلطة في الأحوال الطبيعية - هو مذهب جماهير السلف والعلماء[1].

نستخلص مما سبق أن النبي ﷺ لم يحث على الوحدة والاعتزال إلا في حالات خاصة مثل: عدم القدرة على كفِّ الأذى عن الناس، وفي زمان الفتن، أما غير ذلك فقد حثَّ النبي ﷺ على الاختلاط، ونهى عن التباغض والاعتزال، وما ذكرناه من أفعاله ﷺ وأقواله يكفي في الرد على من يزعم أن النبي ﷺ كان يميل للوحدة والانعزال عن الناس، لعدم اعتدال مزاجه.

الخلاصة:

- إن الخلوة التي كان يعيشها النبي ﷺ بين الحين والحين لا تعني العزلة عن الناس، وإنما كانت عزلة لما كانت عليه قريش من اللهو والعبث، ومعاقرة الخمور، والإقبال على الملذات، أما النبي ﷺ فكان يذهب إلى غار حراء يتعبَّد إلى ربه، ويتفكر في ملكوت الله ﷻ، فكان يمكث شهر رمضان فيه، ثم يرجع إلى أهله.

- لقد كان الرسول ﷺ سليم المزاج يداعب أصحابه ويمزح معهم، فكان يقول لأنس ﷺ: "يا ذا الأذنين"[2]، ويقول لأبي هريرة: "يا أبا هِر"[3]، ولم يؤثر عنه ﷺ في سيرته أو سنته ما يفهم منه أنه كان سوداوي المزاج، بل كل ما أُثِر عنه يدعو إلى التفاؤل والبشارة بالسعادة والخير، بل كان ﷺ يكره الطِّيَرَة ونهى عنها، وكان يعجبه الفَأْل الحسن، فهذه كانت حياة النبي ﷺ لا يوجد فيها ما يدل على سوداوية مزاجه ﷺ كما يدعي هؤلاء المشككون بلا تورُّع ولا حياء وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ (الكهف).

- صحيح أن النبي ﷺ قد دعا إلى العزلة والخلوة في بعض أحاديثه، ولكن هذا ليس مطلقًا، بل إن هذه الدعوة مرتبطة ببعض الأحوال، منها: انتشار الفتنة، وزمن سيادة سلاطين السوء، ويؤكد هذا الأحاديث الصحيحة الثابتة التي دعا فيها رسول الله ﷺ إلى مخالطة الناس والعيش بينهم، ولا تعارض بين الأحاديث التي تدعو للخلوة والتي تدعو إلى المخالطة، بل يكمل بعضها بعضًا.

1. أحكام العزلة والخلطة، سلمان العودة، مقال منشور على شبكة المعلومات الدولية (النت).

2. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٢١٨٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح (٥٠٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٠٩).

3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره (٢٨١)، وفي مواضع أخرى.

الشبهة الرابعة

اتهام النبي ﷺ بالإفك والكذب(*)

مضمون الشبهة:

يتهم بعض المدَّعين النبي ﷺ بأنه كاذب أفَّاك، ويستدلون على زَعْمهم هذا بما وُصم به من إفك منذ بدء البعثة المدَّعاة من وجهة نظرهم، وقد اتفق على هذا الوصف عرب الجاهلية مرورًا بأهل الكتاب في أوربا في العصور الوسطى، وانتهاءً بالعصر الحديث؛ إذ لا يزال مَوْصومًا بالصِّفة ذاتها - الإفك والكذب - عند بعض المفكرين المحدثين منهم. ويرمون من وراء ذلك إلى الطَّعن في أخلاقه ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد كان الصدق المحمدي مشهورًا معلومًا في المجتمع المكي الذي كفر بعضه بالرسالة، وظل صدق محمد ﷺ - الصادق الأمين حسبما لقَّبوه - معجزة أُولى دفعت كثيرًا من النَّاس إلى اتباع الرسالة؛ إيمانًا بصدق صاحبها.

٢) إنَّ تناقض موقف المشركين من النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، إنما مردُّه - فقط - إلى ما أحدثه التوحيد الذي يدعو له النبي ﷺ من زلزلة معتقداتهم ومعتقدات آبائهم، وتسفيه أحلامهم، وسبِّ آلهتهم، شأنهم في ذلك شأن من سبقوهم من معاندي الرسل، وهذا يؤكد أن شمائل النبي ﷺ التي امتدحوه بها - في الجاهلية - ما ازدادت بالبعثة إلا كمالًا.

(*) موسوعة القرآن العظيم، عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

٣) إن المتأملَ المنْصِفَ لطبيعة ما اشتملت عليه نصوص الرسالة المحمدية - قرآنًا وسنة - بما فيها من أمر بالصدق، وذم للكذب ونهي عنه من جهة، وجملة ما اعترف به المفكرون الغربيون المنصفون في مقابل ما ادَّعاه آخرون في حق النبي ﷺ من جهة أخرى؛ ليوقن بما لا يدع مجالا للشك صدق النبي الخاتم ﷺ.

التفصيل:

أولا. اشتهار النبي ﷺ بالصدق في قومه:

إنَّ ما كان من تلقيب النبي ﷺ بالصَّادق الأمين لخير شاهد من مشركي قريش أقاموا به الدليل على أنفسهم، والواقع يشهد للنبي ﷺ أنه ما ازداد بالبعثة إلا صدقًا فكان الصادق الأمين، وما زال صادقًا مُصَدَّقًا أمينًا، جذب بصدقه وعظيم خُلُقه كثيرين من أهل مكة، فصدَّقوا دعوته واتبعوه، إيمانًا منهم بأنه ﷺ لا يكذِبُ ولا يتقوَّل؛ فكان صدقه سببًا في إيمان هؤلاء جميعًا.

وعجيب أن يُتهم النبي ﷺ بالإفك، وهو الذي اشتُهر في قومه بمكارم الأخلاق، وجميل الصفات منذ الصبا، حيث كان نمطًا فريدًا متميزًا في بيئة تَعُجُّ بالفساد والانحراف، فقد كان من أحسن الناس خُلقًا، وأفضلهم مروءة، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، فلم يؤثر عنه كذبة واحدة، ولم يَخُنِ الأمانة في يوم من الأيام، شهد بذلك العدو قبل الصديق؛ فلذا لُقِّب بالصادق الأمين، لالتزامه بالصدق والأمانة دائمًا دون تكلُّف أو تصنُّع؛ لأنها أصبحت جزءًا من ذاته كملامح وجهه ولون بشرته، وهذا من فضل الله على رسوله الذي أدبه ورباه حتى بلغ هذه الدرجة الرفيعة في صفاته وأخلاقه.

يقول ابن تيمية: "وكان ﷺ من أكمل الناس تربية ونشأة لم يزل معروفًا بالصدق والبر والعدل، ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم، وترك كل وصف مذموم، مشهودًا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممن آمن به وكفر بعد النبوة، لا يُعرف له شيء يُعادَى به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه، ولا جُرِّبت عليه كذبةٌ قَطُّ، ولا ظلمٌ ولا فاحشة".

ومن أجْل هذه الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة التي عُرِف بها ﷺ أحبه قومه، وكان موضعَ احترامهم وثقتِهم المطلقة، فقد كانوا يأتمنونه على ما عندهم من أشياءَ قيمةٍ، ويقبلون حكمه في مُدلَهِمَّات[1] الأمور، كحادثة اختلاف القبائل في وضع الحجر الأسود في مكانه عند بناء الكعبة، ونظرًا لاشتهاره ﷺ بالصدق والأمانة فيهم نزلوا على حكمه بنفوس راضية مطمئنة، فلو كان الرسول ﷺ أفَّاكًا فهل كانوا يَرْضَوْنَ بحكمه؟!

وجدير بالذكر - في هذا الصدد - أن النبي ﷺ بصدقه وعظيم خُلقه نال ما نال من ثقة مَنْ حوله، حتى لقد كان صدقه سببًا في أحداث كثيرة، منها الاجتماعي والعملي والعقدي، وفي حياته كلها، من ذلك تجارته لخديجة - رضي الله عنها - وزواجه منها، بل وإيمانها بدعوته، ومساندتها له وشدها من أزره ﷺ.

ولم يقف أثر صدقه ﷺ في حياته عند هذا الحد، بل أَثَّر في دعوته - كما أسلفنا - من خلال استجابة مسلمي العهد الأول ومن تبعهم، فشخصيته ﷺ، وعظم أخلاقه، ونُبْل سلوكه، وكرم معاشرته، كانت أهم العوامل الرئيسة في نجاح دعوته.

وإن الذين أسلموا في أوائل العهد المكي لم يكن يجذبهم لهذا الدين الجديد إلا يقينهم الكامل بصدق صاحب الدعوة، فأول الناس إيمانًا على الإطلاق خديجة بنت خويلد، حاضنة الإسلام، فعندما فَجَأَ الحقُّ النبي ﷺ في غار حراء، ورجع إلى زوجه يقصُّ عليها ما حدث، قالت في ثقة كاملة: "أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتُعين على نوائب[2] الحق ..."[3]. فشهدت له بالصدق في الحديث، وهذا قبل البعثة، ثم كان أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، صاحب الرسول قبل البعثة، ودخل معه وخرج، وعَرف سريرته وعلانيته، فلم يتردد لحظةً يوم دعاه إلى الإسلام.

إن الصدق هو المعجزة الأولى التي دفعت الناس إلى الإيمان بالرسالة المحمدية، وظل اليقين بهذا الصدق في سويداء قلب المجتمع المكي، لا يتزلزل اليقين به لسيدنا محمد ﷺ حتى مع كفرهم بالرسالة، حتى جاء القرآن الكريم مؤيدًا ذلك، فقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنعام)[4]، يعني كما يقول ابن عباس

---

١. المُدلَهِمُّ: المظلِم.

٢. النَّوائب: الحوادث والكوارث.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).

٤. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، ط٣، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٣٤، ٣٥ بتصرف يسير.

ـ رضي الله عنهما ـ : "كان رسول الله ﷺ يُسمَّى الأمين، فعرفوا أنه لا يكذب في شيء، ولكنهم كانوا يجحدون"، وكان أبو جهل يقول: ما نكذبك؛ لأنك عندنا صادق، وإنما نكذب ما جئتنا به. ورُوي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد؛ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحد غيرنا، فقال له: والله إن محمدًا لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قُصَي باللواء والسِّقاية والحجابة فماذا يكون لسائر قريش"[1]®؟

ثانيًا. تناقض موقف المشركين من النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها:

إنَّ ما اتهم به مشركو قريش النبي ﷺ من كذب وإفك وتقوُّل بعد البعثة ينقض ما وصفوه به من صدق وأمانة قبلها، ذلك أن الواقف على طبيعة ما جاء به النبي ﷺ يعلم أنه جاء بدين الوحدانية الذي سفَّه أحلامهم، وسب آلهتهم، وخالف ما كان عليه آباؤهم، وطبيعي أن يقف هؤلاء في البداية موقف المعادي لهذا الدين وصاحبه حتى لو كان محمدًا الصادق الأمين.

وطبيعي كذلك أن ينتصر هؤلاء المشركون لآلهتهم ولأنفسهم ومعتقداتهم، ويكيلوا لهذا النبي التهم والأقاويل، ويقلبوا ما وصفوه به آنفًا، فبعد ما كان محمدًا صار مذمَّمًا وأخذوا يسبون مذممًا، ويصفونه بقائمة مُطوَّلة من قبيح الصفات ورذيلها، فهو أفاك وساحر، وشاعر وكاهن... وكذا وكذا إلى آخر هذه القائمة.

غير أن أحدًا من هؤلاء المعاندين لم يعبأ بالتناقض الحاصل بين موقفهم منه قبل البعثة وموقفهم منه ﷺ بعدها، وليس أدل على مدى تلك المفارقة العجيبة مما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء) صعِد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: "يا بني فهر، يا بني عدي.." لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: "أرأيتُكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغِيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ"؟ قالوا: نعم، ما جَرَّبنا عليك إلا صدقًا، قال: "فإني نذير لكم بين يَدَي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تبًّا[2] لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾ (المسد)[3].

فانظر كيف تحوَّل الموقف من النقيض إلى النقيض في لحظة واحدة، وانظر إلى براعة الاستهلال، ولباقة العرض، وبلاغة الحوار، وتأمل كيف استنطقهم بصدقه وألزمهم بتصديقه. !! فما كان ﷺ ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله[4].

وعلى ما فعله هؤلاء مع النبي ﷺ، صارت تلك عادة

---

١. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، القاهرة، د. ت، ج٢، ص١٥.

® في "صدق النبي ﷺ وأمانته" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء.

٢. التَّبُّ: الهلاك والخسارة.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الشعراء (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ﷻ: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء) (٥٢٩) بنحوه.

٤. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٣١٣ بتصرف.

درج عليها هؤلاء المعاندون من تكذيب الرسل واتهامهم بما ليس فيهم - وبئست العادة تلك - فالنبي الصادق صار أفاكًا، وعلى هذا صار القوم يقلبون الحقائق؛ ليشككوا حديثي العهد بالإسلام في محمد ﷺ وما جاء به.

ومن النماذج التي ندلِّل بها على تناقض موقف الأتباع من المتَّبَع بتغييره معتقده، إسلام عبد الله بن سلام، وها هي القصة كما أوردها الشيخ محمد بيومي في كتاب "عظمة الرسول ﷺ" إذ يقول: "عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: انطلق النبي ﷺ يومًا وأنا معه، حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم: "يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلًا يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، يحطُّ الله عن كل يهودي تحت أَدِيم السماء[1] الغَضَبَ الذي غَضِبَ عليهم"، قال: فَأُسْكِتوا ما أجابه منهم أحد، ثم ردَّ عليهم، فلم يجبه منهم أحد، فقال: "أبيتم، فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى، آمنتم أو كذبتم".

ثم انصرف وأنا معه حتى إذا كدنا أن نخرج، فإذا رجل من خلفنا يقول: كما أنت يا محمد! فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله، ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد له بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، فقالوا: كذبت، ثم ردوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًّا، فقال رسول الله ﷺ: "كذبتم، لن يُقبل قولكم، أمَّا آنفًا فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، وأمَّا إذا آمن فكذبتموه، وقلتم، فلن يُقبل قولكم"[2].

قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وعبد الله بن سلام، وأنزل الله ﷻ فيه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأحقاف).

فهذا تصديق آخر من يهودي، وهو في وسط قومه، ولم يمنعه أحد أن يشهد بصدقه ونبوته ﷺ، فهيهات ما ادعاه هؤلاء.

قال ابن القيم: إن عبد الله بن سلام وذويه إنما أسلموا في وقت شدة من الأمر، وقلة من المسلمين، وضعفٍ وحاجةٍ، وأهل الأرض مطبقون على عداوتهم، واليهود والمشركون هم أهلُ الشوكةِ والعُدَّة، والحلقة والسلاح، ورسول الله ﷺ وأصحابه إذ ذاك قد أَوَوْا إلى المدينة، وأعداؤهم يتطلبونهم في كل وجه، وقد بذلوا الرغائب لمن جاءهم بهم، فخرج رسول الله ﷺ وصاحبه وخادمها، فاستخفَوْا ثلاثًا في غار تحت الأرض، ثم خرجوا بعد ثلاث على غير الطريق إلى أن قدموا المدينة، والشوكة والعدد والعُدَّة فيها لليهود والمشركين.

فأسلم عبد الله بن سلام حين مقدم النبي ﷺ بالمدينة لما رأى أعلام النبوة التي كان يعرفها وشاهدها فيه،

---

١. أَدِيم السماء: ظاهرها.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار (٢٤٠٣٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة ﷺ رجالهم ونسائهم، باب ذكر عبد الله بن سلام ﷺ (٧١٦٢)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٨١).

وترك الأغراض التي منعت المغضوب عليهم من الإسلام من الرياسة والمال والجاه بينهم، وقد شهدوا له كلهم عند رسول الله ﷺ أنه رئيسهم وخيرهم وسيدهم، فعلم أنهم إن علموا بإسلامه أخرجوه من تلك الرياسة والسيادة، فأحب أن يعلم رسول الله ﷺ بذلك، فقال: أدخلني بعض بيوتك وسلهم عني ففعل، وسألهم عنه، فأخبروه أنه سيدهم ورئيسهم وعالمهم، فخرج عليهم وذكرهم وأوقفهم على أنهم يعلمون أنه رسول الله، وقابلهم بذلك، فسبوه وقدحوا فيه، وأنكروا رياسته وسيادته وعلمه"[1].

يعضد هذا أن مشركي قريش عرضوا على النبي ﷺ من الإغراءات ما هو معلوم وثابت في كتب التاريخ، من مال وملك ووجاهة، فلما أبى النبي ﷺ - بوصفه رجلًا من أصحاب الرسالات والمبادئ - جرَّدوه مما عرضوه، ولم يأبهوا لحظة واحدة بأن يُهينوا هذا الذي كانوا مستعدين منذ قليل لجعله ملكهم وأغناهم وأوجههم، وقاطعوه في شِعب بني طالب، وكالوا له التهم، والأوصاف، لا لشيء إلا لما جاء به من عقيدة الإسلام الخاتمة بما تقتضيه تلك العقيدة من وحدانية لا يعترفون بها.

وبالمقارنة بين موقف المشركين مع النبي ﷺ، وتناقض اليهود كذلك مع عبد الله بن سلام، نبادر بسؤال مُؤَدَّاه: هل اعتمد اليهود والمشركون في وصفهم - الثاني - للنبي ﷺ وابن سلام على دليل قوي، أم دفعهم التعصب العقدي الأعمى دونما حيدة أو إنصاف أو تُؤَدَة؟!

ثم أليس في موقفهم هذا من التناقض ما لا نجد له مسوِّغًا إلا مجرد الانتصار للمذهب حقًّا كان أو باطلًا؟!

ثم أَمِنَ المنطق أن نصدق نحن وصفهم الأول أم الثاني؟!

إن مما لا يكاد ينكره منصف أن ما وصف به اليهودُ عبدَ الله بن سلام أولًا - قبل علمهم بإسلامه - من كونه خيرهم وابن خيرهم، وأفضلهم وابن أفضلهم لأصدق - بالتأكيد - مما اتهموه به حسدًا من عند أنفسهم بعد علمهم بإسلامه - شرنا وابن شرنا - وما تنقَّصوه به.

ولا يبعد عن هذا المنطق أن نقرر أن ما وصف به المشركون النبي ﷺ - أولًا - بقولهم: ما جربنا عليك كذبًا قط، وما لقبوه به من أنه "الصادق الأمين" أصدق وأقرب للحقيقة من الإفك الذي اتهموه به بعدما عرفوا أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد، وما تقتضيه رسالته من الوحدانية، وسب الأصنام، وتسفيه الأحلام، ومخالفة الآباء، وعبادة الله وحده لا شريك له، فبقدر ما أحدثت دعوة النبي في نفوس هؤلاء من الاهتزاز وبقدر ما أثَّرت في معتقداتهم من انقلاب انبروا لسبه ﷺ والتشنيع به وقلب ما مدحوه به من قبل ذمًّا؛ تبريرًا لموقفهم، وإرضاء لذواتهم، وانتصارًا لمعتقداتهم الوثنية.

وليس النبي محمد ﷺ في هذا بدعًا من الرسل "فقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن يكون لكل نبي أعداء يحاربون دعوته ويصدون الناس عنه، كما قال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا

---

1. عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، دار مكة المكرمة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ١٠٢، ١٠٣ بتصرف يسير.

﴿فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ (الأنعام)، قال ابن كثير: يقول الله ﷻ: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضًا أعداء فلا يحزنك ذلك كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ (الأنعام)، وقال ﷻ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝٤٣﴾ (فصلت)، وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾ (الفرقان)، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي"[1][2].

وحسبنا من هؤلاء المشركين وصفهم للنبي ﷺ بالصادق الأمين وَدَعْنَا مما اقتضاه موقفهم العدائي المتحامل عليه ﷺ المتقول عليه بما ليس فيه كدأب من سبقوهم مع أصحاب الدعوات والرسالات ممن سبقوا النبي ﷺ.

ثالثًا. أمره ﷺ بالصدق ونهيه عن الكذب:

إنَّ المتأمل ـ المنصف ـ لطبيعة ما اشتملت عليه رسالة النبي الخاتم محمد ﷺ ـ في القرآن والسنة ـ ليقف على ما فيهما من أمر بالصدق، ونهي عن الكذب وتحذير من آفات اللسان أيًا ما كان الحال.

ومعلوم أن "مما حثَّ الإسلام عليه من الأخلاق، الصدق في القول والعمل، وفي كل حال وشأن مع نفسه ومع غيره وقبل كل شيء مع خالقه، فكيف للنبي ﷺ أن يكون أفاكًا وهو الذي بلَّغ عن رب العزة قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ۝١١٩﴾ (التوبة)، ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾ (محمد).

وفي النهي عن الكذب وحفظ اللسان، قال ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ (ق)، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾ (الإسراء).

هذا بعض ما بلَّغه النبي ﷺ عن ربه ﷻ بشأن الصدق، وهو كافٍ ـ وإن كان على سبيل التمثيل لا الحصر ـ لأن يستبعد المنصف أن يَسِمَ النبي ـ القدوة المبلِّغ لتلك الأوامر والنواهي ـ بالإفك والكذب ـ على حد ما زعموا ـ ناهيك عما رُوي عنه ﷺ بشأن الصدق الذي كان ثالث ما أُمِر به حسبما رُوي في الحديث بعد التوحيد والصلاة، فعن أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هرقل، قال هرقل: فبماذا يأمركم، قال أبو سفيان: قلت: يقول: "اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة"[3].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي والرؤيا (٦٥٨١)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).

٢. عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، مرجع سابق، ص٧، ٨.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

وقد جاء عن رسول الله ﷺ في بيان منزلة الصدق، وأنه أساس البر، وسبيل إلى الجنة قوله: "إن الصدق يهدي إلى البِرِّ، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذَّابًا"[1].

فالكذب من أبشع ما يُتصَف به الإنسان لذا حذَّر منه ﷺ، بل كرهه كثيرًا، فعن أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "ما كان من خُلُق أبغض إلى الرسول ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يحدث النبي ﷺ بالكذبة فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة"[2].

وحذَّر من الظن لما يترتب عليه من الكذب، فعن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال: حفظت من رسول الله ﷺ: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة"[3].

والكذب محرم في شريعة الإسلام ولو بالمزاح، قال ﷺ: "لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب من المزاحة، ويترك المراء[4] وإن كان صادقًا"[5][6].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: "أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[7].

وبعد.. كانت هذه طائفة من بعض ما روي عنه ﷺ، وهي أيضًا من أدل ما يستحيل معه أن يُوصَم قائلها بالإفك، وهو الذي ألَحَّ على ذمِّهِ والترغيب في ضده ـ وهو الصدق ـ على نحو ما أسلفنا، وكلها تؤكد صدقه الكامل الذي ما شابته شائبة ـ وما ينبغي أن تشوبه، مُبَرَّأً مما وصمه به الواصمون، وتقوَّل عليه به المتقوّلون ﷺ.

وما كان قديمًا من دوافع حَدَتْ بالمشركين لتكذيب النبي ﷺ ودعوته ـ على الرغم من يقينهم الجازم بصدقه ﷺ ـ لا تبعد كثيرًا عما حَدَا بأذنابهم في كل زمان ومكان. يقول ابن القيم: "وهذا قد رأيناه نحن في زماننا وشاهدناه عيانًا، ولقد ناظرت بعض علماء النصارى معظم يوم، فلما تبيَّن له الحق بُهِت، فقلت له

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (التوبة) (٥٧٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٦٨٠٣).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٢٢٤)، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب الصدق والكذب (١٩٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٥٢).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند أهل البيت، حديث الحسن بن علي ﷺ (١٧٢٣)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه (٢٥١٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٧٧٣).

٤. المِراء: الجدال.

٥. صحيح لغيره: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٦١٥)، والطبراني في معجمه الأوسط، ج٥، من اسمه محمد (٥١٠٣)، وقال عنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره (٢٩٣٩).

٦. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص ٣٩٨ بتصرف يسير.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (٣٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٢١٩)، واللفظ للبخاري.

وأنا وهو خاليان: ما يمنعك الآن من اتباع الحق؟ فقال لي: إذا قدمت على هؤلاء الحمير ـ هكذا لفظه ـ فرشوا لنا الشقاف تحت حوافر دابتي، وحكَّموني في أموالهم ونسائهم، ولم يعصوني فيما آمرهم به، وأنا لا أعرف صَنْعةً ولا أحفظ قرآنًا، ولا نحوًا ولا فقهًا، فلو أسلمت لَدُرْتُ في الأسواق أتكفَّفُ الناس، فمن الذي يطيب نفسًا بهذا؟!

فقلت: هذا لا يكون، وكيف تظن بالله أنك إذا آثرت رضاه على هواك يخزيك ويذلُّك ويُحْوِجُك؟! فلو فرضنا أن ذلك أصابك فما ظفرْت به من الحق والنجاة من النار، ومن سخط الله وغضبه، فيه أتم العوض عما فاتك، فقال: حتى يأذن الله، فقلت: القدر لا يُحتج به، ولو كان القدر حجة لكان حجة لليهود على تكذيب المسيح، وحجة للمشركين على تكذيب الرسل، ولا سيما أنتم تُكذِّبون بالقَدَرِ فكيف تحتج به؟! فقال: دعنا الآن من هذا وَأَمْسَك"[1].

شهادة المنصفين من الغرب بصدقه ﷺ:

ولا يبتعد عن الذهن أن ناسًا من الغرب المهاجمين للإسلام كان جهلهم وراء موقفهم من الإسلام ونبيه محمد ﷺ، وهذا ما أوضحه **المفكر الفرنسي ديبا سكييه** حين قال: "إن الغرب لم يعرف الإسلام أبدًا، فمنذ ظهور الإسلام اتخذ الغرب موقفًا عدائيًّا منه، ولم يكُفّ عن الافتراء عليه والتنديد به، لكي يجد المبررات لقتاله، وقد ترتب على هذا التشويه أن رسخت في العقلية الغربية مقولات فظَّة عن الإسلام، ولا شك أن الإسلام هو الوحدانية التي يحتاج إليها العالم المعاصر؛ ليتخلص من متاهات الحضارة الماديةف المعاصرة التي لا بد إن استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان"[2].

ويقول الكاتب السويسري "مسيمر" (١٨٢٧ ـ ١٨٩٨م) في كتاب "العرب في عهد محمد" ترجمة الأستاذ فؤاد بطرس: "إن من تَسَافَه وتطاوَلَ، وأنكر صدق محمد ﷺ فقد بتَّ بهذه المسألة دون أن يُحلّها وحَمَّل ضميرَه مسئولية المكابرة العمياء، ورمى نفسه في نهاية سيئة؛ إذ ليس من وحي الضمير الحر ما يقترفه أولئك المُغْرِضُون على محمد ﷺ الذي اتصف بكل صفات الكمال".

ويقول الأديب والمفكر الإنجليزي وليم سوير في كتابه "سيرة محمد": "امتاز محمد ﷺ بوضوح كلامه ويُسْرِ دينه.. ولقد أَتَمَّ من الأعمال ما أدهش الألباب.. فلم يشهد التاريخ مُصلحًا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق الحسنة.. ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد ﷺ".

ويقول المستشرق السويدي د. سترستين (١٨٦٦ ـ ١٩٥٣م) في كتابه "تاريخ حياة محمد": "إننا نظلم محمدًا إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا..".

ويقول المستشرق الفرنسي كازانوفا: في كتاب "حضارة الشرق": "يهمني أن أجهر أولًا بأنني رافض أصلًا لكل نظرية يفهم منها الشك في صدق وطهارة محمد ﷺ، وإن سيرة محمد من بدايتها وحتى نهايتها تدل على أنه شُرِّفَ، ولا مناص من الإقرار بأن محمدًا كان

---

١. عظمة الرسول، محمد بيومي، مرجع سابق، ص١٠٣.

٢. حرب الغرب على الإسلام والنبي ﷺ، محمد بن عبد الملك الزغبي، دار الحكمة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٨٨.

على نقاء وسمُوّ".

ويقول المستشرق البلجيكي د. دوسين في بحثه "الحياة والشرائع": "ليس يزعم اليوم أحد أن محمدًا ﷺ راح يزوِّر دينًا، أو أنه كاذب في دعواه، أو أفاك في رسالته.. إن من يعرف محمدًا، ويدرس سيرته بتفكير علمي، ويستوعب ما يتمتع به دينه من تشريعات تصلح أن تظل مع الزمن مهما طال لا يملك إلا أن يحترمه ويقدِّره.. وكل من يكتب عن محمد ﷺ ودينه ما لا يجوز، فإنما هو من قلة التدبير، وضعف الاطلاع، وامتهان للمنهج العلمي المحايد".

ويقول المفكر والأديب الفرنسي أميل در مجنهام (١٧٩٠ ـ ١٨٥٧م) في مقدمة كتابه "حياة محمد": "لا يوجد واحد في الدنيا يمكنه أن ينكر عظمة محمد ﷺ، ولكن وُجِدَ مَنْ ينكرُ بعض ما جاء في سيرته في الكتب العربية.. ومن الناس من يتجاوز الحد في النقد والاعتراض.. حتى يقع في ظلم نفسه، أما أنا فقد جعلت كتابي هذا سيرة حقيقية مبنية على المنابع العربية الأصيلة بدون إهمال جميع ما وصلت إليه من تدقيقات المتخصصين المحايدين في هذا الموضوع، خاصة الأزمنة المتأخرة.

وقد أردت أن أُمثِّل لمحمد ﷺ صورة مطابقة له بقدر الاستطاعة كما فهمته من الكتب التي قرأتها وأمعنت النظر فيها.. ومن مشافهة الأحياء من المسلمين... فإذا كانت كل حياة بشرية تنطوي على تعليم، وكانت كل حادثة تشتمل على مشهد يمثل حقيقة من الحقائق، فكم يكون مؤثرًا ومفيدًا التلاقي مع رجل عظيم من الرجال العظماء.. الذي يُقتدَى به في جانب كبير من الإنسانية".

ويقول المستشرق الألماني د. تيودور نولدكه في كتابه "تاريخ النص القرآني": "وحري بنا أن ننصف محمدًا ﷺ في الحديث عنه؛ لأننا لم نعلم عنه إلا كل صفات الكمال فكان جديرًا بالتقدير والاحترام".

ويقول المفكر السويسري يوهان دي كبرت (١٨٣٦ ـ ١٩١٢م) في كتابه "محمد والإسلام": "كلما ازداد الباحث تنقيبًا في الحقائق التاريخية الوثيقة المصادر فيما يخص الشمائل المحمدية، ازداد احتقارًا لأعداء محمد ﷺ أمثال أنجلز وبريدر وماركس في آرائه القديمة، وغيرهم من متعصبي المستشرقين الذين أشرعوا أسنة الطعن في محمد ﷺ قبل أن يعرفوه ويدرسوا دعوته، ونسبوا إليه ما لا يجوز أن ينسب إلى رجل عادِي فضلًا عن رجل كمحمد الذي يحدثنا التاريخ بأنه سار حسب هداه وإرادته المستمدَّيْنِ من الله".

ويقول الشاعر الفرنسي الكبير لامارتين في كتابه "السفر إلى الشرق": أترون أن محمدًا كان أخا خِداع وتدليس؟ وصاحب باطل وإفك؟ كلا بعدما وَعَيْنَا تاريخه ودرسنا حياته، فإن الخداع والتدليس والباطل والإفك كل تلك الصفات هي ألصق بمن وصف محمدًا ﷺ بها؛ لأنهم من منافقي العقائد.

إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده، ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه، وشهامته، وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وثباته، وتقبله سخرية الساخرين، وحميته في نشر رسالته، وحروبه التي كان جيشه فيها أقل عددًا من عدوه، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر، وتطلعه إلى إعلاء الكلمة وتأسيس العقيدة..

ونجواه التي لا تنقطع مع الله..

كل هذا دليل على أنه لم يكن يُضمر خداعًا، أو يعيش على باطل وضلال، بل كان وراءه عقيدة صلبة صادقة، ويقين مضيء في قلبه، وهذا اليقين الذي ملأ روحَهُ هو مِنَ الله لا شك، وبذلك جَدَّد الحياة بفكرته العظيمة، وحُجَّتِهِ القائمة، وشاغله في هذا كله تأكيد وحدانية الله[1].

ونهاية القول فهذا إقرار بأن النبي ﷺ لم يكن كذابًا ولا أفَّاكًا، شهد بذلك القاصي والداني، والعدو والصديق، مما ينفي كل شبهة، ويرد كل باطل يُتَّهم به النبي ﷺ ورحم الله القائل:

وشَمَائِلٌ شَهِدَ العَدوُّ بِفَضلِهَا

والفَضْلُ مَا شَهِدَتْ به الأعداءُ®

الخلاصة:

- إن فيما لُقِّب به النبي ﷺ قبل البعثة - الصادق الأمين - خيرَ شاهد - أقام به مشركو قريش الدليل على أنفسهم - على الصدق المحمدي الذي لا يشوبه كذب، وإن النبي محمدًا ﷺ - الصادق الأمين - ما ازداد بالبعثة إلا صدقًا وتصديقًا، فكان خير قدوة لخير مقتدٍ، ولقد كان صدق النبي ﷺ المعجزة الأولى التي دفعت كثيرًا من مسلمي العهد المكي إلى الإيمان برسالة الإسلام، إيمانًا ويقينًا في صدق المُرْسَل بها الداعي إليها محمد ﷺ.

- إنَّ التناقض الحاصل في موقف القرشيين، وقلب ما امتدحوه به اتهامًا بالإفك، لأَمْرٌ طبيعي جرت به عادةُ مَنْ قبلهم مع رسلهم من إجهاض الدعوات ونبذ الدعاة إليها بالسب والنقيصة لا لشيء إلا لمعاداتهم لدعواتهم، ولقد كان من سنن الابتلاء في حياة النبي ﷺ - كسائر الرسل والأنبياء - أن يَكيل له المشركون من ذميم الصفات بقدر ما أحدث التوحيد في نفوسهم من هزّة وزلزلة وسب لآلهتهم وتسفيه لعقول الآباء والأجداد.

- إن في آيات القرآن الكريم التي أُوحي بها إلى محمد ﷺ، والسُّنة النبوية المطهرة التي رواها صحابته عنه من النصوص الصريحة الآمرة بالصدق الناهية عن الكذب، ما يكفي ليستبعد المنصف أن يخالف مُبَلِّغُ هذه الأوامر - الآمر بالصدق الناهي عن الكذب في نفسه وخلُقه - ما بَلَّغه فيأتي ما نهى عنه ويترك ما أمر به؛ إذ إن هذا لا يستقيم طبعًا وعقلًا، ومنطقًا في شأن النبي ﷺ، أو غيره.

- كما أنَّ شهادات المنصفين من مفكري الغرب بعظيم شمائل النبي ﷺ وصدقه ووضوحه، في مقابل ما ادَّعاه آخرون ممن فارقوا الإنصاف والحيدة - لخير دليل على إبطال حُجَج المدعين، ودَحْض الشُّبه التي ساقوها زورًا وبهتانًا في حق رسول الله ﷺ.



---

1. عظمة الرسول ﷺ، محمد بيومي، مرجع سابق، ص١٤: ٢٧ باختصار.

® في **"شهادة منصفي الغرب بكمال عقل النبي ﷺ وتسامحه وصدقه وإخلاصه"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

الشبهة الخامسة

ادعاء أن النبي ﷺ كان يكيل الشتائم صاعًا بصاع حتى لأولي قُرْباه(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن النبي ﷺ كان يكيل السِّباب واللعنات لكل من قاومه، ويستدلون على ذلك بأنه لما مات ابنٌ لمحمد ﷺ من خديجة - رضي الله عنها - وقال العاص بن وائل: إن محمدًا أبتر[1]، ردَّ ﷺ هذه السُّبَّة قائلا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ (الكوثر)، وأنه قد شتم عمه أبا لهب عندما قال له: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟! قائلا: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ (المسد). ويرمون من وراء ذلك إلى نسبة ما لم يصدر عنه ﷺ له؛ تمهيدًا للطعن في أخلاقه ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) الزعم أنه ﷺ كان يكيل الشتائم صاعًا بصاع، لا يتفق وما عُرف به ﷺ بين الجميع - بشهادة الأعداء قبل الأتباع - من الحلم، والصبر، وحسن الخلق عمومًا.

٢) ما سبَّ النبي ﷺ العاص بن وائل ولا عمه أبا لهب، على الرغم من عدائهما الصارخ لدعوة الحق، بل إن الله ﷻ هو الذي تولى الدفاع عن نبيه، وأنزل هذه الآيات تهديدًا وتحذيرًا، لهذين الكافِرَين المعاندَيْن، وما الرسول ﷺ إلا مبلغ عن الله ﷻ فحسب.

(*) هل القرآن معصوم، عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

١. الأبتَر: الذي لا ذُرِّيَّة له.

التفصيل:

أولا. الزعم أن النبي ﷺ كان يكيل الشتائم لا يتفق مع ما عرف عنه ﷺ من حسن الخلق:

القول بأنه ﷺ كان يكيل الشتائم لمن يشتمه، لا يتفق مع ما عُرف عنه ﷺ من حسن الخلق والعفو العظيم عمن ظلمه، فإنه ﷺ لم يكن فاحشًا في القول؛ فقد رُوي عنه ﷺ أنه قيل له وهو في القتال: لو لعنتهم يا رسول الله؟ فقال: "إني لم أُبعث لعَّانًا وإنما بُعثت رحمة"[2]، وكان إذا سُئل أن يدعو على أحد، مسلم أو كافر، عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له، وما ضرب بيده أحدًا قط، إلا أن تُنتهك حرمة الله[3]، وهناك الكثير من المواقف التي يظهر فيها عفوه ﷺ ومقابلته الإساءة بالإحسان، ومن هذه المواقف الكثيرة، أنه "تصدى غورث بن الحارث ليفتك برسول الله ﷺ وهو نائم تحت شجرة قائلًا[4] والناس قائلون، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم، والسيف مصْلَت على رأسه في يد الرجل، وهو يقول: من يمنعك مني؟ فقال ﷺ بقلب مؤمن ولسان صادق: "الله"، فسقط السيف من يد الرجل، فأخذه النبي ﷺ وقال: "من يمنعك مني"، قال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فدنا قلب الرجل بعد نفور، وصار داعية لمحمد ﷺ، بعد أن كان يريد قتله"[5].

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٦٧٧٨).

٣. حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٤١٥ بتصرف يسير.

٤. القائل: الذي ينام وقت الظهيرة.

٥. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص ١٧٦.

ومما يدل على عفوه ﷺ وعلى حرصه على أن لا يظلم أحدًا، موقفه في غزوة بدر، عندما كان يعدّل الصفوف بقدح في يده، فمرَّ بسواد بن غزية حليف بني النجار، وهو مُستَنتِل من الصف[1]، فطعن رسول الله ﷺ بالقدح في بطنه، وقال: "استوِ يا سواد"، فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالعدل، فأقدني[2]، فقال رسول الله ﷺ: "استقد"، قال: يا رسول الله، إنك طعنتني وليس عليَّ قميص، قال: فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: "استقد"، فاعتنقه وقبَّل بطنه..."[3][4] إلى آخر هذه القصة التي توضح مدى عفوه ﷺ إلى درجة أنه كان لا يقبل على نفسه مجرد الإحساس بالظلم لأي أحد.

وهناك الكثير من شهادات المنصفين من غير المسلمين الدالة على عفوه ﷺ وحسن خلقه، ومن ذلك: "يقول ردونسن: بظهور عدد من المؤرخين الأوربيين المستنيرين في القرن الثامن عشر بدأت تكتمل صورة هي صورة محمد ﷺ الحاكم المتسامح والمشرِّع"[5].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قول مونته: "كان محمد ﷺ كريم الأخلاق حسن العشرة عذب الحديث، صحيح الحكم، صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم، وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله"[6].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قول نهرو: "فاقت أخلاق نبي الإسلام كل الحدود، ونحن نعتبره قدوة لكل مصلح يود أن يسير بالعالم إلى سلام حقيقي"[7].

وبذلك يتأكد لنا حسن أخلاق النبي ﷺ، وأنه كان منزّهًا عن العيوب والنقائص، وذلك كله باعتراف وإقرار من المنصفين الذين لا ينتمون إلى دينه ﷺ، وإليك هذا الموقف الذي إن دل على شيء، فإنما يدل على حلم النبي ﷺ وعلى مقابلته الإساءة بالإحسان:

ففي إحدى المرات التي ذهب فيها إلى الكعبة للصلاة "ذهب رجل ـ بأمر أبي جهل ـ يبحث عن أمعاء شاة، فأتى بأمعاء دابة مضى على ذبحها أيام كثيرة، ثم ترقَّب الرسول ﷺ حتى سجد في صلاته، وإذ ذاك رمى بما في يده على عنقه، وأكتافه، فانتفض القوم ضاحكين، حتى انقلبوا على قفاهم تتخبط أجسامهم.

أما رسول الله ﷺ فلم يظهر عليه أي أثر لهذه الإهانة الشنيعة، وظل يزاول عبادته، ولم يخلصه من تلك القاذورات إلا ابنته فاطمة التي أقبلت بعد ذلك بقليل، وجعلت تسب هؤلاء الطغاة الذين لا يردهم أي وازع من شرف أو قرابة عن فعلة شنيعة مثل هذه"[8].

فلم يرد ﷺ على هذه الإهانة بإهانة مثلها، بل صبر واحتسب، وكان يردد دائمًا: "اللهم اغفر لقومي فإنهم

١. مُستَنتِل من الصَّف: خارج منه.
٢. أقدني: مكِّنّي من نفسك حتى أقْتَصّ.
٣. صحيح: أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة، باب السين، من اسمه سفيان (٣١٣٣)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب النفقات، باب ما جاء في قتل الإمام وجروحه (١٥٧٩٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٣٥).
٤. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٩.
٥. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١٢٩.
٦. المرجع السابق، ص ١٥٩.
٧. المرجع السابق، ص ١٦٨.
٨. محمد رسول الله ﷺ، أتيين دينيه، مرجع سابق، ص ١٢٥.

لا يعلمون"(١) ®.

ثانيًا. لم يسب النبي ﷺ العاص بن وائل ولا عمه أبا لهب، ولكن الله ﷻ هو الذي تولّى الدفاع عنه:

أما سبب نزول قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر)، فقد نزلت في العاص بن وائل، وهو أحد أعداء النبي ﷺ الألدّاء، فهو طاغوت آخر من طواغيت قريش، ورأس من رءوس الكفر المستهزئين برسول الله ﷺ، مثله مثل أبي جهل وأبي لهب.

يقول القرطبي: "شانئك، أي: مبغضك، وهو العاص بن وائل، وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات، ثم مات البنون، وبقي البنات: أبتر، فيقال: إن العاص وقف مع النبي ﷺ يكلمه، فقال له جمع من صناديد قريش، مع من كنت واقفًا؟ فقال: مع ذلك الأبتر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله ﷺ وكان من خديجة، فأنزل ﷻ في شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ (الكوثر)، أي: المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة"(٢).

وظاهر من هذا التفسير أن القرآن الكريم قد استعمل لفظ العاص بن وائل بغير المعنى الذي أراده، فليس في الآية - على هذا - أصل لادّعاء السبِّ الذي بدا أنه يقوم على فَهْمٍ خطأ لمورد اللفظة في القولين، وفي هذا يقول الإمام الطاهر ابن عاشور: "ومعنى الأبتر في الآية: الذي لا خير فيه، وهو ردٌّ لقول العاص بن وائل أو غيره في حق النبي ﷺ، فبهذا المعنى استقام وصف العاص أو غيره بـ "الأبتر"، دون المعنى الذي عناه هو؛ حيث لَـمَزَ النبي ﷺ بأنه أبتر، أي: لا عَقِبَ له؛ لأن العاص بن وائل له عقب"(٣).

ويسوِّغ - بعد هذا التصحيح - أن تعد الآية مثالًا للرد الرفيع على إساءة مبتذلة، وهو رد رفيع بتفسير أنه جاد في أدب وتنزُّه، ولا يشكل هذا ومثله إلا على من يخلطون بين التأدُّب في القول، وبين الميوعة الناعمة التي لا تليق بدعوة تؤدَّى باليد واللسان.

وأما سورة المسد فيقول صاحب "الظلال": "نزلت هذه السورة ترد على الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته، وتولى الله ﷻ عن رسوله ﷺ أمر المعركة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ (المسد)، والتباب: الهلاك والبوار والقطع، و﴿تَبَّتْ﴾ الأولى دعاء، ﴿وَتَبَّ﴾ الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء، ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهي المعركة ويُسدل الستار"(٤)!

فليس في الآيات إذن شيء مما يفهمه الناس من لفظة الشتم أو السباب، بل الذي تقوله شيء آخر، هو الوعيد

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٩٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٧).

® في **"سمو أخلاق النبي ﷺ وصفاته وخصاله"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢٠، ص٢٢٢.

٣. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج١٥، ج٣٠، ص٥٧٦.

٤. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٦، ص٤٠٠٠.

لمن يواجهون الدعوة، ويقولون: "تبًّا" لرسولها ﷺ، فنقول لهم: بل التباب لمكذبي هذا الرسول وجاحدي دعوته والحق الذي معه.

على أن مطالع الأناجيل كثيرًا ما يجد المسيح يخاطب طائفة الفَرِّيسِيِّين بأنهم مُراءون وجَهَلَة وعُميان، بل حين قال له قوم منهم: "يا معلِّم، نريد أن نرى منك آية، فأجاب وقال لهم: جيل شرير فاسق يطلب آية؟! ولا تُعطى له آية إلا آية يونان النبي". (متى ١٢: ٣٨، ٣٩)، وهو جواب شديد على مطلب ينبغي أن ينتظره كل نبي.

والأمر هنا يستدعي أن نُجَلِّي حقيقة شخصية أبي لهب هذا الذي أفرد القرآن له ولزوجه سورة كاملة، فلقد تفرَّد من بين إخوته وسائر قرابة النبي ﷺ بمزيد عداء للدعوة وحنق على رسولها.

لقد كانت لأبي لهب طبيعة غير طبيعة إخوته، فإخوته يطلبون السيادة والشرف والعزة بالخلق العربي الصميم، وهو يطلب المال والدنيا، وفيه أثرة، وحب للذات، ومن يكون كذلك يميل دائمًا إلى الابتعاد عما يثير المتاعب، ويُؤْثِر في المال ويُوجِد اضطرابًا، وبذكائه الشديد أدرك أن دعوة محمد ﷺ تقدمة لمتاعب لمن يعتنقها أو يحميها، فقاومها، وشدد في المقاومة، وطبيعته المادية جعلته لا يفكر في أي أمر معنوي، ولا في رجاء لنصرتها، وطبيعة الأثرة فيه جعلته لا يفكر في إحساس غيره، ولا في معاونة من يحتاج إلى معاونة طويلة مديدة من أسرته.

وتلك الطبيعة التي لا تريد إلا استقرارًا لأجل المال، وما يتصل به من متع تكره تغيير ما كان عليه الآباء، بل ترغب في أن تسير الحياة نمطية، لا تغيير فيها ولا اضطراب.

ولعل هذه الطبيعة هي التي جعلته لا يخرج مع قريش في غزوة بدر الكبرى، وخرج العباس وإن كان كارهًا محرجًا، وهناك عامل ثان فوق ذلك العامل النفسي؛ وهو أن زوجه أم جميل الأموية أخت أبي سفيان كانت عاملًا مذكيًا لتلك الطبيعة المعاندة، كانت تكره رسول الله ﷺ، وتكره زوجه أم المؤمنين خديجة، والتقى كرههما في قرن رجل واحد من يوم زواجهما الميمون الطاهر، ولا ندري أكان الزواج هو السبب أم كان غيره.

ولقد كانت أخت أبي سفيان لا تتردد في أن تقرض الشعر ذمًّا للنبي ﷺ وتسميه مُذَمَّمًا ولا تسميه محمدًا، ومما قالت في ذلك:

مُذَمَّمًا قلينا ودينه أبينا

وأمره عصينا

ولقد تلقَّى ﷺ شعرها هذا بالاستضحاك، ولم يعتبر ذلك شتمًا له؛ لأنها لم تذكر اسمه في شتمها، فقال ﷺ: "ألا تعجبون كيف يصرف الله ﷻ عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذممًا، ويلعنون مذممًا، وأنا محمد"[1]. وكان فيها مع ذلك صفة السفيهات من النساء، إنها كانت تمشي بالنميمة، فتوقد نيران العداوة.

هذا هو أبو لهب، وهذا هو السر في عداوته للحق، ولمحمد ﷺ مع قرب رحمه، ومع أنه سُرَّ لولادته وقت أن ولد.

هذا أبو لهب، وذلك موقفه من دعوة النبي ﷺ التي

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٣٤٠).

كرَّهته فيه بعد وُدّ، أو إن شئت فقل محبته له في صباه حتى بدا ما يتخالف فيه الطبعان، طبع العم المادي، وطبع ابن أخيه الروحي الذي لا يحرص على المال"[1].

هذا عن موقف أبي لهب العدائي الذي إن كان مقبولًا من بعض كفار قريش، كأبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، وغيرهم، فهو غير مقبول تمامًا من أبي لهب، وذلك لقرابة النَّسَب التي بينه وبين النبي ﷺ، ولا سيما إذا علمنا أن هذا العداء للنبي ﷺ، كان منذ أن كان ﷺ صبيًّا.

لقد بدأ العداء منذ أن أبدَى محمد ﷺ حبه لعمه أبي طالب، وفي ذلك أخرج ابن عساكر عن أبي الزناد قال: اصطرع أبو طالب وأبو لهب، فصرع أبو لهب أبا طالب وجلس على صدره، فمد النبي ﷺ بذؤابة[2] أبي لهب - والنبي ﷺ يومئذ غلام - فقال له أبو لهب: أنا عمك وهو عمك، فلم أعنته عليَّ؟ قال: "لأنه أحب إليَّ منك"، فمن يومئذ عادَى أبو لهب النبي ﷺ، واختبأ له هذا الكلام في نفسه[3].

فمنذ ذلك الحين وأبو لهب يضمر عداءه للنبي ﷺ، وظهر كرهه في مكائد للنبي ﷺ منذ أول يوم ظهرت فيه الدعوة، وفيما يأتي تفصيل لذلك:

- بعد ثلاث سنوات من نزول الوحي - على الأرجح - أمر النبي ﷺ بالجهر بالدعوة، ونزل قوله ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء)، فأتى النبي الصفا فصعد عليه، ثم نادى "يا صباحاه" وهي عادة العرب إن أرادوا تبليغ أمر هام، فاجتمع الناس إليه، فقال رسول الله ﷺ: "يا بني فِهر، يا بني عُدَي.. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسَفْح هذا الجبل[4] تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي"، قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"[5]. فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا دعوتنا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ (المسد).

وفي رواية أخرى أيضًا أنه أمر عليًّا أن يصنع طعامًا، ويجمع له بني عبد المطلب - وكانوا قرابة أربعين رجلًا - فلما انتهوا من الطعام والشراب، أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم فبدره أبو لهب يحذرهم من أن يسحرهم محمد بكلامه؛ فتفرقوا ولم يكلمهم ﷺ، فكرر الدعوة ثانية، ففعل أبو لهب مثل ذلك، فكررها ثالثة، فقال لهم بعد الطعام: "يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شابًّا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة"[6].

وهكذا نجد أن أبا لهب قد عادى النبي ﷺ من أول يوم بدأ يجهر فيه بالدعوة، وهذا يدل على حقده الدفين، وسنكمل سرد ما بدر منه من مكائد تأكيدًا لذلك.

---

١. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٢، ٣٠٣.

٢. الذُّؤابة: هي الشعر المضفور من شعر الرأس، وذؤابة الشيء: أعلاه.

٣. الخصائص الكبرى، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص ١٤٧.

٤. سَفْح الجبل: أسفله.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الشعراء (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء) (٥٢٩).

٦. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٣٨، ٣٩.

- ومن ذلك ما رُوي عن ربيعة بن عبَّاد من بني الدِّيل ـ وكان مشركًا فأسلم ـ قال: "رأيتُ النبي ﷺ في الجاهلية، في سوق ذي المجاز، وهو يقول: "يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا"، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وَضِيء الوجه أحولُ ذو غَدِيرتين[1]، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألتُ عنه، فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ فقالوا: هذا عمه أبو لهب"[2][3].

- ومن إساءته للرسول أنه كان قد زوّج ولديه عتبة وعتيبة بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما، وذلك ظنًّا منه أن هذا سيثقل كاهل النبي ﷺ بهما، هذا ولما مات عبد الله ـ الابن الثاني لرسول الله ﷺ ـ استبشر أبو لهب، وذهب إلى المشركين يبشرهم بأن محمدًا صار أبترًا"[4].

ومن جملة ما سبق يتبين لنا أن أبا لهب كان يُكِنّ للنبي ﷺ العداء منذ صباه، ويضمره في قلبه، وبدأ بإظهاره عندما بدأ النبي ﷺ بتبليغ الدعوة في كثير من المواقف، ورغم ذلك لم يتعرض له النبي ﷺ بالأذى والقسوة كما يزعم المشككون.

١. الغَدِيرة: شَعْر المرأة المضفور.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث ربيعة بن عباد الديلي رضي الله عنه (١٩٠٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الوضوء، باب مسح باطن الأذنين وظاهرهما (١٥٩)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ١٤٣).

٣. وامحمداه، د. سيد حسين العفاني، دار العفاني، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٢٥٠.

٤. وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، دار كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ، ج١، ص ٥٥.

لكن الذي تولى الدفاع عن النبي ﷺ هو ربه الذي تكفل بعصمته من الناس، فحينما قال أبو لهب لرسول الله ﷺ: "تبًّا لك"، وقام ينفض يديه نزلت تلك السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته، وتولى الله ﷻ عن رسول الله ﷺ أمر المعركة.

فلننظر "مثلما أرادا أن ينغِّصا عيش رسول الله ﷺ بتطليق ابنتيه، وتتبعه في المجالس بتكذيبه، مثلما أثارا حربًا شعواء على النبي ﷺ وعلى الدعوة، لا هوادة فيها ولا هُدنة، انظر إلى وقع السورة في نفس أمِّ جميل، التي ذُعرت لها، وجُن جنونُها، وحسبت أن رسول الله ﷺ قد هجاها بشعر، وبخاصة حين انتشرت هذه السورة، وما تحمله من تهديد ومذمَّة، وتصوير زَرِيٍّ لأم جميل خاصة، وتصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدلة بحسبها ونسبها، ثم ترتسم لها هذه الصورة ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ (المسد)، في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب"[5].

وها هي أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ تروي لنا كيف كان حال أم جميل حينما سمعت بهذه السورة، تقول: "لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فِهْر[6] وهي تقول:

مُذَمَّمًا قلينا ... ودينه أبينا

وأمره عصينا

٥. وامحمداه، د. سيد حسين العفاني، مرجع سابق، ج١، ص١٥٩، ٢٦٠.

٦. الفِهْر: الحَجَر.

والنبي ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: "إنها لن تراني"، وقرأ قرآنا فاعتصم به، وقرأ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) ﴾ (الإسراء)، فوقفت على أبي بكر ولم ترَ رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أُخبرت أن صاحبك هجاني، فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولَّت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها"[١].

وهكذا دافع الله عن نبيه، ونافح عنه، وردّ عنه كيد عدوّه، ومن ثم يتبين لنا أنَّ النبي ﷺ لم ينتقم لنفسه، ولم يُسِيء إلى عمه أبي لهب بالقول، ولا بالفعل على الرغم من إيذاء عمه له، بل تولَّى الله الدفاع عن نبيه ﷺ، وكان جزاء الظالم من جنس عمله، فالله لا يحابي أحدًا مهما كان حسبه ونسبه، إذ لم تنفع أبا لهب قرابته من رسول الله ﷺ ولم تغن عنه من الله شيئًا.

ومن ثم فليس صحيحًا أن النبي ﷺ كان يكيل الشتائم صاعًا بصاع، كما يزعمون، بل كان صبورًا حليمًا عفوًّا، يجازي السيئة بالحسنة، فلا عجب أن يغضب له ربه ويرد عنه الإساءة، وينتقم ممن سبَّه وأساء إليه.

الخلاصة:

- لقد بلغ النبي ﷺ الذروة في حسن الخلق والعفو، والصفح عمن ظلمه، فلم يكن أبدًا فاحشًا في القول، لم يتعدَّ أبدًا على أحد بلسانه أو بيده، حتى في أشد اللحظات التي تعرَّض فيها للإيذاء، فكان يدعو لقومه لا عليهم، ولقد أجاب من قال له: لو لعنتهم يا رسول الله؟ فقال: "إني لم أُبعث لعَّانًا، وإنما بُعثت رحمة"[٢].
- ليس صحيحًا أن النبي ﷺ قد بادل من سبَّه الشتائم صاعًا بصاع، بل كان ﷺ لا يقابل الإساءة بالإساءة، بل يصبر ويحتسب ويعفو عمن ظلمه، ويحسن لمن أساء له، ولكن الله ﷻ هو الذي غضب لنبيه ﷺ، وردَّ على شانئيه كلمة بكلمة، ووعيدًا بوعيد.

الشبهة السادسة

الزعم أن النبي ﷺ كان يحتقر ذوي العاهات ويجلُّ ذوي الوجاهة (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن النبي ﷺ كان يحتقر الفقراء وذوي العاهات؛ إذ كان يردّ الفقير، وينهر المسكين، ويُقَطِّب وجهه للأعمى، بينما كان يهتم بأصحاب الجاه والمكانة، ويستدلون على ذلك بعتاب الله لنبيه ﷺ بقوله ﷻ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) ﴾ (عبس)، وبقوله ﷻ: ﴿ وَاصْبِرْ

١. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أبي بكر ﷺ (٥٣)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة بني إسرائيل (٣٣٧٦)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ١٣٨).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٦٧٧٨).

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله الفادي.

نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ (الكهف). ويتساءلون: كيف لمحمد بعد كل هذا أن يدَّعي لنفسه أخلاق الأنبياء؟!! ويرمون من وراء ذلك إلى اتهامه ﷺ بجعل الغنى والوجاهة معيارًا لتفضيل بعض الناس على بعض؛ حتى لو كان المفضَّل كافرًا والمفضَّل عليه مؤمنًا!!

وجوه إبطال الشبهة:

١) كان النبي ﷺ يُسَوِّي بين الناس جميعًا في المعاملة، بل كان يفضِّل الفُقراء ويتمنَّى أن يُحْشر معهم، فقد أمره الله ﷻ أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين.

٢) كان الرسول ﷺ يُحِبُّ ذوي العاهات، ويَرْعاهم ويدعو لهم بالشفاء، وأمثلة ذلك كثيرة؛ منها ردُّه لعين قتادة، ودعاؤه لكثير غيره.

٣) لما جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ يستزيده علمًا، كان النبي ﷺ مَشْغولًا بدعوة صَناديد قُريش إلى الإسلام، فرأى أن الدعوة ها هنا أوجب وأهمّ، وهو اجتهاد نابع من الحرص على مصلحة الدعوة، لا عن احتقار منه ﷺ لذوي العاهات.

التفصيل:

أولا. كان النبي ﷺ يُسوِّي بين الناس في المعاملة، فقيرهم وغنيِّهم:

لقد شمل النبي ﷺ برحمته وعطفه الناس جميعًا، فكان بره يصل إلى المؤمنين والمشركين، وكان الفقراء والضعفاء أقرب الناس إلى قلبه الكبير، وعطفه الشامل، وبلغ حبه الفقراء أن دعا الله أن يبقى فيهم حيًّا وأن يحشر معهم ميتًا، روت عائشة - رضي الله عنها - أنه كان يقول: "اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين"[1]، وقد أخبر النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة ؓ أنه قال في شأن الفقراء: "يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام"[2].

كانت حياته ﷺ موصولة بالفقراء، وكان كل ما في بيته ويده لهم، وبلغ من عطفه عليهم أن مرَّ رجل عليه، فقال لرجل عنده: "ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفَّع. فسكت النبي ﷺ، ثم مر آخر، فقال النبي ﷺ: "ما رأيك في هذا"؟ فقال: رجل من فقراء المسلمين، هذا والله حريٌّ إن خطب ألَّا يُنكح، وإن شفع ألَّا يُشفَّع، وإن قال ألا يُسمع لقوله، فقال ﷺ: "هذا خير من مِلء الأرض مثل هذا"[3].

لقد عمل محمد ﷺ بما آتاه الله، وما أودع فطرته من الرحمة، على رفع شأن الفقير وإكرامه، والأخذ بيد

١. صحيح: أخرجه عبد بن حميد في مسنده، من مسند أبي سعيد الخدري (١٠٠٢)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٥٢)، وصححه الألباني في الإرواء (٨٦١).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ؓ (١٠٦٦٣)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب منزلة الفقراء (٤١٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٦).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (٦٠٨٢)، وفي موضع آخر.

الضعيف، وأرسل بره في هذه الطبقة، حتى قلب نظام المجتمع الذي ظهر فيه في سنين قليلة، وجعل من الفقراء المستضعفين أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد، كما كان يقول ﷺ: "ابغوني ضعفاءكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم"[1]. وكان يسرُّه أن يجتمعوا إليه، وقد آثر بالحديث مرة واحدة بعض الأغنياء الأقوياء من قومه، فنزل القرآن بمعاتبته، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ (عبس)، وطالما سخرت قريش منه لحفاوته بالمساكين، وذهابه بهم إلى الحرم، فقالوا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنعام)، ولكنه كان بالمساكين رءوفًا رحيمًا.

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: "دخل النبي ﷺ المسجد، فجلس إلى الفقراء، وبشَّرهم بالجنة، وبدا على وجوههم البشر، فَحَزِنْتُ؛ لأنني لم أكن منهم"، ورأى سعد بن أبي وقاص يتعالى على المساكين، فذكر له أن ما ينال من الخير والنصر، إنما هو أثر هؤلاء الفقراء، وأنه مدين للمساكين، وقد تحقق ذلك واضحًا جليًّا حينما قاد سعد هؤلاء الفقراء المستضعفين إلى القادسية، فهزم رستم، ووطئ دولة الأكاسرة التي كان العرب بعض رعاياها.

كانت رحمته وبرُّه بالمساكين يمتد إلى ما بعد الموت، فقد جاء أن رجلًا أسود ـ أو امرأة سوداء ـ كان يَقُمُّ[2] المسجد فمات، فسأل النبي ﷺ عنه، فقالوا: مات، قال: "أفلا كنتم آذنتموني به، دلُّوني على قبره"، أو قال: "قبرها"، فأتى قبره، فصلى عليه"[3][4].

وهكذا كان حسن معاملة النبي ﷺ لجميع الناس، وخاصة الفقراء، ونزيد الأمر تأكيدًا فنقول: ما نهر رسول الله خادمًا، وما ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يكون جهادًا في سبيل الله، قال أنس ﷺ: "خدمت النبي ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء: لم فعلت، وهلَّا فعلت كذا"[5].

وكذلك كان ﷺ مع عبيده وإمائه ما ضرب منهم أحدًا قط، وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية لولا التأييدات الربانية[6].

وكان ﷺ يركب الحمار، ويُردِفُ خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، امتثالًا لأمر الله ﷻ بقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، باقي حديث أبي الدرداء ﷺ (٢١٧٧٩)، والترمذي في سننه، كتاب الجهاد، باب الاستفتاح بصعاليك المسلمين (١٧٠٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٧٩).

٢. يَقُمُّ: ينظف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب المساجد، باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان (٤٤٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر (٢٢٥٩)، واللفظ للبخاري.

٤. بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي ﷺ، عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٥٩، ٦٠ بتصرف يسير.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل (٥٦٩١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله أحسن الناس خلقًا (٦١٥١)، واللفظ له.

٦. محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٢٧.

﴿الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ (الشعراء)، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس "أي تواضعًا لربه، وإرشادًا لأصحابه ليتأدبوا بآدابه".

وفي حديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لا تُطرُوني[1] كما أطرَت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله"[2].

وعن أنس رضي الله عنه: أن امرأة كان في عقلها شيء، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن لي إليك حاجة، قال: "يا أم فلان، انظري أي السّكك شئت حتى أقضي لك حاجتك"، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها[3].

قال أنس رضي الله عنه أيضًا: "كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويتبع الجنائز، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار"[4].

وكان ﷺ يأكل مع العبد والخادم، ويحمل حاجته من السوق، وكانت تقابله المرأة في سكة المدينة فتستوقفه فيقف حتى يقضي لها حاجتها، وعن أنس قال: "إن كانت الأمة - الجارية - من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت"[5][6].

ومن الثابت في كل كتب السيرة أن النبي ﷺ كان يكثر من الجلوس مع الفقراء والمساكين من أهل الصُفَّة، الذين كان منهم الصحابي الجليل ابن أم مكتوم، فهل كان يجالسهم وهو يحتقرهم؟! بل إن الله عز وجل أمره أن يتقرَّب منهم، ونهاه عن طردهم، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف).

وهكذا نجد أن النبي ﷺ بُعث ليكون رحمة للعالمين، فقيرهم وغنيهم، وأن حياته ﷺ كانت أكثر صلة بالفقراء دون الأغنياء.

ثانيًا. كان رسول ﷺ يساعد ذوي العاهات بل كل المحتاجين، ويدعو لهم بالشفاء، وأمثلة ذلك كثيرة ثابتة:

لقد كان رسول الله ﷺ يعتني بذوي الحاجات ويستمع إليهم ويعمل على قضاء حاجاتهم ولو كان صاحب الحاجة عبدًا أو امرأة، وكان أمينًا على أسرار ذوي الحاجات فلا يذيعها ولا ينشرها، وينأى عن مواجهة سماع الغير لها.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يحترم ذوي العاهات، ويعمل على شفاء المرضى، بأدعية كثيرة تدل على مدى

١. الإطراء: المبالغة في المدح.
٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ (مريم) (٣٢٦١).
٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب قرب النبي ﷺ وتبركهم به (٦١٨٩).
٤. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة ق (٣٧٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حسن الخلق، فصل في التواضع (٨١٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٥).
٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر (٥٧٢٤).
٦. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٥٦.

اهتمامه بهم، وذلك بإذن الله ﷻ، **ومن مساعداته ﷺ لذوي العاهات ما يأتي:**

رُوي عن الصحابي الجليل عثمان بن حنيف أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: "إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخَّرت ذاك فهو خير"، فقال: ادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه، فَتُقْضَى لي، اللهم شفِّعه فيَّ"، فرجع الأعمى وقد كشف الله عن بصره[1].

ورُمي كلثوم بن الحصين يوم أحد في نحره، فبَصَق رسول الله ﷺ فيه، فبرأ من المرض.

وتَفَلَ على شَجَّة عبد الله بن أنيس فلم تُمِدّ، أي: لم تَحْصُلْ مادة القيح في ذلك الجرح، وتفل في عيني علي يوم خيبر وكان رَمِدًا، فأصبح بارئًا، ونفخ على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر، فبرئت، وفي رِجْل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب - كعب رجله - حين قتل كعب بن الأشرف، فبَرِئَت. وعلى ساق علي بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت، فبرئ مكانه، وما نزل عن فرسه.

ومرض علي بن أبي طالب، فجعل يدعو، فقال النبي ﷺ: "اللهم اشفه، أو عافه"، قال: فما اشتكيت وجعي ذاك بعد[2][3].

وقد جاء عن عطاء بن رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة؟! قلت بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرَع، وإني أتكشَّف، فادعُ الله لي، قال: "إن شئتِ صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك"، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها[4][5].

وهكذا كان النبي ﷺ لا يتأخر بالدعاء لأصحاب العاهات، والمرضى حتى يشفيهم الله ﷻ، فأين ما يدعيه هؤلاء من احتقاره لهم؟

ثالثًا. إعراض النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم اجتهاد نابع من حرصه ﷺ على الدين:

كان النبي ﷺ وهو يدعو زعماء قريش إلى الإسلام يقوم بواجب تبليغ الدعوة الذي أوجبه عليه الله في قوله ﷻ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه (١٧٢٧٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في صلاة الحاجة (١٣٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٨١).

٢. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١٠٥٧)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول عند ضر ينزل به (١٠٨٩٧)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد (٨٤١).

٣. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٢٩٤، ٢٩٥ بتصرف.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح (٥٣٢٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك (٦٧٣٦).

٥. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، مرجع سابق، ص٢٢١.

﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ (النحل)، وقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ (المائدة)، ولهذا فقد استثمر فرصة لقائه بسادة قومه وإصغائهم له، وبالغ في وعظهم وإرشادهم، وحرص على هدايتهم، قال ﷻ: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ (النحل)، وكان يؤلمه كفرهم، قال ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ (الشعراء)، وطمع هذه المرة في إسلامهم، ورجا بإسلامهم إسلام من وراءهم، ليكون في هذا الخير للإسلام والمسلمين.

أما ابن أم مكتوم فكان مسلمًا، وتعلُّمه من رسول الله يمكن أن يتم في غير هذا الوقت، الذي شُغِل فيه الرسول ﷺ بدعوة زعماء قريش، ثم إن ابن أم مكتوم ألحَّ، وكرَّر الطلب في أثناء انشغال الرسول ﷺ بأمر قومه ودعوتهم، وشأن المشغول بالأهم إذا طلب منه مُهِمّ أن يؤجله، ويعرض عنه إلى أن ينتهي مما يشغله، لهذا أعرض عنه الرسول ﷺ وتصدَّى للكفار، فعاتبه الله ﷻ على أنه ترك الأولى[1]. لا على أنه ارتكب ذنبًا.

وللنبي ﷺ العذر فيما صدر منه، فماذا كان يفعل رسول الله ﷺ آنذاك؟ كان يريد نقل إلهام قلبه إلى القلوب المتحجرة الصلْدة، وهو الذي وصف القرآن الكريم حرصه على هداية الناس بقوله ﷻ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ (الكهف)، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ (الشعراء). أجل كان يحزن ويغتم غمًّا شديدًا عندما يرى إنسانًا غير مؤمن، حتى يكاد يهلك غمًّا وحزنًا، وعندما كان النبي ﷺ منشغلًا بكل جوارحه في جو الدعوة إلى الله، دخل أحدهم وبدأ يتكلم ويخلُّ بالجو الموجود هناك.

صحيح أن للقادم عذرًا في هذا إذ كان أعمى لا يرى، فإذا عبس النبي ﷺ وتولى، فله عذره الشرعي في ذلك[2]؛ لذا لا نتفق مع الذين يريدون استعمال هذه الحادثة للطعن في أخلاقه ﷺ، أو ادعاء أنه كان يحتقر الفقراء، أو ذوي العاهات؛ لأن سيرته ﷺ تنفي ذلك.

وللرسول العذر فيما فعل؛ وذلك لأن ابن أم مكتوم لو لم يكن أعمى، وكان بصيرًا لما تعرَّض الرسول ﷺ لأي عتاب، أي أنه كان من الأولى أن يسامح الرسول ﷺ هذا الشخص لكونه أعمى، لذا فعبوسه وإعراضه عنه استوجب التنبيه، هذا هو الحكم السطحي الذي نصل إليه إن تناولنا الموضوع بهذا الشكل؛ وذلك لأن هناك شروطًا وآدابًا ينبغي أن تُراعى عند الدخول إلى مجلس أي شخص، ثم إن الدخول إلى مجلس رسول الله ﷺ لا يشبه الدخول إلى أي مجلس آخر؛ ولا يمكن التصرف فيه كالتصرف في مجلس أي شخص آخر، لذا نرى القرآن الكريم يشرح في آيات عديدة للمسلمين آداب حضور مجلس الرسول ﷺ، متى يتم الحضور، وكم يمكث فيه،

---

١. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٤٣٩، ٤٤٠ بتصرف يسير.

٢. العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٩١.

قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، وكذلك وضح القرآن كيف يُتحدث معه بصوت خفيض، شرح الله تعالى للمؤمنين كل هذه الأمور، فقال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الحجرات)[1].

وهكذا نجد أن ابن أم مكتوم له العذر، وقد عاتب الله نبيه ﷺ بسببه، فلو كان مبصرًا لعوتب هو؛ إذ لم يلتزم بآداب الجلوس مع النبي ﷺ ومجلسه، ولم يستأذن، وألحَّ في سؤاله للنبي ﷺ، رغم أن النبي ﷺ كان مشغولًا في دعوته.

أما الآية التي يستدل بها الطاعنون في أخلاقه ﷺ فقد ذكر المفسرون تأويلها على النحو التالي:

قال ﷻ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ ﴾ (عبس)، فليس فيه إثبات ذنب له ﷺ، بل إعلام الله لنا أن ذلك المتصدَّى له ممن لا يتزكى، فالخطاب لنا.

وإن الصواب أو الأولى كان - لو كشف حال الرجلين - الإقبال على الأعمى، وفِعْلُ النبي ﷺ لما فعل، وتصديه لذلك الكافر، كان طاعة لله تبارك وتعالى، وتبليغًا عنه، واستئلافًا له، كما شرعه الله له، لا معصية ومخالفة له.

وما قصه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين، وتوهين لأمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: ﴿ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (عبس).

ويحتمل أنه عتاب من الحق تبارك وتعالى على ما فعله ﷺ مما ظهر له صلاحه، وترجَّح عنده نجاحه، وكان الواقع الذي قدر الله ﷻ بخلاف ذلك، والعتاب لا يقتضي ولا يلزم منه أن يكون بعد ذنب أو مخالفة، كما هو الجاري بين الناس في معاملتهم، فقد يعاتب الأخ أخاه والحبيب حبيبه على ترك الأولى بل على ترك الأكمل، وقد يعاتب الوالد ولده على التقصير، وفعل المذموم، فالعتاب أوسع من أن يكون في جهة واحدة[2].

وعلى غرار ما ذُكر يتضح أن النبي ﷺ لم يكن عبوسه عن الأعمى احتقارًا له واستهانة بشأنه، ولكنه لانشغاله بأمر مهم وهو الدعوة والتبليغ، اللذان هما من أعظم واجباته ﷺ لحرصه على هداية الناس جميعًا، غنيًّا وفقيرًا، وأن العتاب في الآية ليس لأنه اقترف ذنبًا، ولكنه عتاب من ترك الأهم لانشغاله بمهم، فهو من باب اختيار الصواب وترك الأصوب®.

الخلاصة:

- كان النبي ﷺ أكثر الناس تواضعًا، ومن تواضعه أنه كان يعامل الناس معاملة واحدة الغني والفقير، والقوي والضعيف، والسيد والعبد، فكانت حياته ﷺ مثالًا رائعًا، وقدوة حسنة، وكان من شدة تواضعه أنه

---

١. المرجع السابق، ص٨٩، ٩٠ بتصرف يسير.

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٠٣، ١٠٤.

® في **"إعراض النبي ﷺ عن الأعمى ليس معصية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

تمنَّى أن يحشره الله ﷻ مع المساكين، لما لهم من المكانة عند الله ﷻ.

- كيف يقال: إنه ﷺ كان يحتقر المرضى وأصحاب العاهات، ومن الثابت أنه ﷺ كان يرعاهم ويدعو لهم بالشفاء؟! ولم يثبت أن ابن أم مكتوم قد طلب منه أن يدعو الله له أن يرد عليه بصره، ولو طلب منه ذلك لفعل، خاصة وأنه دعا لعدد من الناس بالشفاء، فشفاهم الله ﷻ.

- إن النبي ﷺ لم يُعرض عن الصحابي الجليل ابن أم مكتوم، احتقارًا لشأنه، ولكن انشغالًا بما كان فيه من دعوة الكفار والمشركين للإسلام، عسى أن يكون إسلامهم فتحًا عظيمًا؛ حيث يتبعهم الناس بعد ذلك، ولو لم يكن ابن أم مكتوم أعمى لعاتبه الله تبارك وتعالى لِقطعه حديث النبي ﷺ ودعوته الكفار والمشركين.

- إن ما يدعيه هؤلاء من احتقار النبي ﷺ لأصحاب العاهات والفقراء، ادعاء باطل تبطله الأدلة، والشواهد التي دلت على عناية النبي ﷺ بذوي الاحتياجات الخاصة، كما أن زعمهم هذا لا يليق بشخص رسول الله ﷺ وخلقه الكريم الذي وصفه به ربه تبارك وتعالى فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم).

الشبهة السابعة

ادِّعاء أن النبي ﷺ كان مخادعًا يستميل قلوب الناس بالمال (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن النبي ﷺ كان مخادعا ذكيًّا ومدعيًا للنبوة، ويستدلون على ذلك بأنه ﷺ دفع المال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لكي يُسْلم، ويتساءلون: ألا تعدُّ مثل هذه الأعمال من قبيل الخداع والمكر؟! وألا يُعَدُّ هذا دليلًا على إدخاله الناس في الإسلام دون رغبة منهم فيه؟! بل طمعًا في المال فقط؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في أخلاقه ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) نحن لا ننكر ذكاء النبي ﷺ، فقد كان أرجح الناس عقلًا، ولكن هذا لا يعني أنه كان مخادعًا، فالذكاء شيء والخداع شيء آخر.

٢) كان النبي ﷺ مؤمنًا إيمانًا تامًّا بالرسالة التي بعثه الله ﷻ بها لكي يبلغها إلى الناس كافَّة، ولاقى في سبيل تبليغ دعوته هذه العديد من أنواع الأذى والاضطهاد، ورغم ذلك لم ينصرف عنها.

٣) هل من يقرأ قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجد فيها أية إشارة لمال دفعه له النبي ﷺ لكي يسلم؟!

(*) اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٠م. الإسلام وتصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.

وهل كان عمر بن الخطاب فقيرًا قبل الإسلام حتى يسلم طمعًا في المال؟! وهل كان لدى النبي ﷺ مال في بداية الدعوة لكي يستميل به الناس؟!

التفصيل:

أولا. الذكاء شيء والخداع شيء آخر:

كان النبي ﷺ أرجح الناس عقلًا، وأسرعهم بديهة، فالعقل لم يتوفَّر لإنسان كما توفَّر لمحمد ﷺ، ولو لم ينزل عليه الوحي ويُخاطب من السماء لكان عقله وحده كافيًا لأن ينشئ دولة، ويقيم مجتمعًا فاضلًا، فما كانت الرسالة تجيء لغير عقل كامل، وفكر مدرك، وشخصية كريمة، وما كانت الكفاية العقلية في أسمى علوها بمُغْنِيَة عن الرسالة؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون وحده كافيًا في تدبير الحاضر والقابل إلى يوم الدين، إنما العقل يدبر ما يحيط به، وهو من غير هداية الوحي لا يفكر إلا فيما بين يديه.

وقد ظهرت رجاحة عقل النبي ﷺ وذكائه في صغره وبعد بعثته، وليس معنى هذا أنه كان مخادعًا، فالذكاء شيء والخداع شيء آخر، وقد تنزَّه رسول الله ﷺ عن مثل هذه الصفات السيئة؛ إذ قال فيه ربه ﷻ في آية جامعة مانعة: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم).

لقد اشتهر النبي ﷺ بين قومه بالصدق والأمانة، وقد شهد له أعداؤه قبل أصدقائه بذلك، فهل يمكن لرجل وُصِفَ بهذه الصفات أن ينشر دعوته بالخداع؟ هذا مالا يقوله عاقل منصف.

لقد جاهد ﷺ حتى زلزل العقائد الفاسدة، وقضى على العادات المرذولة، وما غرس في قومه أو القبائل الأخرى وعدًا كاذبًا، أو ادعى الألوهية، أو أحاط نفسه بمظاهر الأبهة من الحرس والحشم للتهويل في نفوس الناس وإرهابهم وإنما كان يصارح قومه، ويجاهرهم بأنه رسول رب العالمين، جاء لهم مبشرًا ونذيرًا، جاء بالمعجزات الكثيرة، ولكنه ما ادّعى أنه قادر على الإتيان بها، بل كان يقول بلسان القرآن الكريم: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (الأعراف).

نعم فقد جرَّد نفسه من كل ما من شأنه أن تُستمال به الناس؛ فلم يتخذ وسائل الإغراء، ولم يجعل همه كسب صداقة الناس، بل قصد أن يبلغ ما أُرسل إليه من عند الله؛ رحمة بالإنسانية، وإقامة لملك الله في أرضه، وقصدًا لتوحيد بني الإنسان، وجعلهم أمة واحدة مرتبطين برابطة الإخاء[1]®.

ثانيًا. إيمان النبي ﷺ بدعوته:

إن محمدًا ﷺ كان أشدَّ الناس إيمانًا بالدين الذي جاء به من عند الله، وإلا لما رفض عرض قريش، الذي عرضه عليه عتبة بن ربيعة ـ وهو من أسياد قريش ـ؛ إذ قال للنبي ﷺ: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشطر في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك في أمر عظيم فرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ به أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَنْ مضى

---

١. محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٣٧، ٣٨ بتصرف يسير.

® في **"أدلة كمال عقل النبي ﷺ وذكائه وإقامته الحجة على الآخرين"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

من آبائهم، فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورًا، تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا الوليد أسمعُ، قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سَوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا[1] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوَى منه.

حتى إذا فرغ عتبة، قال له رسول الله ﷺ: "فرغت يا أبا الوليد؟ "قال: نعم، قال: "فاسمع مني"، قال: أفعل، فقال ﷺ: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (فصلت)، فمضى رسول الله ﷺ يقرؤها، فلما سمع بها عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى آية السجدة منها فسجد، حتى قال: "يا أبا الوليد"، قال: نعم، قال ﷺ: "فأنت وذاك"، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي والله إني سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ، فإن تُصِبْه العرب فقد كُفِيْتُموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكه ملككم، وعِزُّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم[2].

وفي رواية أن عتبة قال لهم: أنذرنا صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فأمسكتُ بفيه، وناشدته الرَّحِمَ أن يكف، وقد علمت أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب[3].

ومما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه موقف النبي ﷺ مع عمه أبي طالب، فعندما أكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ فكَّروا في مفاوضة أبي طالب، فمشوا إليه وقالوا: إن ابن أخيك يؤذينا في نادينا ومسجدنا، فانهه عن إيذائنا، قال: يا عقيل، ائت محمدًا فادعُه، فذهبت، فأتيته به، فجاء في نصف النهار يتخلَّل الفَيء[4]، فجلس عند أُسْكُفَّة الباب[5]، وقريش عند أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، إن بني عمك يزعمون أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانتهِ عن ذلك، قال: فحلَّق رسول الله ﷺ بصره إلى السماء، ثم قال: "هل ترون هذه الشمس"؟ قالوا: نعم، قال: "ما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا لي منها شعلة"، قال: فقال أبو طالب: ما كذبنا ابن أخي فارجعوا، قال: فرجعوا[6].

---

١. الرِّئي: التابع من الجن.

٢. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٦٨.

٣. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص٥٧، ٥٨ بتصرف.

٤. الفَيء: الظِّل.

٥. أُسْكُفَّة الباب: عَتَبَته.

٦. حسن: أخرجه البزار في مسنده، ج٢، مسند عقيل بن أبي طالب (٢١٧٠)، وأبو يعلى في مسنده، مسند عبد الله بن جعفر الهاشمي (٦٨٠٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢).

ولننظر إلى قوة رسول الله ﷺ وصدق إيمانه في تبليغ دعوته، تلك القوة المعنوية العظيمة أمام شعب مُعَادٍ معاند، وشدة تمسكه بمبدئه إلى النهاية.

لا ريب في أن هذا دليل واضح على أن الدعوة ملكت عليه حواسَّه وقلبه؛ فهان معها ما لقيه من التأنيب والتكذيب، والإيذاء والإرهاب، ومحال - عقلًا - أن يصبر داعٍ على مثل هذه الأهوال إن كان مرتابًا في صدق دعوته"[1].

فلو كان محمد ﷺ غير واثق بدعوته - وذلك لأنه كان يستميل قلوب الناس بالمال كما يدعي هؤلاء ليدخلوا في الإسلام - لانساق وراء أقل المُغْريات والعُرُوض، ولآثر أن يكون سلطانًا على العرب، وذلك أفضل من احتمال حدوث فشل أو خيبة أَمَل له في دعوته، لكنها الثقة في صدق دعوته، وفي تأييد الله له.

تلك الثقة التي ملأت قلب موسى عليه السلام عندما كان البحر أمامه، وفرعون وجنوده من خلفه، حتى قال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (الشعراء)، فقال والثقة تملأ قلبه: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الشعراء)، فأية هداية يُهدى إليها موسى في مثل هذا الموقف؟! إنها هداية الله له وثقته بالله وبرسالته: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الشعراء) فعبر موسى عليه السلام ومن معه: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (الشعراء)، ولم يفعل الله عز وجل هذا عبثًا بدون سبب: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الشعراء)، آية للمؤمنين ليثقوا بوعد الله عز وجل، حتى وصل الأمر إلى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو في النار عندما قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أمَّا إليك فلا، وأمَّا إلى الله فهو أعلم بحاجتي، فنجَّاه الله تعالى من النار: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الأنبياء)، وكذلك كان ثبات النبي ﷺ أشدَّ من الجبال رسوخًا وثقة في نصر الله، فقد بَشَّرَ سراقة - وكان ﷺ مطاردًا من أهله - بسوارَي كسرى، وأخذهما سراقة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفي غزوة الأحزاب، والمسلمون في أحلك الظروف؛ من البرد القارس، والجوع القاتل، والظلام الشديد، وتجمع الأعداء، وهم يحفرون الخندق - إذ "بصخرة بيضاء صلْدة شقَّ عليهم كسرها، فذهب سلمان إلى رسول الله ﷺ فأخبره عنها، فجاء فأخذ المِعْوَل من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرق منها برقة أضاءت ما بين لابتيها - أي: جانبي المدينة - حتى كأنها مصباح في ليل مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّر المسلمون، ثم ضربها الثانية فكذلك، ثم الثالثة فكذلك، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: "لقد أضاءت لي من الأولى قصور الحِيْرة ومدائن كسرى، فأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، ومن الثانية القصور الحمر من أرض الروم، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ومن الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا". فاستبشر المسلمون وقالوا: موعود صادق.

لقد صَدَّق الله نبوءة نبيه، فكانت معجزة ظاهرة من

---

١. محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٩٤ بتصرف.

معجزات النبي ﷺ؛ إذ لم يمضِ على هذه الحادثة إلا نحو ربع قرن حتى فُتِحَت هذه البلاد كلها، ودخلت تحت لواء الإسلام، ولذلك كان أبو هريرة ﷺ يقول حين فُتحت هذه الأمصار: "افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما فتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله ﷻ محمدًا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك"[١].

لقد كان انتشار الإسلام - بشكل لم يسبق له مثيل - في أقل من قرن آية كبرى على صدق نبوته ﷺ وصحتها؛ فقد رحبت له القلوب، وتسابقت إليه النفوس، وعمّ نوره الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والشرق بالغرب؛ فأصبح لدولة العرب قدم في الهند، وأخرى بالأندلس، وانتفع العالم دهورًا كثيرة بما في هذه الدعوة المحمدية من النبل والبأس، والنجدة والحق، والهدى والمدنيَّة الصحيحة.

هل يصدق عاقل بعد كل هذا أن مخادعًا مُدَّعيًا يمكن أن يصنع كل هذا في نفوس ملايين البشر®؟!

ثالثًا. كان إسلام سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عن اقتناع تام منه بالإسلام:

يحدثنا د. علي محمد الصَّلابي عن حياة عمر بن الخطاب ﷺ قبل الإسلام فيقول: "كان عمر بن الخطاب ﷺ يشتغل بالتجارة، وربح منها ما جعله من أغنياء مكة، وكسب معارف متعددة من البلاد التي زارها للتجارة، فرحل إلى الشام صيفًا، وإلى اليمن شتاءً، واحتلَّ مكانة بارزة في المجتمع المكي الجاهلي، وأسهم بشكل فعَّال في أحداثه، وساعده تاريخ أجداده المجيد، فقد كان جده نفيل بن عبد العزى تحتكم إليه قريش في خصوماتها، فضلًا عن أن جده الأعلى كعب بن لؤي كان عظيم القدر والشأن عند العرب، فقد أرَّخوا بسنة وفاته إلى عام الفيل، وتوارث عمر عن أجداده هذه المكانة المهمة التي أكسبته خبرة ودراية، ومعرفة بأحوال العرب وحياتهم، فضلًا عن فطنته وذكائه، فلجئوا إليه في فضِّ خصوماتهم، يقول ابن سعد: "إن عمر كان يقضي بين العرب في خصوماتهم قبل الإسلام".

وكان ﷺ رجلًا حكيمًا، بليغًا، حصيفًا، قويًّا، حليمًا، شريفًا، قوي الحجة، واضح البيان، مما أهَّله لأن يكون سفيرًا لقريش، ومفاخرًا ومنافرًا لها مع القبائل، قال ابن الجوزي: "كانت السفارة إلى عمر بن الخطاب، إن وقعت حرب بين قريش وغيرهم بعثوه سفيرًا، وإن نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر، بعثوه منافرًا ومفاخرًا، ورضُوا به ﷺ".

وكان يدافع عن كل ما أَلِفَتْه قريش من عادات وعبادات ونظم، وكانت له طبيعة مخلصة تجعله يتفانى في الدفاع عما يؤمن به، وبهذه الطبيعة التي جعلته يشتدّ في الدفاع عما يؤمن به، قاوم عمر الإسلام في أول الدعوة، وخشي أن يهزَّ هذا الدين الجديد النظام المكي الذي استقرَّ، والذي يجعل لمكة بين العرب مكانًا خاصًّا، ففيها البيت الذي يُحَجُّ إليه والذي جعل قريشًا

---

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٩، ٢٨٠.

® في **"مرحلتا دعوة النبي ﷺ"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). وفي **"إخلاص النبي ﷺ لدعوته وحماسته في نشرها"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

ذات مكانة خاصة عند العرب، والذي صَيَّرَ لمكة ثروتها الرُّوحية، وثروتها المادية، فهو سبب ازدهارها وغِنَى سَراتها[1]، ولهذا قاوم سراة مكة هذا الدين، وبطشوا بالمستضعفين من معتنقيه، وكان عمر من أشدّ أهل مكة بطشًا بهؤلاء المستضعفين.

ولقد ظلَّ يضرب جارية أسلمت، حتى أعيت يداه، ووقع السوط من يده، فتوقف إعياءً، ومر أبو بكر فرآه يعذب الجارية، فاشتراها منه وأعتقها.

لقد عاش عمر في الجاهلية وسبر أغوارها، وعرف حقيقتها وتقاليدها وأعرافها، ودافع عنها بكل ما يملك من قوة، ولذلك لما دخل في الإسلام عرف جماله وحقيقته، وتيقن الفرق الهائل بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، والحق والباطل، ولذلك قال قولته المشهورة: "إنما تنقض عُرَى الإسلام عُرْوَة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"[2].

وقصةُ إسلامِ عمر بن الخطاب ﷺ ثابتةٌ في معظم كتب السيرة، وليس فيها أية إشارة إلى مال دفعه النبي ﷺ له كي يسلم كما يدعي هؤلاء؛ فالثابت أن عمر ﷺ ـ قبل إسلامه ـ أراد أن يقتل النبي ﷺ وانطلق لتحقيق مراده، فقابله نُعَيم بن عبد الله النَّحَّام، فقال له: أين تريد يا عمر، فأخبره عمر بمراده، فقال له نُعيم: فإني أخبرك أن أهلك وأهل خَتَنك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه من ضلالتك، فحوَّل حينئذ مساره وانطلق إلى بيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد،

وحدثت بينهم مناقشة طويلة انتهت إلى طلب عمر بن الخطاب ملاقاة النبي ﷺ.

فلما سمع خَبَّاب ﷺ ذلك خرج من البيت ـ وكان مختفيًا ـ وقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون قد سبقت فيك دعوة رسول الله ﷺ يوم الإثنين: "اللهم أَعِزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب"، فكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب[3].

قال: دُلُّوني على مكان رسول الله ﷺ، فلما عرفوا منه الصدق قالوا: هو في أسفل الصفا، فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته وَجِلُوا ولم يجترئ أحد منهم أن يفتح له، لما قد علموا من شدته على رسول الله ﷺ، فلما رأى حمزة ﷺ وَجَلَ القوم، قال ما لكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب؟ قال: عمر بن الخطاب؟ افتحوا له، فإن يرد الله به خيرًا يُسْلِم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هَيِّنًا، ففتحوا، وأخذ حمزة ورجل آخر بعضديه[4] حتى أدخلاه على رسول الله ﷺ فقال: أرسلوه، ونهض إليه رسول الله ﷺ وأخذ بحُجْزَته[5] وبمجمع ردائه ثم جَبَذَه[6] جبذة شديدة، وقال: "ما

---

١. السَّراة: السَّادة.

٢. فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص ٢٠، ٢١.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (٥٦٩٦)، وعبد بن حميد في مسنده، أحاديث ابن عمر (٧٥٩)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٦٨١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٠٧).

٤. العَضُد: الكَتِف.

٥. الحُجْزَة: مكان عَقْد السراويل والإزار.

٦. جَبَذ: جَذَب.

جاء بك يا ابن الخطاب؟ والله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة"[1]، فقال له عمر: يا رسول الله، جئتك أومن بالله ورسوله وبما جئتَ به من عند الله، قال: فكبَّر رسول الله ﷺ فعرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم، فتفرق أصحاب رسول الله من مكانهم، وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة بن عبد المطلب، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله، وينتصفون بهما من عدوهم، فلو لم يكن مقتنعًا بالإسلام ـ وهو من هو في قومه ـ لمَا أسلم.

دخل عمر ﷺ في الإسلام بإخلاص متناهٍ، وعمل على تأكيد الإسلام بكل ما أوتي من قوة، ولقد أعزَّ الله الإسلام والمسلمين بإسلام عمر بن الخطاب ﷺ، فقد كان رجلًا ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره، وامتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة.

وتحدَّى عمر بن الخطاب ﷺ مشركي قريش، فقاتلهم حتى صلَّى عند الكعبة وصلى معه المسلمون، وحرص ﷺ على أذية أعداء الدعوة بكل ما يملك، ففي رواية عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: "لما أسلم عمر لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أي أهل مكة أَنشَأُ[2] للحديث؟ فقالوا: جميل بن مَعمَر الجُمحي، فخرج إليه، وأنا معه أتبع أثره، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت، قال: فوالله ما ردَّ عليه كلمة حتى قام عامدًا إلى المسجد، فنادى أندية قريش، فقال: يا معشر قريش ـ وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ إن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر: كذب، ولكنني أسلمت وآمنت بالله وصدَّقت رسوله، فثاوروه فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رءوسهم حتى فتر عمر وجلس، فقاموا على رأسه، فقال: افعلوا ما بدا لكم، فوالله لو كنا ثلاثمائة رجل لتركتموها لنا، أو تركناها لكم، فبينما هم كذلك إذ جاء رجل عليه حُلَّة حرير وقميص قَومَسِي[3]، قال: ما بالكم؟ قالوا: إن ابن الخطاب قد صبأ، قال: فَمَهْ؟ امرؤ اختار دينًا لنفسه، أتظنون أن بني عدي تُسلِم إليكم صاحبهم؟ فكأنما كانوا ثوبًا انكشف عنه، فقلت له بعد بالمدينة: يا أبت، من الرجل الذي ردَّ عنك القوم يومئذ؟ قال: يا بني، ذاك العاص بن وائل السهمي"[4].

لقد كان لإسلام عمر ﷺ أثرٌ كبيرٌ على الدعوة الإسلامية، وقد شهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بذلك، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: "ما زِلْنَا أعزة منذ أسلم عمر، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نطوف بالبيت ونصلي، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا، فصلينا وطُفْنا، وقال أيضًا: كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي ونطوف بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلناهم حتى تركونا نصلي.

وقال صُهَيب بن سِنان: "لما أسلم عمر بن الخطاب

---

١. أورده أحمد بن حنبل في فضائل الصحابة، في ذكره إسلام عمر بن الخطاب ﷺ (١/ ٣٧١).

٢. أَنشَأُ للحديث: أَنقَلُ له.

٣. قَومَسِي: نوع من الثياب يُنسب إلى قَومَس من بلاد فارس.

٤. إسناده قوي: أخرجه أحمد في فضائل الصحابة، باب إسلام عمر بن الخطاب ﷺ (٣٧٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم بذكر أسمائهم (٦٨٧٩)، وقال عنه شعيب الأرنؤوط في تعليقات صحيح ابن حبان: إسناده قوي.

ظهر الإسلام، ودُعِي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حِلَقًا، وطُفْنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه"، ولقد صدق في عمر ﷺ قول القائل:

هُوَ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ بَعْدَ خَفَائِهِ
وَمَحَا الظَّلَامَ وَبَاحَ بِالكِتْمَانِ
أَعْنِي بِهِ الفَارُوقَ فَرَّقَ عَنْوَةً
بِالسَّيْفِ بَيْنَ الكُفْرِ والإِيمَانِ[1]

فهل يُعْقَل - بعد ما سبق - أن يدَّعي مُدَّعٍ أن عمر ﷺ لم يدخل الإسلام رغبة فيه، ولكنه دخله تلبية لحبه للأموال التي عرضها عليه النبي ﷺ؟! وهو من أغنياء قريش! ثم إن محمدًا ﷺ لم يكن يمتلك شيئًا من الأموال حتى يوزعها على تابعيه، كي يثبتوا معه، بل إنهم دفعوا مقابل ثباتهم أرواحهم وأنفسهم دفاعًا عن عقيدتهم.

فكيف يقال بعد ذلك: إنه ﷺ كان يخادع أصحابه، أو إن أصحابه انخدعوا له؟ بل كيف ينخدع الناس في رجل حتى تزهق أرواحهم، وتفنى أموالهم، ويحاربوا قومهم، ويتركوا ديارهم؟!!

الخلاصة:

- صدْق النبي ﷺ قبل رسالته وبعدها من أسرار نجاح الدعوة الإسلامية، ولو كان النبي ﷺ مخادعًا - كما يدَّعون - لما انتشرت دعوته، ولما استطاع أن يدافع عنها، ولفشلت مثل غيرها من الدعوات الأخرى، وقد شهد له أعداؤه قبل أصحابه بصدق الحديث، وشدة الأمانة.
- كان النبي ﷺ واثقًا في دعوته، يحارب من أجلها، ويتحمل الصعاب والشدائد في سبيلها، وقد استعمل المشركون كل أنواع الحِيَل والمساومات والاضطهاد والتعذيب لِيُثْنوه عن دعوته، فما ردَّه ذلك كله، بل كان يسير بخطًى ثابتة، واثقًا من نصر الله ﷻ له ولدعوته.
- كان إسلام عمر بن الخطاب ﷺ نصرًا أعزَّ الله به المسلمين، وكان إسلامه عن اقتناع وثقة بصدق النبي ﷺ وصحة الدين الجديد، وقد أنفق ماله في سبيل الله ﷻ، فكيف يدَّعون أن النبي ﷺ كان يواليه بالعطايا والمنح حتى أسلم؟!! لقد أسلم عمر ﷺ في بداية الدعوة الإسلامية، ولم يكن للنبي ﷺ مال يوزعه، وكان عمر بن الخطاب من أغنياء قريش، فما كان في حاجة إلى محمد ﷺ وماله إن كان عنده مال.

الشبهة الثامنة

الزعم أن النبي ﷺ عدل عن الصدق بعد هجرته وغيَّر سياسته(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن النبي ﷺ بعد ما كان يتميَّز بالصِّدق والشَّفافية في الشطر الأول من دعوته في مكة،

---

1. فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. علي محمد محمد الصلابي، مرجع سابق، ص ٢٢: ٣٠ بتصرف.

(*) شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، مرجع سابق. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق. الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، سليمان عبد القوي الطوخي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

طرحها جانبًا في النِّصف الثاني من الدعوة في المدينة، ويستدلون على هذا بأن سياسته ﷺ قبل الهجرة تختلف عنها بعدها؛ فبعد أن كان مسالمًا مهادنًا ـ في مكة ـ، صار دمويًّا يستخدم لغة العنف في المدينة. ويرمون من وراء ذلك إلى القول بعدم استمرارية صدقه ﷺ وشفافيته؛ وذلك بغية الفصل بين ما كانت عليه أخلاقه ﷺ في مكة، وما آلت إليه في المدينة، وهذا كله بهدف الطعن في أخلاقه ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد كان النبي ﷺ ـ بشهادة خصومه فضلًا عن اتباعه ـ مثالًا للصدق في القول والفعل ـ كسائر الأشراف من العرب ـ يستوي في ذلك ما كان عليه في مكة ـ قبل الهجرة ـ وما كان عليه في المدينة ـ بعد الهجرة ـ وهذا ما يُثبته الواقع، وتؤكِّده القرائن.

٢) لم تتغيَّر سياسة النبي ﷺ بعد الهجرة عما كانت عليه قبلها، وإنما تطوَّرت الظروف تطورًا أدَّى إلى تشريع الجهاد الذي كان وسيلة مشروعة للدِّفاع عن النفس واستعادة الحقوق المسلوبة، ولا عنف في هذا ولا دموية في ذاك.

التفصيل:

أولا. كان النبي ﷺ مثالا للصدق والأمانة:

إن من يطلب دليلًا على صدق النبي ﷺ لن يصعب عليه ذلك؛ لكثرة الآثار في هذا الجانب، وفي هذا يقول الشيخ محمد أبو زهرة: "إن الحديث عن صدق النبي ﷺ من نافلة القول؛ فهو الصادق الذي عُرف بالصدق منذ أن وَعَى إلى أن قبضه الله ﷻ إليه، فما عُرِفَتْ عليه كَذِبَة قط في حياته كلها ﷺ.

فالكذب لم يكن من أخلاق كبراء العرب، فإن الحرية كانت متوفرة لهم بمقتضى قيامهم في بلاد لا يسيطر فيها طاغ يتحكَّم في عقولهم ونفوسهم، وألسنتهم وتفكيرهم، ولم يكن فيهم المَلَق[1] الذي يجعلهم يُدهنون في القول رجاء خير يبتغونه، وإنه حيث يحكم الملك العضوض، وتسيطر أهواء الحكام توجد صفتان متلازمتان: إحداهما النفاق، وثانيتهما الكذب؛ لأن النفاق في ذاته كذب، والكذب لازمة من لوازمه، ولذا أُثر عن النبي ﷺ أنه قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"[2]. فكيف يعيب النبي ﷺ الكذب على المنافقين ثم يقع هو في هذا الإثم؟!

وإن التاريخ ليروي أن أبا سفيان، وقد كان زعيم الشرك في الوقت الذي جرى فيه حديث بينه وبين هرقل ـ ملك الروم ـ عن النبي ﷺ، وقد سأله عن نسبه ﷺ، وعمن يتَّبعونه، وعن أسئلة كثيرة تتعلق بأخلاق النبي ﷺ فأجابه بالصدق، وقال ـ وهو مُحنَق[3] من أثر الحقائق التي ذكرها لهرقل ـ: "لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه"[4].

١. المَلَق: الدعاء والتضرُّع.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (٣٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٢٢٠).

٣. المُحنَق: الحاقد.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧)، واللفظ للبخاري.

فعرب مكة والمدينة ووسط الصحراء لم يكن الكذب سائغًا بينهم، وكذلك النِّفاق، ولم يُعرف النفاق في أوساط المسلمين الذين استجابوا للنبي ﷺ في المدينة إلا من اليهود، ومن يجاورونهم من مشركي المدينة، فقد ظهر فيهم النفاق مقترنًا بقوة المسلمين.

لم يكن غريبًا إذن أن يكون محمد ﷺ صادقًا بين الصادقين، ولكن صدق محمد ﷺ ليس كصدق غيره من أهل مكة المكرمة ومن حولها، ولكنه صدق مَنْ أعدَّه الله ﷻ ليكون رسولًا للعالمين، فأخلاقه ﷺ كانت من إرهاصات النُّبوة، فلم يكن ﷺ صادق القول فقط، بل كان صادق القول، وصادق الحسِّ، وصادق النفس، ونقصد بصدق الحسِّ بأن يكون نظره إلى الأشياء والأشخاص صادقًا في وصفها، مستبطنًا حقيقة الأشياء من وراء الظاهر، ثم صادق في النظر إلى نفسه، فيعرف مواضع الخير فيفعلها، ويعرف مواضع الشر فيتجنبها، وهو صادق في مقاصده، وصادق في غاياته، يخلص في إدراك الحقائق والاتجاه إليها مستقيمًا لا عوج فيه، فيستقيم إدراكه، ويصدق في كل أمر يتَّصل بالقلب والضمير.

فالإيمان أساسه الإخلاص في العمل والقول والإذعان، ولا يُتصوَّر إيمان مع كذب، وهو القائل كما ذكرنا قبل ذلك: "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان"[1].

وأما الأمانة فحسبنا أن نعلم أن ذلك أمر رأته قريش كلها وآمنت به، حتى سُمِّي: الأمين، وإن الأمانة والصدق صِنْوان متلازمان، فلا أمانة من غير صدق، والصدق يقتضي كل الفضائل، والكذب عشُّ الرذائل"[2].

وفيما يلي بعض الشهادات والاعترافات بصدقه ﷺ، كما أوردها الأستاذ سعيد حوَّى في كتابه "الرسول ﷺ":

١. شهادة الخصوم بصدقه ﷺ:

وشهادة الخصوم في هذا المجال لها وزنها الكبير، إذ تدلك على مبلغ الثقة التي كان يتمتع بها رسول الله ﷺ عند الجميع، وهذه نصوص تؤكد هذا الذي قلناه:

عن علي رضي الله عنه قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: قد نعلم يا محمد أنك تصل الرحم، وتصدق الحديث ولا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به، فأنزل الله ﷻ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنعام)[3].

رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: "لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء)، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: "يا بني فهر، يا بني عدي..." لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغِير عليكم أكنتم مُصدِّقيَّ"؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقًا، قال: "فإني نذير

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (٣٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٢٢٠).

٢. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص ١٩٧، ١٩٨ بتصرف يسير.

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام (٣٠٦٤)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة الأنعام (٣٢٣٠)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٢٠٣).

لكم بين يدي عذاب شديد"، قال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؛ فنزل قول الله ﷻ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ (المسد)[1].

من هذه النصوص البينة الصريحة يتبين أن الثقة بصدق محمد ﷺ كانت متوافرة، ولم يكن في هذا الأمر شك أبدًا.

٢. **شهادة الأتباع:**

ونقدم لشهادة الأتباع بما يلي:

أن رسول الله ﷺ كان دائم الخلطة لأصحابه في طعامهم وشرابهم وسفرهم، وصلاتهم ومجالسهم، وكان ﷺ يحب البساطة والصراحة، ويكره التكلف، وبعض الصحابة خالط الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدها عشرات السنين.

وهؤلاء الأصحاب لم يكونوا أَغْرارًا ولا مُغَفَّلين ولا مُنْعزلين عن العالم، بل بعضهم من مكة التي كان العرب يقصدونها سنويًّا للحج، وتُسَلِّم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة، بالإضافة إلى صِلات أهلها - بواسطة التجارة - مع اليمن ومع الشام حيث مراكز الحضارة، وكان بعضهم من المدينة حيث الصلات الفكرية مع اليهود، وما يَنْشأ عن ذلك من تفتُّح ذهني وحوار ثقافي.

كما أن هؤلاء الأصحاب أثبتوا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولًا، وأكثرهم دهاءً وحِنْكة، ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم، بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم في فتح أعظم الدول المتحضرة وقتذاك وإدارتها، وكسب مودة شعوبها ودمجهم في الأمة الإسلامية.

فإذا ما اجتمعت هاتان الناحيتان: الخلطة الدائمة، وذكاء المُخالطين، فإن أمر الكاذب يفْتَضِح، وأمر الصادق يتَّضح.

والظاهرة الواضحة في حياة الصحابة أنهم كانوا كُلَّما ازْدادوا برسول الله ﷺ خُلطة ازْدادوا به إيمانًا وتصديقًا، بل كان أكثرهم مخالطة له أكثرهم إيمانًا به وطاعة له، وقد بلغ هذا منهم درجة أن أصبح الموت من أجل ما يريد الرسول ﷺ أحب إليهم من الحياة، وإنفاق المال أحب إليهم من إمساكه والطاعة أحب إليهم من المعصية، ودين الرسول ﷺ أحب إليهم من الأموال والأولاد والمساكن والزوجات والوطن، وكل هذا من مظاهر التصديق الكامل؛ إذ لولا التصديق لما كان شيء من هذا، فقد قتل منهم الابنُ أباه، وأراد لأبٌ قتل ابنه، فعلامَ يفعلون هذا؟! لولا أن إيمانهم برسول الله ﷺ وتصديقهم له وصل إلى ذروة الذُّرَى.

٣. **شهادة الواقع:**

إن شهادة الواقع أعلى الشهادات؛ لأن الإنسان يصل بواسطتها إلى اليقين الذي لا يُخالطه شك، فَلْيقُم الإنسان بإجراء اختبار كامل لكل ما ورد عن الرسول ﷺ من قول أو فعل، فإذا ما وجد أن كل قول أو فعل مما يمكن أن يدخل تحت الاختبار لا يخرج عن الحق والصدق، لم يبق أمام الإنسان إلا طريق واحد

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الشعراء باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ ﴾ (الشعراء) (٤٤٩٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ ﴾ (٥٢٩)، واللفظ للبخاري.

هو الإيمان والتصديق بصدقه ﷺ والواقع يشهد أنه ﷺ ما كان يَعِدُ ولا يُعَاهد إلا ويفي ويصدق من عاهد بما عاهد عليه، بل ما كان ﷺ يمزح إلا صادقًا.

إن الرسول ﷺ منزَّه عن الكذب سواءٌ في ذلك يوم كان في مكَّة ـ في النِّصف الأوَّل من دعوته ـ وبعد ما ذهب إلى المدينة ـ في النصف الثاني من دعوته ـ، وهذا ما لا ينكره كل مُطالع، منصف لشهادة أتباعه قبل الهجرة وبعدها، ولا مستقصٍ دقيق لشهادات الخصوم قبل الهجرة وبعدها ـ أيضًا ـ، ولا مُستقرئ فطن لأخبار الواقع ومواقفه قبل الهجرة وبعدها كذلك، فهذا مما لا يُلابِسُه شك ولا تداخله ريبة.

ومن النماذج القليلة التي ذكرناها ترى أنه لا أحد من البشر وصل إلى ما وصل إليه الرسول ﷺ في الوفاء لشرف الكلمة، فقد كانت كلمة الرسول ﷺ هي الضمان الذي ما بعده ضمان، حتى إن ألدَّ خصومه وأعرقهم في عداوته كان لا يتردَّد إذا تأكد أن محمدًا ﷺ أمَّنه أن يُلقي بنفسه في أحضان المسلمين؛ ثقة منه أن كلمة رسول الله ﷺ محمد ضمان لا يَعْدله ضمان، ومن تتبَّع حوادث السيرة وجد الأمثلة الكثيرة على هذا، إنها صفة الصدق ـ عند الأنبياء ـ التي لا تتخلف[1] ®.

١. الرسول ﷺ، سعيد حوَّى، مرجع سابق، ص٢٥: ٣٨.

® في **"صدق النبي ﷺ وأمانته قبل البعثة وبعدها"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). وفي **"سمو أخلاق النبي ﷺ وصفاته وخصاله"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الخامس (نبوة النبي وعلاقته بأهل الكتاب). وفي **"شهادة المنصفين الغربيين بصدق النبي"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء.

ثانيًا. كان الجهاد في المدينة للدفاع عن النفس واستعادة الحقوق المسلوبة:

لم يكن الجهاد الذي عمد إليه النبي ﷺ بعد هجرته قط تشريعًا عدوانيًّا، ولا نتاجًا لرغبة دموية لدى النبي ﷺ كما يزعمون؛ بل "لما أصبح للمسلمين دولة بالمدينة، ورضي أهلُها جميعًا بالنبي ﷺ رئيسًا لها مسئولًا عن أَمْنِها وسلامتها، كان لا بدَّ من حماية هذا الوضع من العدوان"[2].

وكان النبي ﷺ يربي المسلمين على إيثار السلام، واستِنْفاد الحيلة في دفع العدوان بالحسنى وعدم القتال، فكان يقول لأصحابه: "لا تتمنوا لقاء العدو، وسَلُوا الله العافية"[3]. وعن أبي هريرة قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن عُديَ على مالي؟ قال: "فانْشُد بالله"[4]، قال: فإن أَبوا عليَّ؟ قال: "فانْشُد بالله"، قال: فإن أبوا عليَّ؟ قال: "فانْشُد بالله"، قال: فإن أبوا عليَّ؟ قال: "فقاتل، فإن قُتِلتَ ففي الجنة، وإن قَتَلْت ففي النار"[5].

وعلى أساس هذه الأصول، يعتَبِرُ الإسلامُ السلامَ هو الأصل، ويعتبر الحرب ضرورة لا يُلْجَأ إليها إلا مقاومة للظلم ودفعًا للعدوان، وحين لا يكون بدٌّ منها،

٢. الجهاد في الإسلام، محمد شديد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٩١.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التمني، باب كراهية تمني لقاء العدو (٦٨١٠).

٤. فَانْشُد بالله: ذكرهم بالله واستعطفهم.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٤٥٦)، والنسائي في المجتبى، كتاب تحريم الدم، باب ما يفعل من تعرض لماله (٤٠٨٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف النسائي (٤٠٨٢).

أما الحروب العُدوانية أو الهجومية بالمفهوم الحديث، فهي حروب لا يعرفها الإسلام، وقد قال ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ (البقرة)، وكذلك يأمر القرآن بوقف الحرب بمجرد طلب العدو للصلح، حتى ولو كان في طلبه مظنة خيانة أو غدر، أو كان يَبْغي من وراء وقف القتال كَسْب الوقت للإعداد لحرب ثانية: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ (الأنفال).

ولم تكُنْ حروب الرسول ﷺ إلا تطبيقًا عمليًّا لهذه المبادئ، فلم يلْجأ إلى القتال إلا مضطرًّا وفي حدود الدفاع عن حرية دعوته وعن كيان المسلمين، ويظهر ذلك بوضوح من استعراض أشْهر معاركه مع المشركين وأهل الكتاب، فقد كانت كلها دفاعية بالمفهوم الإسلامي الشامل للدفاع، أو مبادرة لاتِّقاء هجوم مؤكد.

أمَّا مشركو قريش، فقد كان عدوانهم واضحًا طُول العهد المكي، ولم يَنْته هذا العهد حتى كانوا قد بدءوا يُحكِّمون السيف؛ فتآمروا على رسول الله وأجمعوا على قَتْله حتى لا يتم انتقال الدعوة إلى المدينة: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ (الأنفال)[1].

والجهاد في الإسلام لم يُشْرع هباءً، إنما شُرع لأهداف ومقاصد سامية منها: الانتصاف للمظلوم من الظالم، والانتصار للنفس، فها هم المشركون قد آذوا المسلمين، وحاولوا ما وسعهم الجهد أن يفتنوهم عن دينهم، فلما لم يفلحوا أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم، والانتصار للنفس أمر فطري، وحق من حقوق الإنسان، قرَّرته الشرائع السماوية والقوانين الأرضية، وقد قرر الله تعالى هذه الحقيقة الإنسانية في قوله ﷻ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾ (الشورى).

وقد أمر الله المسلمين بالصبر على أذى المشركين والتسامح معهم أثناء العهد المكي، وأوائل العهد المدني، عسى أن يرعووا، ولكنهم لم يزدادوا إلا بطرًا وظلمًا واستعلاءً في الأرض، فأما أنهم لم تفلح معهم سياسة المهادنة والتسامح، فلتقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، وإلا صار السكوت والإِغْضاء عَجْزًا وضعْفًا ومهانة.

وليس من العدل والحق أن يُترك المشركون يمرحون في الأرض، ويجوبون الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، يُفْسدون فيها ولا يُؤْذَن للمسلمين في محاربتهم من جنس ما حاربوهم به، وأن يقطعوا عليهم تجارتهم، ويأْخذوا منها ما تصل إليه أيديهم نظير ما اغتصبوا من أموالهم، وأن يضيقوا عليهم مثل ما ضيقوا عليهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ (الشورى)، هذا عن حروب النبي ﷺ مع مشركي مكة، أما عن حروبه ﷺ مع اليهود فلم يكن في واحدة منها بادئًا بالعداوة أو مهاجمًا أو

1. الجهاد في الإسلام، محمد شديد، مرجع سابق، ص ١٢٧، ١٢٨ بتصرف.

فاتحًا، إنما كان فيها كلها ملتزمًا جانب الدفاع عن دعوته ودولته، ومن التجوُّز أو الخطأ اعتْبار ما حدث بينه وبين يهود المدينة معارك حربية؛ لأنهم كانوا من رعايا الدولة الإسلامية، ثم شقُّوا عصا الطاعة، وخانوا الدولة في أحْرج الظروف، فظاهروا حركة النِّفاق، وشَرَعوا في قتل النبي ﷺ، وحرَّضوا المشركين، وأعانوهم بالمال وانْضمُّوا إليهم في حرب المسلمين حتى أصبحوا خطرًا يهدِّد الدولة النَّاشئة بالفناء، ولو أنَّهم نجحوا في إحدى مُحاولاتهم لقضوا على الإسلام والمسلمين، فلم يكن بد من أخذهم بغدرهم وخيانتهم، وقد قضى النبي ﷺ على كل فريق منهم بما يستحق[1].

وهكذا يتبين لنا أن حرب النبي ﷺ وأصحابه الأخيار من بعده، لم يكن الباعث عليها إلا دفع الاعتداء، ولم يكن الدافع دمويًّا على الإطلاق، ولم يكن ذلك ضمن لغة العنف التي عمد إليها النبي ﷺ على حدِّ ما يحلو لكثيرين أن يتهموه، وأيضًا لم يكن الباعث أبدًا فرض رأي أو دين، ولكن يجب علينا أن نفرض أن كل مبدأ سامٍ يتجه إلى الدفاع عن العقيدة، وعن الحرية الشخصية، يهمُّ الداعي إليه أن تخلو له وجوه الناس، وأن يكون كل امرئ حرًّا فيما يعتقد، يصطفي من المذاهب بحرية كاملة ما يراه أصلح للاتِّباع في اعتقاده، وما يراه أقرب إلى العقل في نظره.

فإذا كان طاغية أو ملكًا قد أرهق شَعْبه من أمره عسرًا، وضيَّق عليه في فِكره، وحال بينه وبين الدعوات الصالحة التي تتَّجه إليه، فإن حق صاحب الدعوة ـ إذا كان في يده قوة ـ أن يُزيل تلك الحُجُزَ التي تحول بينه وبين دعوته، ليصل إلى أولئك المستَضْعفين وتخْلو وجوههم لإدراك الحقائق الجديدة، وإعلان اعتناقها إن رأوا ذلك وآمنوا به، ولكن محمدًا النبي الأمين ﷺ لم يلجأ إلى ذلك ابتداء، حتى لا يظن أحد أن محمدًا ﷺ قاتل ليفرض دينه على الناس، أو ليكرههم عليه؛ ولذلك سلك طريقين:

١. أن يرسل الدعوة الدينية إلى الملوك والرؤساء في عصره، يدعوهم إلى الإسلام، ويحمِّلهم إثمهم، وإثم من يتبعونهم إن لم يجيبوا دعوته، ولذلك جاء في كتابه إلى هرقل: "أسلم تَسْلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن تولَّيت فإن عليك إثم الأَرِيسِيِّين[2]: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران)[3].

إنه ﷺ بعد هذه الدعوة الرسمية أخذ يُعْلن الحقائق الإسلامية ليعرفها رعايا تلك الشعوب فيتبعها من يريد اتِّباعها، وقد اتَّبعها فعلًا بعض أهل الشام ممن يخضعون لحكم الرومان، وعرف المصريون وغيرهم حقيقتها، حتى لم تَعُد مجهولة لمن يريد أن يتعرَّفها، وتسامعت بها البلاد المتاخمة للعرب.

٢. أن يتوجه النبي ﷺ إلى قتال الفرس أو الروم وما اتجه ﷺ لذلك إلا بعد أن ثبتت حقيقتان:

---

١. المرجع السابق، ص ١٣٤.

٢. الأَرِيسِيُّون: الرَّعية من الزُّرَّاع وغيرهم.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

أن الروم قد ابتدءوا فاعتدوا على المؤمنين الذين دخلوا في الإسلام من أهل الشام، فكان ذلك فتنة في الدين، وإكراهًا عليه، وما كان محمد ﷺ ليسكت على ذلك، وقد جاء لدعوة دينية، وإنه إن كان لا يحمل الناس على اعتناق الإسلام كرْهًا، لا يُمْكن أن يَسْكت عمَّن يحاولون أن يخرجوا أتباعه من دينهم كرْهًا، إنه لا يريد أن يَعْتدي، ولا أن يُعتدى عليه، ولذلك اعتبر هذا العمل - من جانب الرومان - اعتداء على دينه وعليه؛ لأنه صاحب الدعوة فلا بد أن يزيل هذه الفتنة.

إن كسرى عندما بلغه كتاب الرسول ﷺ همَّ بقتل من حملوه، وأخذ الأُهْبَة ليقتل النبي ﷺ، واختار من قومه من يأتيه برأسه الشريف الطاهر، ولكن أنَّى لكسرى وأمثاله من الطغاة أن يمكِّنهم الله ﷻ من ذلك، والنبي ﷺ - وقد علم بالأمر - ما كان ليسكت حتى يرتكب كسرى هذا الإثم، بل إنَّه القوي العادل الحصيف، ولذلك كان لا بد أن يَصْرعه وجيشه قبل أن يصرعه هو.

لهاتين الحقيقتين اتجه النبي ﷺ لقتال الرومان والفرس لمنع الفتنة في الدين من أولئك الرومان والفرس ومحارِبيهم، كما قاتل المشركين لمنع هذه الفتنة، وبيَّن ذلك القرآن: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة).

يقول ابن تيمية في قتال النبي ﷺ لأهل الروم: "وأما النصارى فلم يقاتل النبي ﷺ أحدًا منهم، حتى أرسل رسله إلى قيصر وإلى كسرى وإلى المقوقس والنجاشي، وملوك العرب بالشرق والشام، فدخل في الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من قد أسلم، فالنصارى هم الذين حاربوا المسلمين أولًا، وقتلوا من أسلم منهم بغيًا وظلمًا، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل محمد ﷺ سَرِيَّة أمَّر عليها زيد بن حارثة، ثم جعفرًا، ثم ابن رواحة، وهو أول قتال قاتله المسلمون بمؤتة من أرض الشام، واجتمع على أصحابه خلق كثير من النصارى، واسْتُشْهد الأمراء الثلاثة ﷺ وأخذ الراية خالد بن الوليد"[1].

وبهذا يتبيَّن أن قتال النبي ﷺ لم يكن إلا دَفْعًا للاعتداء، والاعتداء الذي حدث في عهد النبي ﷺ كان على صورتين: إما أن يُهاجم الأعداءُ النبي ﷺ فيرد كيدهم في نحورهم، وإما: أن يَفْتِنُوا المسلمين عن دينهم، ولا بد أن يمنع النبي ﷺ ذلك الاعتداء على حرية الفكر والعقيدة.

وفي الصورتين نجد النبي ﷺ لا يفرض دينه ولا يُكْره أحدًا عليه، ولكن يحمي حرية الاعتقاد التي هي مبدأ من مبادئه، إذ قد جاءت مُقَرَّرة في القرآن، حيث يقول ﷻ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ففي الحق أن قتال النبي ﷺ كان دفاعًا عن حرية الرأي، وحماية العقيدة من أن يُفْتن أصحابها[2].

فهل بعد هذا يصح الزعم بأن رسول الله ﷺ اسْتَخْدم لغة العنف في المدينة بديلًا عن الصدق والمسالمة، مع العلم بأنه كان صادقًا أمينًا منذ صباه حتى

---

١. رسالة القتال من مجموع الرسائل النجدية، ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص ١٢٦، نقلًا عن: نظرية الحرب في الإسلام، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٥.

٢. المرجع السابق، ص١٣: ١٦ بتصرف يسير.

مماته، رءوفًا رحيمًا بأمته، رحمة مهداة للعالمين، وقد شهد بذلك خصومه وأعداؤه، والفضل ما شهدت به الأعداء®.

الخلاصة:

- كانت قريش كلها تعرف عن النبي ﷺ الصدق والأمانة في كل شيء، حتى لُقِّب بينهم بـ "الصادق الأمين" ولو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلًا على تكذيبه في الرسالة، ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم، ومن عصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله أعصم، وقد شهد له أعداؤه بذلك قبل الهجرة وبعدها، فحينما سأل هرقل أبا سفيان ـ وهو لم يزل على الشرك: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجابه: لا، فعلّق هرقل قائلًا: ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله تبارك وتعالى.
- كان رؤسول الله ﷺ يجاهد في المدينة بلسانه قبل سيفه، ولم يكن يلجأ إلى الصدام الحربي إلا عند الضرورة القصوى، وهي الاعتداء على المسلمين، وغزو بلادهم؛ لأن هناك فرقًا كبيرًا بين الجهاد والعنف، فالنبي ﷺ لم يُغيِّر سياسته، ولم يستخدم لغة العنف في المدينة بديلًا عن الصدق والمسالمة في مكة كما يزعمون، وإنما كان يحمي حرية الاعتقاد التي هي مبدأ من مبادئ دينه ﷺ.

® في "قتال النبي ﷺ وجهاده" طالع: الوجه السادس، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

الشبهة التاسعة

دعوى محاباة النبي ﷺ أقاربه وذويه (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن عاطفة النبي ﷺ كانت تغلب على جانب العدل عنده؛ إذ كان يُحابي[1] أقاربه وذَوِيه، ويستدلون على ذلك ببعض أحداث غزوة بدر، مثل: نهيه ﷺ أصحابه عن قتل من يجدونه من بني هاشم مع جيش قريش في المعركة، لا سيما عمه العباس، وحسن معاملته لأسراهم بعد المعركة وتساهله في أخذ الفداء منهم، ومنِّه على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب؛ إذ أطلق سراحه دون مقابل، وكذلك ردّه عثمان بن عفان ﷺ زوج ابنته رُقيَّة عن الذهاب للمعركة خوفًا عليه من القتل وللجلوس بجوار ابنته رقية، ثم إعطاؤه سهمًا من الغنائم كأنه مشارك في المعركة دون أن يبذل أي مجهود فيها. وهم بهذه المزاعم يهدفون إلى الطعن في أخلاقه ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد دافع بنو هاشم عن النبي ﷺ بكل ما أوتوا من قوة، وتحملوا من أجله صنوف الأذى من قريش، من حصار في شِعْب أبي طالب وغير ذلك، فأراد النبي ﷺ أن يقابل إحسانهم بإحسان مثله، فنهى عن قتلهم في غزوة بدر، وخاصة أنهم قد خرجوا مكرهين

(*) ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مطبعة رشوان، مصر، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق.

١. يُحابي أقاربه: يختصُّهم ويميل إليهم.

أخرجتهم العصبية الجاهلية، كما نهى عن قتل غيرهم ممن أحسن إليه وإلى المسلمين كأبي البختري بن هشام.

٢) لقد أوصى النبي ﷺ أصحابه بحسن معاملة كل الأسرى، لا أسرى بني هاشم فحسب، كما أنه تشدَّد في أخذ الفداء من عمه العباس وسائر أقاربه، ولم يترك له درهمًا واحدًا، بل رفض اقتراح الأنصار الذين عرضوا عليه أن يطلقوا سراحه دون مقابل.

٣) لم يكن أبو العاص بن الربيع الأسير الوحيد الذي منَّ عليه النبي ﷺ في غزوة بدر، بل لقد منَّ ﷺ على كثيرين غيره، ممن لا تربطهم به صلة ولا قرابة، كما أنه قد ترك أمر إطلاقه إلى أصحابه، ففعلوا.

٤) لقد أمر النبي ﷺ عثمان بن عفان ﷺ بالبقاء في المدينة ليمرِّض زوجته رقية التي لم يكن هناك من يرعاها غيره، أما إعطاؤه سهمًا من الغنائم، فليس فيه أية محاباة له على حساب أحد؛ لأن الله ﷻ قد جعل أمر الغنائم في بدر للنبي ﷺ يتصرف فيها كيف يشاء، وقد أسهم النبي ﷺ لكثيرين غيره ممن لم يشهدوا المعركة.

التفصيل:

أولا. لقد جازى النبي ﷺ الوفي الأمين إحسان بني هاشم بإحسان مثله، فنهى عن قتلهم في المعركة، كما نهى عن قتل غيرهم ممن كان يحسن إليه وإلى المسلمين:

لا شك أن الرحمة من الفضائل الإنسانية العالية، ولكن المتأمل في رحمة النبي ﷺ يجدها رحمة عامة لا تخصُّ أشخاصًا بذواتهم، ولا قبيلة بعينها، بل هي رحمة تشمل العالمين، يقول ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)، ونحن إذا نظرنا إلى جهاد النبي ﷺ نجد أنه جهاد قد شرعته الرحمة، وأظلته، ولكن ينبغي أن ننبِّه إلى أن هذه الرحمة لا تنال إلا من يستحقها، فالشفقة على الظالم والامتناع عن الاقتصاص منه ليست من الرحمة في شيء؛ لأنها تُخفي في ثناياها قسوة على المظلوم؛ ولذلك قال النبي ﷺ: "من لا يَرْحم لا يُرْحم"[1].

ومن هذا المنطلق فإننا إذا أردنا أن نفسر نهي النبي ﷺ أصحابه عن قتل من يجدونه من بني هاشم مع جيش مكة في غزوة بدر - فلا بد أن نذكر أن الباعث على الحرب في الإسلام - كما نصَّ القرآن الكريم - هو رد الاعتداء على المسلمين؛ فقد قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (البقرة)، وقد أمر الله ﷻ أن يعامَل المعتدون بمثل اعتدائهم. قال ﷻ: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (البقرة).

من هذه الآيات الكريمة يتبين لنا أن الباعث على الحرب في الإسلام دفْع الاعتداء، ومنع الأذى المستمر، وعقوبة الظالمين[2].

وهذا هو الباعث على غزوة بدر وقتال مشركي

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥١)، وفي مواضع أخرى، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٦١٧٠).

٢. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٢، ص ٥١٣، ٥١٤.

قريش، فلقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، يدعو الناس بالحجة والموعظة الحسنة، وقد أذاقته قريش ـ هو والمؤمنين عامة ـ كل صنوف الأذى، وقد صبر ﷺ وهاجر إلى المدينة، وقد صودرت أمواله وأموال المسلمين، فظُلم هو وأصحابه، وفي المدينة أعلن على قريش ـ مقابل ما سبق ـ حربًا اقتصادية يُرغمها بواسطتها على الاعتراف بحقوقه في مكة وحقه في نشر الدعوة، فخرج يريد قافلة أبي سفيان، ولكنها تمكنت من الإفلات، ولكنَّ قريشًا خرجت إلى رسول الله ﷺ بقَضِّها وقَضِيضها[1] حتى عبيدها خرجوا معها[2].

هذا عن موقف قريش دون بني هاشم، أما عن موقف بني هاشم من النبي ﷺ فهو موقف المدافع عنه ﷺ، ولِـمَ لا وهم أهله وذووه؟ وهل يستطيع أحد أن ينسى موقف أبي طالب من حمايته لابن أخيه ﷺ منذ بداية دعوته حتى توفاه الله ﷻ، فلم يتخلَّ قَطّ عن ابن أخيه مهما كانت الأحوال شديدة، حتى إن قريشًا لم تنل من النبي ﷺ أذى يُذكر إلا بعد موت أبي طالب، حتى إن النبي ﷺ اضطر إلى أن يطلب الجوار ليدخل مكة، فأجاره مُطعِم بن عَدِي.

وقد يقول قائل: لقد وقف أبو طالب ذلك الموقف من ابن أخيه؛ لأنه هو الذي كفله بعد موت أبيه وجده وربَّاه، ولكننا نقول: إن هذا الموقف لم يكن موقف أبي طالب فحسب، بل كان موقف كل بني هاشم، حتى من وقفوا ضد الدعوة في كثير من مراحلها كأبي لهب، فقد كانت تأخذه الحمية أحيانًا، فيدافع عن ابن أخيه وعمن أسلموا معه، فقد روت كتب السيرة أن أبا طالب قد أجار أبا سلمة، فقالت له قريش: أنت منعت ابن أخيك محمدًا، فما لك ولصاحبك ـ أي أبي سلمة ـ تمنعه؟ فقال: إنه استجار بي، وهو ابن أختي، وإن لم أمنع ابن أختي لا أمنع ابن أخي، وعندئذ أخذت الحمية أبا لهب، فقال مهددًا لقريش: يا معشر قريش، أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن أو لنقومنّ معه في كل ما قام فيه، حتى يبلغ ما أراد، فقالوا ـ يبتغون رضاءه حتى لا ينحاز إلى النبي ﷺ كما فعل أخوه حمزة من قبل ـ: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة[3].

هذا موقف أبي لهب، وهو من أشد أعداء النبي ﷺ، فما بالنا بموقف سائر بني هاشم ممن كانوا يحبون النبي ﷺ وينصرونه ويمنعون عنه الأذى، وهل يستطيع أحد أن ينسى موقفهم من النبي ﷺ وأصحابه يوم شِعْب أبي طالب، حينما قاطعت قريش النبي والمسلمين وألجئوهم إلى هذا الشعب، فاجتمع كل بني هاشم إلا أبا لهب على حماية النبي ﷺ مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعل ذلك حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا، وقد اشتد الحصار على المسلمين وعلى بني هاشم ثلاث سنوات قطعت عنهم الـمِيرَة[4] والمادة، حتى التجئوا إلى أكل أوراق الشجر والجلود، وحتى كان يُسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون[5] من الجوع، وقد ظل بنو هاشم بجوار النبي ﷺ على

1. بقَضِّها وقَضِيضها: بكامل قوَّتها.
2. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٩٤، ٩٥ بتصرف يسير.

3. السيرة النبوية، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج٢، ص٦٢.
4. المِيرَة: الطعام.
5. يتضاغون: يتصايحون ألمًا.

الرغم مما أصابهم من فاقة[1] وأذى من قريش، لا يسلمونه لشيء حتى نُقضت هذه الصحيفة وخرجوا من الشِّعب[2].

وإذا كنا لا نستطيع أن ننسى مثل هذه المواقف لبني هاشم مع النبي ﷺ، فإننا لا نستطيع كذلك أن ننسى موقف العباس بن عبد المطلب ﷺ.

فقد كان أحد بني هاشم في الدفاع عن النبي ﷺ ومنع الأذى عنه، كما أنه قد ذهب مع النبي ﷺ - وكان العباس لا يزال على دين قومه - لكي يستوثق لابن أخيه من حماية أهل يثرب له، فكان أول من تكلم في تلك الليلة، فقال: "يا معشر الخزرج، إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وهو في منعة في قومه وبلاده، قد منعناه ممن هو على مثل رأينا منه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم، وإلى ما دعوتموه إليه، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه، فأنتم وما علمتم، وإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلانًا فاتركوه في قومه، فإنه في مَنَعَة من عشيرته وقومه"[3] [4].

فإذا أضفنا إلى ما سبق أن بني هاشم قد خرجوا للقتال في بدر مكرهين، أخرجتهم الحمية والعصبية الجاهلية؛ حياءً من قريش، وقد كان هواهم مع النبي ﷺ، وإذا أضفنا كذلك أن قتال النبي ﷺ، في بدر لقريش لم يكن من أجل كفرها، وإنما لاعتدائها على المسلمين وعلى أموالهم، وفتنتهم لهم عن دينهم، ولم يشترك بنو هاشم في هذا الاعتداء والإيذاء أو تلك الفتنة - تبيَّن لنا حقيقة نَهْي النبي ﷺ المسلمين عن قتل من يجدونه من بني هاشم في جيش قريش، فالنبي ﷺ هو نبي الرحمة، وقد بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، فكيف ينسى رحمه، وواجبَ الوفاء لبني هاشم الذين ذاقوا مع النبي ﷺ والمسلمين ما ذاقوا، وقريش تقاطعهم في شعبهم، وهم على مثل قومهم من الشرك؟ وهل من الوفاء بالعهد وجزاء المعروف بمعروف مثله، ومقابلة الإحسان بالإحسان أن يقتلهم في الميدان، وقد خرجوا لحربه مكرهين بحكم العصبية الجاهلية؟

هل يترك النبي ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب تَعتَوِره[5] السيوف، وهو الذي ذهب معه في بيعة الأوس والخزرج، ليستوثق من منعة يثرب له ﷺ ؟ ألا يستحق بنو هاشم أن يحسن إليهم النبي ﷺ والمسلمون جزاء إحسانهم للنبي ﷺ وضعفاء المسلمين طيلة مكوثهم في مكة، والنبي هو الوفي الأمين، لا ينسى إحسان محسن، والله ﷻ يقول: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الرحمن) ألا يستحق بنو هاشم والعباس عم النبي ﷺ ما استحقه غيرهم ممن لم يؤذِ النبي ﷺ من بعض رجالات قريش الذين نهى النبي ﷺ عن قتلهم في بدر كأبي البختري الذي كان له ضلع كبير في نقض صحيفة المقاطعة الظالمة، فقد روى ابن إسحاق، والطبراني، وابن سعد، والبيهقي في "الدلائل"

١. الفاقَة: الحاجة والفقر.

٢. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص١٠٩، ١١٠.

٣. قوي: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث كعب بن مالك الأنصاري ﷺ (١٥٨٣٦)، والطبراني في المعجم الكبير، باب الكاف، كعب بن مالك الأنصاري (١٧٤)، وقال عنه الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد: حديث قوي (١٥٨٣٦).

٤. سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج١، ص٢٥١.

٥. تَعتَوِره: تتداوله وتأتيه من كل جانب.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قد نهى عن قتل أبي البختري بن هشام بن أسد، كما نهى عن قتل رجال من بني هاشم منهم العباس بن عبد المطلب.

فليس في الأمر إذن محاباة للأهل والأقارب كما يزعمون، فقد كانت نفسه الشريفة ﷺ أسمى من ذلك وأرفع، وليس أدل على ذلك من رواية ابن عباس السابقة، فقد جاء فيها أن النبي ﷺ لم يوصِ ببني هاشم فقط، بل شملت وصيته غيرهم ممن خرج كرهًا، ويؤكد ذلك أيضًا أن أبا البختري الذي نهى النبي ﷺ عن قتله ليس من بني هاشم، ولا تربطه بالنبي ﷺ قرابة قريبة، وإنما هو السمو الخلقي والإنساني لمحمد ﷺ، والوفاء المحمدي حتى في ميدان القتال.

ثانيًا. تشدُّد النبي ﷺ في أخذ الفداء من عمه العباس وسائر بني هاشم:

أما عن زعمهم أن النبي ﷺ قد تساهل في أخذ الفداء من أقاربه الأسرى في بدر، فهو زعم لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه من الواقع. صحيح أن النبي ﷺ قد أخذته الشفقة على عمه العباس وهو يئنُّ في أسره كما روى ابن إسحاق: لما أمسى رسول الله يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثائق، بات النبي ﷺ أول الليل، فقال له أصحابه: ما لك لا تنام يا رسول الله؟ فقال: "سمعت أنين عمي العباس في وثاقه"، فأطلَقوه[1] فسكت، فنام رسول الله ﷺ[2].

ولكن رحمة النبي ﷺ بعمه العباس وهي رحمة شخصية لم تتعارض مع رحمته ﷺ بالكافة، ولا مع عدل النبي ﷺ، كما أنها لم تكن أبدًا على حساب واجبه، فلقد كان الواجب أولى، وأحرى بأن يؤثره على غيره[3]، لهذا نجد أن رحمة النبي ﷺ لم تختص بعمه العباس فحسب ولا بأقاربه فقط، بل شملت كل الأسرى، فلقد ذكرت كتب السير أنه ﷺ قد فرَّق الأسرى بين أصحابه، وقال: "استوصوا بالأسارى خيرًا"[4]. وفي هذا غاية الرحمة والإنسانية، حيث أوصى بأناس طالما عذبوه وأصحابه، وحاولوا فتنتهم عن دينهم، وقد نفذ الصحابة وصية رسول الله ﷺ بأمانة، وكانوا سمحاء كرماء معهم، فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يقول: "كنت في رَهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصُّوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني[5] بها، فأستحيي فأردّها، فيردّها عليَّ ما يمسها"[6].

عدم تساهل النبي ﷺ في أخذ الفداء من أقاربه:

على الرغم من تألم النبي ﷺ لألم العباس وهو في الأسر، إلا أن رحمته ﷺ بعمه لم تغلب على جانب العدل عنده، فالرحمة شيء والعدل شيء آخر؛ لهذا أبى ﷺ إلا أن يأخذ منه الفداء عن نفسه وعن ابني أخويه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه

١. أطلَقوه: فكُّوا قَيْده.

٢. السيرة النبوية، ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص٤٦٢.

٣. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص١٩٣، ١٩٤.

٤. إسناده حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، مسند من يعرف بالكنى من أصحاب رسول الله ﷺ (٩٧٧)، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٠٠٧)

٥. النَّفحَة: العَطِيَّة.

٦. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٣.

عتبة بن عمرو أحد بني الحارث بن فهر بمائة أوقية من الذهب، بل إنه لما قال للنبي ﷺ: إنه لا مال له، قال له: "فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: إن أُصبت في سفري فهذا لبني؛ الفضل، وعبد الله، وقثم"، فقال: والله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا شيء ما أعلمه إلا أنا وأم الفضل. ولما قال: إنه خرج مستكرهًا وإنه كان قد أسلم. قال له النبي: "الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك"[1]. وكذلك أبى أن يتنازل له الأنصار عن الفداء، ورُوي عن أنس بن مالك أنه قال: "إن رجالًا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أُختنا العباس فداءه، فقال: "لا والله، لا تذرون منه درهمًا""[2].

هذا غاية العدل والإنصاف في المعاملة، فرسول الله مع رحمته بعمه وشفقته عليه، وتخوفه أن يُقتل وهو يُرجى من ورائه للإسلام خير كثير، تأبى عليه نفسه السامية أن يفرق بينه وبين الأسارى في الفداء، أو أن يقبل أن يمنَّ عليه الأنصار؛ خشية أن يكون عملهم هذا لمكانه من رسول الله وقرابته[3]، على الرغم من أنهم ذكروا أنهم يريدون أن يمنوا عليه لا لكونه عم النبي، وإنما لأنه ابن أختهم، فقد كان الأنصار - وهم بنو النجار - أخوال أبيه عبد المطلب، فأمه سلمَى بنت عمرو من بني النجار، ولكنه كما سبق أن قلنا العدل والخلق المحمدي®.

ثالثًا. هل كان أبو العاص بن الربيع الأسير الوحيد الذي مَنّ عليه النبي ﷺ؟

كان أبو العاص زوج ابنة النبي زينب كما يقول ابن إسحاق: "من رجال مكة المعدودين مالًا وأمانة وتجارة، وكانت أمه هالة بنت خويلد، وكانت أخت خديجة بنت خويلد، وكانت خديجة هي التي سألت رسول الله ﷺ أن يزوِّجه بابنتها زينب، وكان لا يخالفها، وذلك قبل الوحي، وكان ﷺ قد زوَّج ابنته رقية من عتبة بن أبي لهب، فلما جاء الوحي، قال أبو لهب: اشغلوا محمدًا بنفسه، وأمر ابنه عتبة فطلق ابنة رسول الله ﷺ رقية قبل الدخول، فتزوجها عثمان بن عفان ﷺ، ومشوا إلى ابن العاص فقالوا له: فارقْ صاحبتك ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش شئت. قال: لا والله إذًا لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش. وكان رسول الله ﷺ يثني عليه في صهره"[4].

هذا هو حال أبي العاص بن الربيع مع النبي ﷺ ومع ابنته ترى هل يجازي النبي ﷺ وفاء أبي العاص له، وحسن معاملته لابنته والحفاظ على مصاهرته، ورفض اقتراح قريش بطلاقه زينب - رضي الله عنها - كما فعل عتبة بن أبي لهب حينما طلَّق رقية - رضي الله عنها - بالتنكر له، والتخلي عنه وقت محنته وأسْره، أم يطيب

1. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، ذكر إسلام العباس ﷺ واختلاف الروايات في وقت إسلامه (٥٤٠٩)، والبيهقي في سننه، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب ما جاء في مفاداة الرجال منهم بالمال (١٢٦٢٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في التلخيص.
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (٣٧٩٣).
3. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٠، ١٦١ بتصرف يسير.

® في "اجتهاد النبي ﷺ في أخذه الفداء من أسرى بدر" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

4. البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص ٣١٦.

خاطره، وخاطر ابنته التي أرسلت فداء لزوجها البار الطيب، وكان ضمن هذا الفداء قلادة لها، كانت لأم المؤمنين خديجة من قبلها، وقد أدخلتها بها على أبي العاص حين بَنَى بها؟ ألا يثير كل هذا في نفس النبي الرءوف الرحيم الودود ذكريات الزوج الرفيقة والرحم؟ ألا يسعى النبي ﷺ إلى إطلاق سراحه، والمنّ عليه، كما أطلق سراح غيره؟

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فحتى لا يقول أحد إن النبي ﷺ قد حابى زوج ابنته، ولكي لا يكون في نفس أحد من أصحابه ضيق أو حديث نفس، ولتطيب النفوس كلها جعل إطلاق سراحه للصحابة، فقال: "إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها؟ فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها"[1][2].

فلنتأمل كيف لم يستبد النبي ﷺ بالرأي وهو القائد وطاعته واجبة، بل جعل الأمر لأصحابه الذين أسروه؛ بل كان هذا الأمر بعد أن أرسلت زوجه زينب رضي الله عنها فداءه، فأين المحاباة والمجاملة للأقارب يا أصحاب العقول المنصفة؟

ومن ناحية ثالثة فلو افترضنا أن النبي ﷺ قد منَّ على زوج ابنته وأطلق سراحه دون استشارة الصحابة، فهذا أيضًا لا يُعدُّ محاباة منه ﷺ لذويه وأقاربه كما يزعمون؛

١. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٤٠٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب فداء الأسير بالمال (٢٦٩٤)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤١).

٢. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٢، ص٥٧٠ بتصرف.

فلم يكن أبو العاص بن الربيع الوحيد الذي منَّ عليه النبي ﷺ، فقد منَّ النبي ﷺ على المطلب بن حنطب بن الحارث من بني مخزوم، ومنَّ على صيفي بن أبي رفاعة بن عائذ من بني مخزوم، وممن منَّ عليه كذلك أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عثمان، وكان محتاجًا ذا عيال، وكذلك منَّ النبي ﷺ على كل من يُرجى منه خير للإسلام، أو كان يظن فيه الإسلام كسهيل بن بيضاء؛ فقد شهد له عبد الله بن مسعود بالإسلام، فقبل النبي ﷺ شهادته ومنَّ عليه[3].

كل هؤلاء وغيرهم قد منَّ عليهم النبي ﷺ وأطلق سراحهم دون أخذ فداء منهم، ولم يكن أحد منهم من بني هاشم أو أقارب النبي ﷺ، فهل يُستكثر على النبي ﷺ أن يمن على زوج ابنته الوفي البار، وهو لم يكن من الأثرياء، حتى اضطرت زوجه أن ترسل قلادتها في فدائه؟ ترى لو كان النبي ﷺ مجاملًا لأقاربه - كما يزعمون - فلماذا لم يمن على العباس وسائر بني هاشم وهم أقرب الناس إليه، بل تشدَّد في أخذ الفداء منهم - كما سبق أن ذكرنا - بينما منَّ على كثير من غيرهم؟

رابعًا. لقد كان النبي ﷺ هو القائد الأعلى لغزوة بدر والمخطط لها، وهو الذي أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه برعاية السيدة رقية رضي الله عنها، وقد قسم له النبي ﷺ من الغنائم كما قسم لكثير غيره ممن لم يشارك في المعركة:

أما عن زعمهم أن النبي ﷺ قد حابى عثمان بن عفان رضي الله عنه زوج ابنته رقية - رضي الله عنها - حين أمره بالإقامة في المدينة لتمريض زوجته، ثم قسم له سهمًا من

٣. المرجع السابق، ص٥٦٨، ٥٦٩.

غنائم المعركة، دون أن يشارك فيها - **فيمكننا أن نوضح بطلانه بذكرنا الحقائق الآتية:**

إن النبي ﷺ حينما خرج هو والمسلمون إلى بدر لم يكن يعلم أنه خارج إلى قتال قريش؛ إذ إنه خرج بالناس، وهو يقول: إن الله قد وعدني إحدى الحسنيين، إما العير وهي أموال التجارة، وإما المعركة التي تنتهي بالنصر، وخرج النبي ﷺ وهو لا يعلم أي الغرضين سيتحقق له، وخرج معه قلة من المسلمين، وتخلَّف عنه بالمدينة أقوام ليسوا بأقل حبًّا للنبي ﷺ من الذين ساروا معه، وإنما كل واحد منهم كان يتمنى أن لو يفديه بنفسه وماله وولده، ولكن النبي ﷺ خرج لغاية لم تكن معلومة له ولا لأحد من أصحابه، وإنما أخفاها الله ليجني المسلمون والإسلام نتائجها يوم الفرقان[1]، لهذا لم ينكر النبي ﷺ على من تخلف عن هذه الغزوة بدون عذر، وفي ذلك يقول كعب بن مالك ﷺ: "لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا غزوة تبوك، غير أني تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد"[2].

إن النبي ﷺ حين أمر عثمان بن عفان ﷺ للبقاء في المدينة، لم يكن خشية عليه من القتل، ولا للجلوس بجوار زوجته كما يزعمون، وإنما أمره النبي ﷺ بذلك ليمرِّض زوجته رقية بنت النبي ﷺ التي أصيبت بمرض الحصبة، ولزمت الفراش في الوقت الذي دعا فيه ﷺ للخروج لملاقاة القافلة، ولم يتوان عثمان ﷺ للخروج مع رسول الله ﷺ إلا أن المرض قد اشتد برقية - رضي الله عنها -، فأمره رسول الله ﷺ بالبقاء في المدينة لرعايتها[3]، ولم يكن هناك من يرعاها غيره.

وعليه فقد كان عثمان ﷺ في مهمة قد كلَّفه بها النبي ﷺ، والنبي هو القائد الأعلى للمعركة والمخطط لها، وقد تحمَّل عثمان ﷺ المسئولية إلى منتهاها، وتجرَّع وحده مرارة ألم مرض زوجته، ثم وفاتها فيما بعد عند عودة المسلمين منتصرين من بدر[4].

لم يكن عثمان بن عفان هو الوحيد الذي ردَّه النبي ﷺ يوم بدر ليمرِّض زوجته، بل كان النبي ﷺ يمنع كل مسلم له قريب مسلم مريض أو يحتاج إلى رعاية من الذهاب إلى المعركة، كما حدث مع أبي أمامة بن ثعلبة، فقد روى الطبراني أن أبا أمامة بن ثعلبة قال: إن رسول الله ﷺ أخبرنا بالخروج إلى بدر، وأجمع على الخروج معه، فقال لي خالي أبو بردة بن نيار: أقم على أمك يا ابن أخت، فقلت: بل أنت فأقم على أختك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فأمر أبا أمامة بالمقام"[5]. وهذا يرد دعوى محاباة النبي ﷺ لزوج ابنته عثمان ﷺ.

---

١. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق، ص٥٣٤ بتصرف يسير.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر (٣٧٣٥)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٧١٩٢).

٣. عثمان بن عفان: شخصيته وعصره، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٣٤، ٣٥ بتصرف.

٤. ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مرجع سابق، ص٥٣٦.

٥. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الألف، إياس بن ثعلبة أبو أمامة البلوي (٧٩٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الجنازة (٤١٤٨)، وقال: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

لو كان النبي ﷺ مجاملًا عثمان رضي الله عنه لأنه زوج ابنته، لكان أولى به أن يجامل علي بن أبي طالب، فهو أيضًا زوج ابنته فاطمة، فضلًا عن أنه ابن عمه، أو أن يجامل عمه حمزة كذلك، وهذا ما لم يكن بل كانا أول من اشترك في القتال من المسلمين يومئذ، فأين المجاملة والمحاباة للأقارب؟

أما عن إعطاء النبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه سهمًا من الغنائم كمن شهد المعركة، فيمكننا أيضًا أن **نجيب عليه في النقاط الآتية:**

- إن أمر الغنائم في بدر موكول إلى الرسول ﷺ يتصرف فيه كيفما يشاء، وقد أعطاه الله الحق في ذلك، إذ لما اختلف الصحابة في توزيعها، جعل الله الأمر للرسول ﷺ يقسمه كيف يشاء، ويدل على ذلك ما جاء عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه متحدثًا عن سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: "فينا ـ أصحاب بدر ـ نزلت حين اختلفنا في النَّفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمها على ما أراه الله من غير أن يخمسها"[1]، ويؤكد هذا "ما رواه عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة عن ابن عباس: أن المراد بالأنفال في هذه الآية الغنائم مطلقًا. وجعلوا حكمها هنا أنها جعلت لله وللرسول أي أن يقسمها الرسول ﷺ بحسب ما يراه، بلا تحديد ولا اطراد"[2]. وهذا خاص بغنائم بدر فقط، وعليه فلا توجد أي غضاضة في أن يقسم النبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه أو لغيره من غنائم هذه الغزوة ممن لم يشارك فيها.

- لم يكن عثمان رضي الله عنه الوحيد الذي لم يحضر المعركة مع النبي ﷺ وأسهم له النبي، فقد أسهم النبي ﷺ لغيره ممن لم يحضر الموقعة لعذر، وهم: أبو لبابة الأنصاري؛ لأنه كان مخلفًا على أهل المدينة، وعاصم بن عدي؛ لأنه خلفه الرسول ﷺ على أهل قباء والعالية، والحارث بن حاطب؛ لأن الرسول خلفه على بني عمرو بن عوف، والحارث بن الصمة وخوات بن جبير؛ لأنهما كُسرا بالروحاء، فلم يتمكنا من السير، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد؛ لأنهما أُرسلا يتجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب[3]، وكل من ذكرنا لم يكونوا أزواج بنات النبي ﷺ حتى يجاملهم!

- لقد كان عثمان بن عفان رضي الله عنه من أثرياء قريش المعدودين، فلم يكن بحاجة إلى أن يقسم له النبي ﷺ من الغنيمة في بدر، ولا يستطيع أحد أن ينسى أبدًا مواقفه العديدة التي بذل فيها الكثير من ماله من أجل المسلمين، وفي الجهاد في سبيل الله، كشرائه بئر رومة؛ فعندما قدم النبي ﷺ المدينة وجد أن الماء العذب قليل، وليس بالمدينة ما يستعذب غير بئر رومة، فقال رسول الله ﷺ: "من يشتري بِئر رُومَة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له في الجنة"؟[4] فاشتراها عثمان رضي الله عنه بخمسة وثلاثين ألف درهم، وجعلها للغني والفقير وابن السبيل، وكذلك شراؤه بقعة بجانب المسجد النبوي، لكي تُزاد في المسجد حتى يتسع لأهله بعد أن

---

1. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ج٥، ص٢٥٨: ٢٦١.
2. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج٥، ج٩، ص٢٥١.
3. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٢، ١٥٣ بتصرف.
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب في الشرب ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة معلقًا عنه به.

ضاق عليهم، وقال النبي ﷺ: "من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة"؟[1] فاشتراها عثمان ﷺ من صُلْب ماله بخمسة وعشرين ألف درهم، أو بعشرين ألفًا، ثم أضيفت للمسجد[2]. وغيرها من المواقف قبل غزوة بدر وبعدها. ومن ثم فإن إعطاء النبي ﷺ له سهمًا من غنائم بدر، إنما هو من باب التكريم له ﷺ، والمواساة له عن ترك الغزو مع النبي ﷺ وعن زوجته الفقيدة التي تجرع آلام فراقها، فهو بمنزلة وسام شرفي أو معنوي له ﷺ أكثر منه عطاءً ماديًّا؛ وقد عُدَّ عثمان ﷺ بهذا من البدريين باتفاق. وعليه فلم يحابِ النبي ﷺ ولم يجامل زوج ابنته كما يزعمون، ولكنه واسى أحد أصحابه، وهذا هو المنتظر من النبي ﷺ الشفيق الودود المحب لأصحابه، ولكن دون أن يغلب هذا الحب على جانب الواجب عنده.

الخلاصة:

- لقد كانت رحمة النبي ﷺ رحمة عامة لا تخص أشخاصًا معينين ولا قبيلة بعينها، بل كانت تشمل العالمين، وعلى الرغم من هذا فقد كانت لا تنال إلا من يستحقها، والمتأمل في موقف بني هاشم من النبي ﷺ ودعوته يجده موقف الذائد عن صاحب الدعوة المتحمل معه ومع أصحابه الآلام والأذى من قريش، ويكفي وقوفهم بجانبه وجانب المسلمين أثناء حصارهم في شِعب أبي طالب، فأراد النبي ﷺ الوفي الأمين أن يجازي إحسانهم هذا بإحسان مثله فنهى عن قتلهم كما نهى عن قتل غيرهم ممن أحسن إلى النبي ﷺ والمسلمين كأبي البخْتري بن هشام.
- لقد أوصى النبي ﷺ بفك قيود عمه العباس أثناء أسره رحمة به، ولكن هذه الرحمة لم تغلب على جانب العدل عنده، فلقد أبى النبي ﷺ إلا أن يأخذ منه الفداء عن نفسه وعن ابني أخويه وحليفه، كما رفض استئذان الأنصار في المنِّ عليه، على الرغم من أنه أخبره بإسلامه وأنه خرج مستكرهًا.
- لقد منَّ النبي ﷺ على كثير من أسرى بدر، فهل يستكثر على النبي ﷺ أن يمنَّ على زوج ابنته الذي أكرمها وحافظ على مصاهرة النبي ﷺ بعكس عتبة بن أبي لهب الذي طلَّق ابنته ليشغل النبي ﷺ بأهله؟
- لم يطلق النبي ﷺ سراح أبي العاص بن الربيع إلا بعد استشارة أصحابه، ولم يستبد بالرأي دونهم، وهو القائد المطاع وهذا يدل على عدل النبي ﷺ.
- لم يأمر النبي ﷺ عثمان ﷺ بالإقامة في المدينة مجاملة له، بل لرعاية زوجته المريضة السيدة رقية - رضي الله عنها - التي لم يكن هناك من يرعاها غيره، وقد كان هذا تكليفًا من رسول الله ﷺ قائد المعركة والمخطط لها.
- لم يكن عثمان بن عفان الوحيد الذي ردّه النبي ﷺ لرعاية أهله، فلقد ردّ النبي ﷺ غيره مثل أبي أمامة بن ثعلبة الذي أمره بالقيام على رعاية أمه.
- لو أراد النبي ﷺ مجاملة عثمان لأنه زوج ابنته لجامل علي، فهو أيضًا زوج ابنته وابن عمه.
- لقد جعل الله أمر غنائم بدر موكولًا إلى رسول

١. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان ﷺ (٣٧٠٣)، والنسائي في المجتبى، كتاب الأحباس، باب وقف المساجد (٣٦٠٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩٢١).

٢. عثمان بن عفان، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ص٤٨، ٤٩ بتصرف.

الله ﷺ يتصرف فيها كيفما يشاء، فقسمها بين أصحابه بالسواء، وأعطى بعض أصحابه ممن لم يشهد بدرًا بأمر من النبي ﷺ، ومنهم عثمان بن عفان ﷺ، ولم يختصه الرسول ﷺ بذلك دون غيره.

- لقد أراد النبي ﷺ أن يواسي عثمان بن عفان عن حزنه لتركه الجهاد معه ولوفاة زوجته، وهو من باب التكريم المعنوي لا المادي له؛ لأنه كان من أثرياء قريش، وكثيرًا ما بذل ماله من أجل الإسلام والمسلمين، فليس في الأمر محاباة ولا مجاملة له.

الشبهة العاشرة

الزعم أن النبي ﷺ كان غَلولا(*) (1)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن النبي ﷺ كان غلولا، ويستدلون على زعمهم هذا بأنه ﷺ كان يؤثر نفسه ببعض الغنائم ويخفيها عن المسلمين. وهم بذلك يطعنون في أخلاقه ﷺ.

وجه إبطال الشبهة:

لقد نَفَى الله عن نبيه شبهة الغلول، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (161) ﴾ (آل عمران:161)، ومع أنه كان في وسع النبي ﷺ أن يعيش عيشة المُترَفين، أو أن يأخذ ما شاء من الغنائم دون اعتراض أحد، لا سيما بعد كثرة الفتوح، إلا أنه لم يفعل، بل عاش عيشة خشنة شديدة، ثم مات ولم يورِّث دينارًا ولا درهمًا، فأين الغلول المزعوم؟!

التفصيل:

لو كان النبي ﷺ كما يقول هؤلاء، فأين نتيجة هذا في حياته وبعد موته؟

لقد اعتنى الله ﷻ بشخصية نبيه ﷺ، وحرص دائمًا على تأكيد عصمته وتنزيهه عن كل ما يشين من الأخلاق والسلوكيات، وفي هذا الإطار برَّأ الله ﷻ نبيَّه من أن يُظن به أنه كان غلولًا يخون أصحابه، فيأخذ من الغنيمة قبل حوزها يقول ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (161) ﴾ (آل عمران).

في بيان معنى هذه الآية نجد أن بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنها نزلت يوم أُحُد، وذلك أن الرماة لَمَّا أَخَلّوا في هذا اليوم بمراكزهم؛ خوفًا من أن تفوتهم الغنيمة، فلا يُصْرَف إليهم شيء، فبيَّن الله ﷻ بهذه الآية أن النبي ﷺ لا يجور في القسمة، فما كان من حق هؤلاء الرماة أن يتهموه.

وقيل أنها نزلت بسبب قطيفة حمراء فُقِدَت في المغانم يوم بدر، فقال بعض من كان مع النبي ﷺ: لعلَّ النبي ﷺ أخذها، فنزلت الآية. وقيل: كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنوا أن في ذلك حرجًا، وقيل: كانت من المنافقين، وقد رُوِي أن المفقود كان سيفًا.

وهذان القولان يُخَرَّجان على قراءة (يَغُل) بفتح الياء وضم الغين، وذلك على بناء الفعل للمعلوم، وثمة

(*) موسوعة القرآن العظيم، عبد العظيم الحنفي، مرجع سابق.

1. الغُلُول: الخيانة مطلقًا، وغلب استعماله خاصة في الخيانة في الغنيمة وأخذ شيء منها قبل القسمة، ولو قلَّ.

قراءة أخرى لهذا الفعل هي: يُغَل بضم الياء وفتح الغين، وذلك على بناء الفعل للمجهول، وتحتمل هذه القراءة معنيين: أحدهما: يُخَان، أي: يُؤْخَذُ من غنيمته، والآخر: يُخَوَّن فيُنْسَب إلى الغُلُول[1].

والنبي ﷺ مبرأ من هذا في كلا القراءتين، وليس أدلّ على براءته ﷺ ـ من الغُلُول ـ من أن يُنَزِّلَ الله ﷻ لتبرئته قرآنًا يُتلَى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وليس أدل على هذه البراءة كذلك من أنه ﷺ كان كثيرًا ما يؤثر غيره بنصيبه الشرعي الذي جعله الله له من الغنائم، فمثلًا عندما كان يقسِّم غنائم حنين، وكانت عظيمة جليلة لم يُصبْ المسلمون آنئذ مثلها، وكان للنبي ﷺ منها الخُمس ـ كما فرض الله ﷻ له ـ وكان مقداره يقرب من أن يكون خمسة آلافٍ من الإبل، وثمانية آلاف من الغنم، وثمانمائة أُوقيَّة فضة، ومع ذلك فإن النبي ﷺ حين وجد ازدياد طلب المسلمين للمال وازدحامهم عليه حتى نزعوا عنه رداءه؟ قال لهم: "يأيها الناس، ردوا عليَّ ردائي، فوالذي نفسي بيده، لو كان عندي شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا"، ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وَبَرة فقال: "أيها الناس، إنه ليس لي من الفَيء شيء ولا هذا" ورفع أصبعيه "إلا الخُمْس، والخمس مردود عليكم"[2][3].

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٤ ص٢٥٤، ٢٥٥ بتصرف.

٢. حسن: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال (٢٦٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤٣).

٣. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٤١٩، ٤٢٠.

وعن أنس بن مالك أنه قال: "كان النبي ﷺ لا يدَّخِر شيئًا لغد"[4]. أي: لا يدخر لمستقبله شيئًا من مأكول ومشروب، لسماحة نفسه، وسخاوة كفِّه، وثقته بربه، وهكذا الأخبار متواترة بجوده وكرمه ﷺ[5].

وكان جوده ﷺ كله لله، وفي ابتغاء مرضاته ﷻ: فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله ﷻ، وتارة يتألَّف به على الإسلام من يَقوَى به الإسلام، وكان يؤثر على نفسه وأولاده: فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كِسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء: فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع!

ولقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين وترك دَيْنًا فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالًا فلورثته"[6][7].

وينبغي أن لا نُغفل أنَّ النبي ﷺ لم يكن ممن يعجز عن أن يجمع إليه الدنيا بحذافيرها، بل كانت رهن إشارته، وها هي قريش قد عرضت عليه أعزَّ ثرواتها،

٤. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٣٦٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب من صفته ﷺ وأخباره (٦٣٥٦)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٣٠٤).

٥. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٢١. وانظر: محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٢٤.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: "من ترك مالًا فلأهله"، (٥٠٥٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب من ترك مالًا فلورثته (٤٢٤٢)، واللفظ للبخاري.

٧. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٢٦.

ولكنه ردَّ قائلًا: "هل ترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: ما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا لي منها شعلة"[1].

ولم يكن من العسير على محمد ﷺ ـ وقد دانت له جزيرة العرب كلها ـ أن يبني أفخر قصر، ويجمع إليه أجمل بنات العرب، وأفتن جواري الفرس والروم.

ولم يكن عسيرًا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينةـ ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه، فهل فعل محمد ﷺ ذلك بعد نجاحه؟ هل فعل محمد ﷺ ذلك في مطلع حياته؟ كلا، لم يفعله قط، بل فعل نقيضه، وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شَظَف العيش[2] في داره[3].

أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ طالما سعى إلى الفتح السِّلمي دون حروب، ودون غنائم، كما حصل في فتح مكة، وطالما حصل على غنائم ثم ردها لأصحابها بعد إسلامهم، كما حدث في غزوة حنين والطائف وبني المصطلق.

وكان من نصيب النبي ﷺ يوم بدر سيف كان سعد بن أبي وقاص قد اشتهاه وطلبه من النبي ﷺ قبل القسمة فأبى، فلما آل إلى النبي أعطاه لسعد، وقال له: "إنك سألتني هذا السيف وليس هو لي ولا لك، وإن

١. حسن: أخرجه البزار في مسنده، ج٢، مسند عقيل بن أبي طالب (٢١٧٠)، وأبو يعلى في مسنده، مسند عبد الله بن جعفر الهاشمي (٦٨٠٤)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢).

٢. شَظَف العيش: ضِيقه وشِدَّته.

٣. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٢٠١ بتصرف يسير.

الله قد جعله لي فهو لك"[4][5].

وهكذا أبى النبي ﷺ أن يعطي أحد المجاهدين سيفًا من الغنيمة لا يملكه، فلما آل إليه ﷺ سمحت به نفسه وجادت به يمينه. هذا وقد عُلم من حاله ﷺ أنه كان زاهدًا في الدنيا، متقلِّلًا منها، متحليًا بالطاعة، مستشعرًا العفاف والكفاف، مقتصرًا من نفقته وملبسه على ما تدعو إليه الضرورة.

لقد ضرب محمد ﷺ المثل الأعلى من نفسه، في فقره وغناه، وضعفه وقوته، ضربه ﷺ وهو محاصر مع أهله في شعب بني هاشم، وضربه وهو ملتجئ إلى المدينة، وهو يقيم دولة الإسلام فيها، وبعد أن أقامها، وبعد أن ملك الأموال والرقاب في جزيرة العرب كلها، فكان يهب هبات الملوك، فيعطي الغني، ويرجع إلى داره وفراشُه فيها الحصير، وطعامُه خبز الشعير[6].

لقد زهد النبي ﷺ في الدنيا لينال رضا الله في الآخرة، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خُبز حتى مضى لسبيله"[7].

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند سعد بن أبي وقاص (١٥٣٨)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في النفل (٢٧٤٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٣٧٨).

٥. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص٢٢٢.

٦. بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي ﷺ، عبد الرحمن عزام، مرجع سابق، ص٣١، ٣٢.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم وأسفارهم من الطعام واللحم وغيره (٥١٠٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٣٤)، واللفظ له.

وفي رواية: "ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ"[1].

وعن عائشة أيضًا قالت: "لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعًا قط، ولم يبث شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان يظل جائعًا، يلتوي طول ليلته من الجوع، فلا يمنعه من صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض، وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي له، رحمة مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع، أقول: نفسي لك الفداء، لو تبلَّغت من الدنيا بما يقوتك؟ فيقول: يا عائشة مالي وللدنيا؟! إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحي إن ترفَّهت في معيشتي أن يُقَصَّرَ بي غدًا دونهم، وما من شيء هو أحب إليَّ من اللحوق بإخواني وأخلائي، قالت: فما أقام عامًا بعدُ إلا شهرًا، حتى تُوفِّي ﷺ".

وحينما أعطت امرأة من الأنصار عائشة ــ رضي الله عنها ـ فراشًا حشوه صوف لينام عليه النبي ﷺ، رآه النبي فاستنكره، وقال: "يا عائشة، رُدِّيه، والله، لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهبوالفضة"[2].

فهذه نهاية أوصاف خاتم الرسل وسيد الأنبياء، صبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وشعاره: لا حول ولا قوة إلا بالله[3].

إن النبي ﷺ الذي دانت له شبه الجزيرة العربية، والذي يدّعي مثيرو هذه الشبهة أنه كان يؤثر نفسه ببعض الغنائم ويخفيها عن المسلمين، كان من أزهد الناس في الدنيا، فقد دخل عليه عبد الله بن مسعود، وقد قام ﷺ على حصير، وقد أثّر في جنبه الشريف، فقال له ابن مسعود: "يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا؟ فقال ﷺ: "ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكبٍ ظَلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها"[4].

إن رجلًا كمحمد ﷺ لا يمكن أن يكون طامعًا في دنيا الناس، فضلًا عن أن يكون غلولًا، إنه ﷺ قد ترفعت نفسه عن دنيا البشر، وكفاه من العيش ما يسدُّ فاقته، إذ قال: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا"، وقيل: كفافًا، أي: لا يزيد على الحاجة[5].

وخرج ﷺ ذات مرة من المسجد، فوجد أبا بكر وعمر، فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة"؟

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حلف أن لا يأتدم فأكل تمرًا بخبز ما يكون من الأدم (٦٣٠٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٣٥)، واللفظ له.

٢. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الوسط، باب الميم من اسمه محمد (٦٢٠٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حب النبي ﷺ، فصل في زهد النبي ﷺ وصبره على شدائد الدنيا (١٤٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٨٤).

٣. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٥٤، ١٥٥ بتصرف. موسوعة من أخلاق الرسول ﷺ، محمود المصري، دار التقوى، مصر، ط١، ١٤٢٨هـ، ص٤٢١، ٤٢٢ بتصرف.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٣٧٠٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤٠٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا (٦٠٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (٢٤٧٤)، واللفظ له.

قالا: الجوع يا رسول الله، قال ﷺ: "وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا"، فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسول الله ﷺ: "أين فلان"؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، فانطلق فجاءهم بعِذْق[1] فيه بُسْر[2] وتمر ورُطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدية[3]، فقال له رسول الله ﷺ: "إياك والحلوب"، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: "والذي نفسي بيده، لتُسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"[4]. فهذه هدية أُهديت إليه، ويخشى السؤال عنها يوم القيامة!

ومن صور زهده ﷺ أنه ذكر مرة في الصلاة أن في بيته تِبْرًا[5]، فخفَّف الصلاة فأسرع إلى التبر ففرقه على الفقراء؛ كراهة أن يبيت الذهب في بيته.

وأنه ﷺ كان يضع تسعين ألف درهم على حصير أمامه، فينفقها جميعًا، وكان يفترش الحصير حتى يؤثِّر في جنبه.

وأُخْبِرَ في مرض موته ﷺ أن في بيته سبعة دنانير، فأمر أهله أن يتصدَّقوا بها فنسوا لاشتغالهم بمرضه، وأفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته، فسأل عائشة ما فعلت بالسبعة دنانير؟ فأجابت: إنها لا تزال عندها، فطلبها ووضعها في كفه، ثم قال: ما ظن محمد بربه لو لقي الله ﷻ وعنده هذه؟ ثم تصدَّق بها على الفقراء.

وقد لقي الله في كِساء مُلبَّد[6]، وإزار غليظ هو لباسه الذي مات فيه، ولكنه خلَّف وراءه نورًا يشع من جبين القناعة والزهد، يهدي البشر إلى الحياة الطيبة، ويوجههم إلى ما هو أسمى من متاع الأبدان الزائلة، إلى متاع الأرواح الخالدة، ولا يزال رسول الله ﷺ في قناعته هذه وزهده هذا قدوة للناس جميعًا، يتطلعون إلى منتهى قصده فلا يدركون منه إلا قليلًا[7].

هذا والنبي ﷺ قد نهى عن الغلول والإسلال في قوله ﷺ: "لا إسلال ولا إغلال"[8]. أي: لا خيانة ولا سرقة، فهل يُعقل أن ينهى النبي ﷺ عن شيء ويأتيه، وإنها لعمري أعظم نقيصة نُزِّه عنها وعن مثلها الأنبياء.

الخلاصة:

- لقد نفى الله ﷻ عن النبي ﷺ شبهة الغلول، ودرأ عنه تهمتها، فقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ (آل عمران)، وقد أطبق

١. العِذْق: قِنْو النخلة.
٢. البُسْر: التَّمر في أول نُضجة.
٣. المُدية: السِّكين.
٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب جواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاة بذلك (٥٤٣٤).
٥. التِّبْر: الذهب غير المصوغ.
٦. كِساء ملبَّد: مصنوع من الصوف.
٧. بطل الأبطال، عبد الرحمن عزام، مرجع سابق، ص٣٢: ٣٨ بتصرف.
٨. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم ﭬ (١٨٩٣٠)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في صلح العدو (٢٧٦٨)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٠٤).

المفسرون على أن هذه الآية نص في تبرئة النبي وتنزيه شخصه الكريم عن هذه التهمة الشائنة.

- وليس أدَلّ على هذه البراءة مما صحَّت به الروايات من إيثاره ﷺ المسلمين بِقَسْمِه الشرعي من الغنائم، كما فعل في غزوة حنين وغيرها، كما أنه ﷺ كان يملك أن يأخذ من الأموال الواردة إليه ما شاء دون أن يعترض أحد، ولا سيما بعد كثرة الفتوح والغنائم، ولكنه ﷺ لم يفعل، بل عاش عيشة خشنة شديدة، وضرب المثل لكل من رآه أو سمع عنه بزهده ورفضه للدنيا التي كانت تحت قدميه بحذافيرها، كما قال لعائشة: "والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة"[1]. لكنه ﷺ لم يشأ، وإنما قال قولته الخالدة: "مالي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب ظَلَّ تحت شجرة، ثم راح وتركها"[2]. وقد فعل فإنه ﷺحين راح وتركها لم يترك خلفه دينارًا ولا درهمًا.

- هذه حقائق التاريخ ووثائق السيرة الثابتة، فأين الغلول المزعوم؟! بل أين رائحة حرصه ﷺ على شيء من الدنيا؟!

١. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم من اسمه محمد (٦٢٠٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حب النبي ﷺ، فضل في زهد النبي ﷺ وصبره على شدائد الدنيا (١٤٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٨٤).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٣٧٠٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤٠٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

الشبهة الحادية عشرة

اتهام النبي ﷺ بأنه كان فظًا غليظ القلب (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن النبي ﷺ كان فظًّا غَليظ القلب، ويستدلون على ذلك بأنه همَّ أن يطعن من اطَّلع في بعض حجراته بمِشْقَص[3]، ويتساءلون أليس من الوارد أن يكون هذا الرجل قد نظر بحُسْن نيَّة؟ أفلم يكن ينبغي لمحمد أن يُعْلمه حرمة هذه الفعلة بدلًا من الهمِّ بطعنه؟ ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في رحمة النبي ﷺ بما يتنافى مع كونه نبيًّا.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد دلت الشواهد العديدة على اتِّصاف رسول الله ﷺ بالرحمة، فقد وصفه الله ﷻ بالرأفة والرحمة فقال: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة)، ونفى عنه الغلظة، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

٢) لقد أراد النبي ﷺ أن يُعلِّم الرجل ويبيِّن له قبح ذنبه؛ فأغلظ له الوعيد ليزدجر ولينتهي عما أتاه من ذنب، وليس في الحديث دلالة على الغلظة والفظاظة، وإنما فيه حماية لحق الخصوصية ورعاية الحرمات، ونَهْي عن التجسُّس، ولا اعتبار لحسن النية؛ لأن الاطلاع على أسرار غيره وعوراته دون إذنه أمر تَسْتَقْبحه الفِطَر السليمة، والقَرائح المسْتقيمة.

(*) محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي، مرجع سابق.

٣. المِشْقَص: نَصْل السَّهم إذا كان طويلًا غير عريض.

التفصيل:

أولا. فُطِر النبي ﷺ على الرحمة بأمته:

لقد ضمن الإسلام حق الفرد في تأمين حرمة منزله، وأن يعيش فيه آمنًا مطمئنًا محفوظًا من تطفُّل المتطفلين، وفضول الفضوليين، وحَجَرَ على الآخرين أن يطّلعوا على ما فيه من خارجٍ أو يدخلوه من غير إذن صاحبه.

قال تبارك وتعالى في سياق الامتنان بنعمة المسكن على الإنسان: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (النحل: ٨٠)، وإنما سُمِّي مسكنًا لأنه محل الارتياح، والسكينة، والاطمئنان، والاستقرار، والأمان؛ فالبيت هو آخر ملاذ لصاحبه؛ فإذا فقد السكينَة فيه، فأين يذهب بعد بيته؟!

إن البيت كالحرم الآمن لأهله؛ لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم، في الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس، ولا يحلُّ لأحد أن يتطفل على الحياة الخاصة للأفراد بالاستنصات، أو التجسس، أو اقتحام الدور، ولو بالنظر من قريب أو بعيد بمنظار أو نحوه، وأما ما يدعيه بعضهم من فظاظة النبي ﷺ لشدته على المطّلع في بيته ﷺ دون علمه فلا وجه له ولا دليل عليه؛ لما عُلم عن النبي ﷺ من الرحمة والتربية القويمة.

إن النبي ﷺ مفطور على الرحمة بأمته، وقد دلت شواهد كثيرة على ذلك:

لقد نادى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ لما آذاه أهل الطائف فقال: "إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: "فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبينِ[1]، فقال له رسول الله ﷺ: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا"[2].

ولأن النبي ﷺ مفطورٌ على الرحمة بأمته، فقد قال فيه رب العزة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكأنه بربه تعالى يقول له: أنا أطلب منك الرحمة التي أودعتُها في قلبك فاستعملتها في كل مجال، وبهذه الرحمة لنت لهم، وبهذه الرحمة التفوا حولك، التفوا حولك لأدبك الجم، ولتواضعك الوافر، لجمال خلقك، لبسمتك الحانية، لنظرتك المواسية، لتقديرك كل الناس حتى إنك إذا وضع أي واحد منهم يده في يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو، كل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل تلك الهفوات، وليسعها خلقك، وليسعها حلمك؛ لأنك في دور التربية والتأديب، والتربية والتأديب لا تقتضي أن تغضب لأي بادرة تبدر منهم، وإلا ما كنت مُربِّيًا ولا مُؤدِّبًا.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، إنها رحمة طُبِعْتَ عليها يا رسول الله من

---

١. الأخشب: هو كل جبل خشن غليظ، والمقصود بالأخشبين: الجبلان المحيطان بمكة وهما: أبو قُبيس والأحمر.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى (٣٠٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥٤)، واللفظ له.

الحق الذي أرسلك، وبالرحمة لِنْتَ لهم، وظهر أثر ذلك في إقبالهم عليك وحُبهم لك؛ لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحدًا حولك[1].

"لقد كان ﷺ رءوفًا رحيمًا بأصحابه، يتعهّد حاضرهم، ويسأل عمن غاب منهم، ويسلِّم عليهم، ويُشَمِّت عاطسهم، ويواسي فقيرهم، ويعين ضعيفهم، ويشاركهم في السراء والضراء، ويعود مريضهم، ويشيّع ميتهم، ويكسو عاريهم، ويشبع جائعهم، ويراعي أراملهم وأيتامهم، ويجالس فقراءَهم والأعبُدَ منهم، ويحنِّكُ أطفالهم ويبارك عليهم، ويداعب صبيانهم ليدخل السرور على نفوسهم"[2].

وأما الحلم والاحتمال، والصبر على ما يكره، والعفو والصفح والإغضاء، فكل ذلك مما أدّب الله نبيه ﷺ به، قال له ﷻ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف)، وقال ﷻ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الشورى)، وقال ﷻ: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الشورى).

فلا عجب أن كان كالبحر العذب الذي لا يعكّره ما يُلقى فيه من أحجار، ولا تنزِفُه الدِّلاء، وما من حليم صبور إلا وقد عُرِفت عنه زلة، وحفظت عنه هفوة ما عداه ﷺ، لا يزيده كثرةُ الأذى إلا صبرًا، ولا إسرافُ الجاهل إلا حِلمًا، وما انتقم لنفسه قط، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله ﷻ فينتقمُ لله[3]®.

ثانيًا. لقد أراد النبي ﷺ أن يُعلِّم الرجل ويبيِّن له قبح ذنبه؛ فأغلظ له الوعيد:

لا ريب في أن هذا الوعيد العنيف من النبي ﷺ لهذا الرجل المتطفل كان ردعًا لهذا الرجل ولأمثاله، وذلك هو اللائق في مثل هذا الموقف، حسب ما تقتضيه التربية الحكيمة، وصدق القائل:

ووضعُ النَّدَى[4] في مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلا

مُضِرٌّ كوضعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

فالنبي ﷺ كان يشتد في دعوته لبعض الناس حسب ما يقتضيه الموقف والحال، وهذا تعليم إلهي؛ فقد قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (التوبة).

فكما أن التعليم يكون بالرأفة واللين، يكون كذلك بالشدة والغلظة، وقد ضرب رسول الله ﷺ بيده عائشة ذات مرة قائلًا لها: "أظننت أن يَحيف الله عليك ورسوله؟!"[5] مع أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: "ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه من شيء قط إلا أن تُنتهك حُرمَة الله، فينتقم لله ﷻ"[6].

---

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، مصر، ١٩٩١م، ج٣، ص١٨٣٧: ١٨٣٩ بتصرف.

٢. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٣٧.

٣. المرجع السابق، ص٦٤٦ بتصرف يسير.

® في **"حلم النبي ﷺ وعفوه عند المقدرة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء.

٤. النَّدَى: الجود والسَّخاء والخير.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٢٣٠١).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: "يسروا ولا تعسروا" (٥٧٧٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباعدته للآثام واختياره من المباح أسهله (٦١٩٥)، واللفظ للبخاري.

الغِلظَة - إذًا - مطلوبة في التربية والتقويم، وإلا ما شُرعت الحدود في الإسلام، ومعلوم أن الحدود أعنف من اللوم والشدة في الكلام، "ولكن من رحمته ﷺ بأصحابه، وبره بهم، ورأفته عليهم، أنه سأل الله ﷻ أن يجعل كل دعاء أو لعنة أو سَبة سبقت منه بحق أحد منهم زكاة ورحمة، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "أيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة"[1][2].

نعم، لقد كان النبي ﷺ في ذلك الموقف شديدًا عنيفًا، بيد أنه في شدته وعنفه لم يخرج عن جادَّة الأدب، ولم يعدل عن سَنَن الحق، ولم يصدف عن سبيل الحكمة، بل الحكمة تقتضي أن يشتدَّ مع هذا الرجل وأمثاله؛ لأنهم يستحقون الشدة، ومن مصلحة هؤلاء أن يشتدَّ عليهم ليرجعوا عن باطلهم، ويذعنوا لصوت الحق والرشد، ويسيروا على هدى سيرته ﷺ، وصدق القائل:

فَقَسَا لِيَزْدجِرُوا ومَنْ يَكُ حَازِمًا
فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

الحديث نصٌّ في حماية حق الخصوصية والنهي عن التجسُّس:

ونذكر في هذا الموضع نص الحديث الذي استدل به هؤلاء على زعمهم الباطل، ونص الحديث هو: "أن رجلًا اطَّلع في جحر في باب رسول الله ﷺ ومع رسول الله ﷺ مِدْرَى[3] يحُك به رأسه، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: "لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينيك، إنما جُعِل الإذن من أجل البصر"[4].

فليس في الحديث دلالة على الغلظة والفظاظة كما يزعمون، وإنما فيه حماية لحق الخصوصية ورعاية الحرمات، ونهي عن التجسس، وأما حسن النية فلا اعتبار له؛ لأن الفطر السليمة تستهجن الاطلاع على عورات الآخرين بدون علمهم.

فالحديث فيه مشروعية الاستئذان على من يكون في بيت مُغلق الباب، وَمَنْع التطلع عليه من خَلَل الباب، وأن الاستئذان لا يختص بغير المحارم، بل يُشرع على كل من كان منكشفًا ولو كان أمًّا أو أُختًا.

وفي بحث حول آداب الاستئذان يقول د. محمد إسماعيل المقدم: "تحريم النظر في البيوت بغير إذن أهلها": دلَّت الأحاديث الصحيحة على أنه يحرم على المستأذِن أن ينظر في بيوت الغير[5]، على حين غفلة منهم، دون أن ينتبهوا لوجوده؛ فيحتاطوا لذلك، منها:

- حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: اطلع رجلٌ من جحر في حُجْر النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مِدْرَى

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: "فمن آذيته فاجعله له زكاة ورحمة" (٦٠٠٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب من لعنه النبي أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلًا (٦٧٨١)، واللفظ له.

٢. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٣٧، ٣٣٨.

٣. المِدْرَى: ما يُعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط ويسرَّح به الشعر.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينيه فلا دية له (٦٥٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره (٥٧٦٤)، واللفظ له.

٥. سواء كان هذا من باب، أو جدار، أو شق في باب، أو ثقب في حائط، أو فروج في بيت، أو خيمة أو غير ذلك.

يَحُكُّ به رأسه، فقال: "لو علمتُ أنك تنتظر لطعنت به في عينيك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر"[1].

- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حل لهم أن يفقئوا عينه"[2]. وفي رواية أخرى: "من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم، ففقئوا عينه، فلا دية، ولا قصاص"[3].

- وعن أبي هريرة ﷺ أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: "لو أن رجلًا اطلع عليك بغير إذن، فحذفته[4] بحصاة، ففقأت عينَهُ ما كان عليك جناح"[5]. وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، أن النبي ﷺ قال: "لا يَحِلُّ لامرئ مسلم أن ينْظر إلى جوف بيت حتى يستأذِن، فإن فعل فقد دَخَلَ"[6].

- وعن مسلم بن نذير قال: استأذن رجُل على حذيفة ﷺ، فاطَّلع وقال: أَدْخُلُ؟ قال حذيفة ﷺ: "أما عينك فقد دخلت، وأمَّا اسْتُك ـ عَجُزُك ـ فلم تدخل"[7].

- وعن القعقاع بن عمرو قال: صَعِد الأحنف بن قيس فوق بيته، فأشرف على جاره، فقال: "سوءة! سوءة! دخلتُ على جاري بغير إذن، لا صعدت فوق هذا البيت أبدًا"[8][9].

ولقد نهى القرآن عن التجسس وذلك في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ (الحجرات:١٢)، قال الطاهر ابن عاشور: "والتجسُّس: البحث بوسيلة خفيَّة، وهو مشتق من الجسِّ، ومنه سمي الجاسوس.

والتجسُّس من المعاملة الخفية عن المتجسَّس عليه، ووجه النهي عنه أنه ضَرْبٌ من الكيد والتطلع على العورات، وقد يرى المتجسِّس من المتجسَّس عليه ما يسوءه، فتنشأ عنه العداوة والحقد، ويدخل صدره الحرج والتخوُّف بعد أن كانت ضمائرهما خالصة طيبة، وذلك من نكد العيش، وثَلْم[10] الأخوة الإسلامية؛ لأنه يبعث على إظهار التنكر، ثم إن اطلع المتجسَّس عليه على تجسس الآخر ساءه فنشأ في نفسه كره له،

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر (٥٨٨٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، تحريم النظر في بيت غيره (٥٧٦٤)، واللفظ للبخاري.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره (٥٧٦٨).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة (٨٩٨٥)، والنسائي في المجتبى، كتاب القسامة، باب من اقتص وأخذ حقه دون سلطان (٤٨٦٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٦).

٤. حذف: رمي.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه فلا ديه له (٦٥٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره (٥٧٦٩)، واللفظ له.

٦. صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب الاستئذان، باب النظر إلى الدور (١٠٩٣)، والطبراني في مسند الشاميين، حبيب بن صالح بن حبيب (١١١٣)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد(٨٣٥).

٧. صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب الاستئذان، باب النظر في الدور (١٠٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٣٤).

٨. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل، فصل في ذم بناء ما لا يحتاج إليه من القصور والدور (١٠٧٢٩).

٩. الأدب الضائع، د. محمد إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٨٥: ٩٠ بتصرف يسير.

١٠. الثَّلْم: الشَّق أو الكسر.

وانثملت الأخوة ثلمة أخرى كما وصفنا في حال المتجسِّس، ثم يبعث ذلك على انتقام كليهما من أخيه.

وإذا اعتُبِرَ النهي عن التجسس من فروع النهي عن الظن، فهو مقيد بالتجسس الذي هو إثم أو يفضي إلى الإثم، وإذا علم أنه يترتب عليه مفسدة عامة صار التجسس كبيرة، ومنه التجسس على المسلمين لمن يبتغي الضُّرَّ بهم"[1].

وعليه فلا ضير أن يهدِّد النبي ﷺ من اطلع عليه من خلل الباب دون إذنه هذا التهديد العنيف؛ لما في ذلك من أضرار ومفاسد؛ حماية للمسلمين ورعاية لحرماتهم، وحماية للمجتمع المسلم كله من الشحناء والبغضاء، على أننا نشير إلى أن النبي ﷺ لم يفقأ عين هذا المتلصِّص، وإنما شدَّد على الرجل ليعلمه قبح ذنبه وسوء عاقبته. فأين هي القسوة والغلظة التي يتحدثون عنها؟

الخلاصة:

- النبي ﷺ عفوٌّ حليم، صابر على ما يكره، يصفح عما يُغضِب؛ وذلك امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف)، وقوله ﷻ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الشورى:٤٠)، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الشورى)، فاجتمعت الخصال الكريمة فيه ﷺ، الحلم والعفو عن المسيء، فوسع حلمُه جفوةَ الأعراب وقسوتهم، ولم يزده إسراف الجاهلين إلا حلمًا وعفوًا، فكان ﷺ آلِفًا مألوفًا، يحسن عشرة أصحابه، يؤلِّفهم ولا ينفّرهم، يكرم كريم كل قوم، بشوش الوجه، كثير التبسم، رحب الصدر، بعيدًا عن الغلظة والفظاظة، نفى الله ﷻ عنه هاتين الخصلتين بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكان يخالط أصحابه ويمازحهم، ويداعب صبيانهم ويُجلسهم في حِجره، ولقد شهد التاريخ بحلمه ﷺ لما أُوذي من قومه وقال: "أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله"[2]. وكذلك عفوه عن أهل مكة عند فتحها لما قال: "لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"[3].

- إذا نظرنا إلى الحديث الشريف الذي استند إليه أصحاب هذه الشبهة ـ وهو حديث صحيح ـ نجد أنه ليس فيه أي وجه للطعن على رسول الله ﷺ واتهامه بالغلظة والفظاظة، لما عُلم عنه ﷺ من كريم الأخلاق وحميد الأفعال، فالنبي ﷺ لم يطعن الرجل الذي نظر إليه من ثقب الباب، بل أعلمه أن هذا حكم من ينظر في بيت غيره دون إذنه، وهذا تعليم من النبي ﷺ للرجل، وإن كان في صورة الوعيد؛ ليعلم الرجل قبح ذنبه وسوء عاقبته، وتتعلم الأمة تشريعًا جديدًا، يحمي حق الخصوصية، بحيث يأمن جميع الناس في

---

١. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مج١٢، ج٢٦، ص٢٥٣، ٢٥٤.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى (٣٠٥٩)، ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين (٤٧٥٤).

٣. حسن: أخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب التفسير سورة الإسراء (١١٢٩٨)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب السير، باب فتح مكة حرسها الله تعالى (١٨٠٥٤)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٧٦).

بيوتهم وعلى محارمهم من أعين المتلصِّصين وآذاهم، خاصة وأن مثل هذه الأفعال تنكرها الفِطَر السليمة والنفوس المستقيمة، حتى قال من لا يعرف الإسلام:

وأَغضُّ طَرْفِي إنْ بَدَت لِي جَارَتِي

حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

الشبهة الثانية عشرة

الزعم أن النبي ﷺ كان مؤذيًا لمن حوله مولعًا بسفك الدماء(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أنَّ النبي ﷺ لم يَسْلم مَنْ خالطه من أذاه، إذ كان مولعًا بسفك دماء الناس بحق أو بغير حق، ويدَّعون أنه ﷺ قتل بيده، ويمثِّلون لذلك بقتله ﷺ أُبَيَّ بن خلف في غزوة أُحد بحربته، ويتساءلون: أهكذا تكون أخلاق الأنبياء؟ ويرمون من وراء ذلك إلى اتِّهامه ﷺ بسفك دماء الناس دون وجه حق، وتغليب جانب الشَّرِّ فيه على جانب الخَيْر.

وجوه إبطال الشبهة:

١) كان ﷺ رحمةً للصغير والكبير، والقريب والبعيد، والصديق والعدو حتى الحيوان؛ فعطفه وحسن خلقه شمل كلَّ من حوله وما حوله.

٢) كان النبي ﷺ أحلم الناس، وأرغبهم في العفو عند المقدرة، صابرًا على من آذوه، وكارهًا لإراقة الدماء، وهذا ما تؤكده سيرته العطرة.

٣) لقد صبر النبي ﷺ على أُبَي بن خلف صبرًا طويلًا على الرغم من أنه آذى النبي ﷺ وأصحابه كثيرًا وهدَّده بالقتل أكثر من مرة، ولم يقتله ﷺ إلا بعد أن سعى هو لقتله في أُحُد قائلًا: "لا نجوتُ إن نجوتَ يا محمد".

٤) كان قتل النبي ﷺ أُبيًّا دفاعًا عن نفسه، ولا شيء في ذلك، ثم إنه ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل في هذا الأمر؛ فقد قتل موسى عليه السلام بيده قبطيًّا، وقتل داود جالوت بمقلاعه. فلماذا يُنكرون على النبي ﷺ ويقرُّون ما فعل إخوانه الأنبياء قبله، وهذه كتلك؟!!

التفصيل:

أولا. لقد شملت رحمة رسول الله ﷺ كلَّ من حوله وما حوله:

لقد كان النبي ﷺ برًّا رحيمًا، وقد وسعت رحمته ﷺ كل من حوله، تلك الرحمة التي وصفه الله ﷻ بها في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

يقول صاحب كتاب "بطل الأبطال": إنّ جانبًا عظيمًا من جوانب شخصية محمد ﷺ هو جانب رحمته وبره، ذاك الجانب الذي لا يُدانيه فيه أحد، وهو صورة لنفسه الكريمة في أيام فقره وغناه، وضَعْفه وقوته، فقد كان البر إمامه، والرحمة محيطة به، وهو القائل: "إن البر يهدي إلى الجنة"[1]، "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا

(*) أخطاء القرآن، موقع الكلمة.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (التوبة) (٥٧٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٦٨٠٣).

من في الأرض يرحمكم من في السماء"[1]، "ولا يرحم الله من لا يرحم الناس"[2]، "ولا تُنْزع الرحمة إلا من شقِيٍّ"[3]، وقد وصفه القرآن بهذه الصفة، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ (التوبة).

وكانت رحمته ﷺ تَسَعُ الناس جميعًا، وكان برُّه يصل إلى المؤمنين والمشركين، وكان الفقراء والضعفاء أقرب الناس إلى قَلْبه الكبير، وعَطْفه الشامل، وبلغ حبه الفقراء أن دعا الله أن يبقى فيهم حيًّا وأن يحشر معهم ميتًا، روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه كان يقول: "اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين"[4].

وإذا ما استأْذنا في الدخول إلى بيت النبي ﷺ لنَسْأل عنه زوجاته وهن أعرف الناس به، كان الجواب من السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: "كان خلقه القرآن"[5]، أو كان قرآنًا يمشي على الأرض ﷺ، فأخلاقه كاملة ككمال القرآن، فهل يطعنون في القرآن وتمثيله لأخلاق المسلم ؟! أم في تمثيل النبي ﷺ تلك الأخلاق خير تمثيل؟! وهو الذي ما نَهَر أحدًا طول حياته، لا خادمه، ولا زوجته، ولا أحدًا من أتباعه؟! حتى أعداؤه، الذين آذوه إيذاءً بالغ الشدة، كان يقابل إيذاءهم بالعَفْو عنهم، والدعاء لهم.

ومع هذا كله كان ﷺ يتهم نفسه بالتقصير، ويدعو الله ﷻ أن يرحم كل من صدرت منه إساءة إليه بدون قصد منه أو علم، يقول ﷺ: "اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتَّخذت عندك عهدًا لن تُخْلِفَنِيهِ، فأيُّما مؤمن آذيته أو سببته، أو جلدته فاجعلها له كفارة وقُربَة تُقَرِّبه بها إليك يوم القيامة"[6].

لقد عمل محمد ﷺ بما آتاه الله، وما أودع فطرته من الرحمة، فاجْتهد لرفع شأن الفقير وإكرامه، والأخذ بيد الضعيف، وأرسل برَّه في هذه الطبقة، حتى قلَب نظام المجتمع الذي ظهر فيه في سنين قليلة، وجعل من الفقراء المستضعفين أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد، كما كان ﷺ يقول: "ابغوني ضعفاءكم،[7] فإنما

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب رحمة المسلمين (١٩٢٤)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب السير، باب ما على الوالي من أمر الجيش (١٧٦٨٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ (الإسراء: ١١٠) (٦٩٤١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه (٦١٧٢).

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٧٩٨٨)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب ارحم من في الأرض (٣٧٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٦٧).

٤. حسن: أخرجه عبد بن حميد في مسنده، من مسند أبي سعيد الخدري (١٠٠٢)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء (٤١٢٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٨).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٣٤١)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب من دعا الله أن يحسن خلقه (٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١).

٦. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا (٦٧٨٧).

٧. ابغوني ضعفاءكم: اطلبوا رضاي بتقرُّبكم إليهم.

تُرْزقون وتُنْصرون بضعفائكم"[1]. وكان يسرُّه أن يجتمعوا إليه، وطالما سخرت قريش منه لحفاوته بالمساكين، وذهابه بهم إلى الحرم، فقالوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟

وكانت رحمته وبرُّه بالمساكين تمتد إلى ما بعد الموت، جاء عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ذكر ذات يوم رجلًا أسود، فقال: "ما فعل ذلك الإنسان"؟ قالوا: مات يا رسول الله، قال: "أفلا آذنتموني"؟ فقالوا: إنه كان كذا وكذا قصته، فحقروا من شأنه، قال: "فدلُّوني على قبره، فأتى قبره، فصلَّى عليه"[2].

وكان ﷺ يجاهد لتحرير العبيد، ولرفع قيمتهم، فلم يدخر مالًا، ولا سلطانًا ولا دعوة في سبيلهم، وكانت نفسه تفيض بالرحمة عليهم والبر بهم، وأظهر مَثَلٍ ما كان منه مع مملوكه زيد بن حارثة، الذي خُيِّر بين سيِّده محمد ووالده، فاختار محمدًا في الوقت الذي كان لا حول له فيه ولا قوة، بل كان موضع أذى قريش وسخريتها، وهو الذي جعل معتوقه زيدًا هذا، القائد الأعلى للمهاجرين والأنصار حين وجههم لغزو الروم، فاستشهد في وقعة مؤتة، ولما استأنف النبي غزو الروم بعد الفتح أمَّر شابًا ابن رقيق، هو أسامة بن زيد هذا، وهو حَدَثٌ في العشرين، ومشى أكابر الصحابة وأشراف قريش والنبي ﷺ في موكبه.

أرأيتم إذن كيف رفع برحمته وبره شأن الأرِقَّاء المستعبدين؟

وكان بارًّا بالخدم والعمال من ذلك ما يأتي:

روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إذا أتى أحدَكُم خادمُه بطعامه، فإن لم يجلس معه فليناوله لُقمة أو لقمتين"[3]. وقال معاوية بن سويد: كنا بني مُقرِّن على عهد رسول الله ليس لنا إلا خادم واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك النبي فقال ﷺ: "أَعْتقوها"، فقيل: ليس لهم خادم غيرها، قال: "فليستخدموها، فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها"[4].

وعن أبي مسعود البدري قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي "اعلم أبا مسعود"، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: "اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود"، قال: فألقيت السوط من يدي، فقال: "اعلم أبا مسعود أن الله أَقْدَرُ عليك منك على هذا الغلام"[5].

وبلغ من رحمة محمد ﷺ أنه كان لا يطيق أحدًا يقول: عبدي أو أمتي، فأمر المسلمين أن يكفُّوا عن ذلك، وأن يقولوا: فتاي وفتاتي، وقد كان لهذه التربية أحسنُ الأثر في تحرير الأرِقَّاء، ونَشْر المساواة، وتغليب روح الأخوة

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، باقي حديث أبي الدرداء (٢١٧٧٩)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة (٢٥٩٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٧٩).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر بعد ما يدفن (١٢٧٢)، وفي موضع آخر.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب إذا أتاه خادمه بطعامه (٢٤١٨)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (٤٤٠٧) بنحوه.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (٤٣٩١).

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (٤٣٩٦).

على ما كان من العصبية، والغرور، والتفاخر.

يقول المعرور بن سويد: رأيت أبا ذر وعليه حُلَّة، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، فذكر أنه سابَّ رجلًا على عهد رسول الله ﷺ فعيَّره بأمه، قال: فأتى الرجل النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: "إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خَوَلُكُمْ جعلهم الله ﷻ تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه"[1].

وقال أنس: "خدمتُ رسول الله عشر سنين، والله ما قال لي أفًّا قط"[2]. وكان ﷺ يخالط المساكين والخدم والعبيد، ويحادثهم ويجيب دعوتهم، ويعود مرضاهم، ويمشي في جنائزهم، ويصلي عليهم، وقد جعلت الشريعة المحمدية نصيبًا في بيت المال لتحرير الأرقاء، وكان يعطي العبد بعد تحريره شيئًا يعينه على الكسب.

رحمته بالأطفال:

هذه الرحمة كانت تَظْهر أُنسًا وبِشْرًا في وجهه إذا رأى الطفل، أو لقي الصبي، فقد كان يأخذ أطفالَ أصحابه بين ذراعيه، ويَطْرب لذلك، وكان إذا مر بالصِّبْيَة يقرئهم السلام.

وحدث أبو قتادة قال: "خرج علينا النبي ﷺ، وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها"[3].

وقال أسامة بن زيد: "كان رسول الله يأخذني فيُقْعِدُني على فَخِذه، ويُقْعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمُّهما، ثم يقول: اللهمَّ ارْحَمْهما فإني أرْحمُهما"[4].

وقد حدث أن عجب بعض الأعراب من رسول الله ﷺ وهو يقبِّل أولاده وأولاد أصحابه، فقال: تُقبِّلون الصِّبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: "أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة"[5].

وهذه الرحمة في نفس محمد ﷺ كما كانت تبدو بِشْرًا وأُنْسًا، كانت تَفِيض دمعًا وأسًى، وكان جفاة القوم يسْتَعْظمون هذه عليه، فكان يبين لهم أنها رحمة، وأنه لا عَيْب فيها.

لم يكُن رسول الله ليَقْصر رحمته وبره، الذي هو صورة صادقة لنفسه الكريمة، على النَّاطقين من بني الإنسان، فإن هذه الرحمة ملكت مشاعره، وحفَّزته لكفاح موفق في سبيل الرفق بالحيوان، فكم كان للعرب من عادات مرذولة أنكرها وأزالها، وأخذ النبي يرغبهم في الرفق به، ويرهبهم من القسوة عليه.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (٤٤٠٥)، واللفظ له.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٩١)، مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله أحسن الناس خلقًا (٦١٥١)، واللفظ له.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة (١٢٤١).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ (٥٦٥٧).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٦١٦٩)، واللفظ للبخاري.

ومن مظاهر رحمته ﷺ بالأعداء:

هذه الرحمة بالكبير والصغير لم تكن خاصة بأتباعه المؤمنين، بل كانت شاملة لأعدائه المشركين والمخالفين من أهل الملل الأخرى، فقد رُفع إليه بعد إحدى الوقعات أن صِبْية قُتلوا بين الصفوف، فحزن حزنًا شديدًا، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: مرَّت بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ وقمنا، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي، فقال: "إذا رأيتم الجنازة فقوموا"[1].

تلك هي الرحمة التي لا تعرف التخصيص بالدين أو الوطن، ولا فرق عندها بين الرفق بالإنسان والحيوان.

ولما مات عبد الله بن أُبي بن سلول ـ وكان زعيم المنافقين في المدينة، وهو الذي رجع بمن تبعه من الطريق يوم أُحُد، فخذل النبي ﷺ في أحرج أوقاته، وله مواقف مشهورة كان فيها شرًّا على الرسول والمسلمين ـ طلب ابنه من النبي ﷺ قميصه ليكفنه فيه؛ تطهيرًا له، فأعطاه قميصه كفنًا لزعيم المنافقين، أرأيت أبر وأكرم من هذا الصنيع؟

ثم مشى النبي ﷺ إلى قبره، فوقف يريد الصلاة عليه، فوثب إليه عمر بن الخطاب ﷺ، وقال: "يا رسول الله، أتُصلِّي على ابن أبي، وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا؟! أعدد عليه قوله، فتبسَّم الرسول وقال: "أخِّر عني يا عمر"، قال عمر: فلما أكثرت عليه قال: "إني خُيِّرت فاخْترت، لو أعلم أني لو زِدت على السبعين غُفر له لزدت عليها"، فصلَّى عليه الرسول ﷺ ثم انصرف[2].

وذلك إشارة إلى قوله ﷻ في المنافقين: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٨٠)، ففي الخيار بين أن يستغفر وألا يستغفر، نزعت به طبيعته الرحيمة إلى الاستغفار لأعدائه، بل قال لعمر: "لو علمت أني لو زدت في الاستغفار على السبعين غُفِر لهم، لفعلت أكثر من سبعين مرة".

تلك هي الرحمة التي وسعت أعداءه وأصدقاءه، والناس جميعًا، وسمع مرة أعرابيًّا يصلي خلفه، يقول: اللهم ارْحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا، فلما سلَّم النبي ﷺ قال للأعرابي: "لقد حجَّرت[3] واسعًا"[4].

فمن هذا وغيره ـ مما سقناه من الأمثلة على امتلاء نفسه بالرحمة ـ يتَّضح أنه ﷺ لم يكن نتاجًا للبيئة التي عاش فيها، وإنما كان الرحمة الشاملة في وسط الجفوة والعصبية والأثرة، تلك الرحمة التي لا حدَّ لها هي التي جعلته يدعو لأعدائه، وقد سُئل الدعاء عليهم في أُحِدٍ وهو جريح، وعمه حمزة ممثَّل به، وأنصاره بين القتل والجرح والتشريد، وهي التي جعلته يدعو لثقيف يوم الطائف، وقد امتنعت عليه. وتلك الرحمة هي التي جعلته يفتح لتجارة قريش طريق اليمامة، وطريق الشام، وقد سألوه صِلَة الرَّحم، وشكوا جوع أهليهم، وهم الذين أخرجوه من داره وحصروه في المدينة.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٢٢٦١).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين (١٣٠٠).

٣. حَجَّر: ضيَّق.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٤).

فرحمتُه وبرُّه ﷺ وسعتا العدو والصديق، والقوي والضعيف، والحيوان والإنسان، وفاض بها قلبه الكبير، فكانت في فمه بشرًا، وفي عينه دمعًا، وفي يده جودًا.

تلك الرحمة التي وسعت الجميع هي أبرز صفات محمد ﷺ، وهي التي يتسابق الأبطال إليها، فيَرِدُّون عن هذا المدى، ويبقى رسول الله ﷺ المثل الكامل، والقدوة العظمى، وحقًّا كان كما قال عن نفسه: "إنما أنا رحمة مهداة"[1]. وكما قال القرآن الكريم له: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء)[2] ®.

ثانيًا. إن المتصفِّح لسيرة النبي ﷺ يجده أحلم الناس، وأرغبهم في العفو عند المقدرة، وهو في ذلك صابرٌ على من آذوه، كاره لإراقة الدماء:

لقد كان النبي ﷺ يَحْبِس نفسه عن الأذى، ويصبر على ما يشقُّ ويَكره، ولا يزيد مع أذى الجاهل عليه إلا صبرًا وحلمًا، ولم يُؤاخذ الذين كسروا رَباعيته[3]، بل دعا لهم وعفا عنهم، وكم عفا عن مثلهم، وتجاوز عما بدا من المنافقين في حقه ﷺ قولًا وفعلًا، ولم يقابل من شتمه ولا من أراده بسوء، طولًا وفضلًا منه ﷺ.

وحسبك معاملته ﷺ لأهل مكة حين الفتح فقد قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء! والكل يعلم ما فعل أهل مكة به ﷺ.

وحدَث أنه لما كان المصطفى يقسم بعض الغنائم يوم خيبر قال له رجل: يا محمد، اعدل، فقال له المصطفى: "ويلك، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل"، فقال مر: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال: "مَعاذ الله أن يتحدَّث الناس أني أقتل أصحابي"[4].

وقَسَم رسولُ الله ﷺ قسمةً، فقال رجل هذه قِسْمَة ما أُريدَ بها وجهُ الله، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فاحمرَّ وجهه وقال: "رحم الله أخي موسى! قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر"[5].

ومن محاسن أخلاقه ﷺ: ضبط النفس والرشد والعفو عند المقدرة، ومن ذلك:

ما رُوي عن سنان بن أبي سنان الدُّؤلي عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أخبره أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قَفَل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة[6] في وادٍ كثير العِضاه[7]، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العِضاه يستظلون بالشجر، ونزل

---

١. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، باب ما أعطى الله تعالى محمدًا ﷺ (٣١٧٨٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٠).

٢. بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ﷺ، عبد الرحمن عزام، مرجع سابق، ص ٥٩: ٦٥ بتصرف.

® في "تسامح النبي ﷺ وعفوه عند المقدرة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، والوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة السادسة عشرة، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة الخامسة والثلاثين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

٣. الرَّباعيَّة: مقدمة الأسنان.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٢٤٩٦)، واللفظ له.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب ما كان للنبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم (٣٢٢٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (٢٤٩٤)، واللفظ للبخاري.

٦. القائلة: وقت القَيلُولة.

٧. العِضاه: كل شجر عظيم له شوك.

رسول الله ﷺ تحت سَمُرَة[١] فَعَلَّق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: "إن هذا اخترط سيفي[٢] وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صَلْتًا، فقال لي: مَنْ يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس". ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[٣].

ومن الأحداث المماثلة: أن يهودية ـ هي زينب بنت الحارث بن سلام ـ وضَعَت سُمًّا للنبي ﷺ في شَاة وقد اعْترفت بذلك، فصفح عنها وعفا عنها بعد اعترافها؛ لأنه كان لا يَنْتصر لنفسه، ثم قتلها قصاصًا لمن مات من أصحابه بأكله من هذه الشاة، كبشر بن البراء الذي مَرِض من هذا السم حتى مات بعد سنة.

كذلك لم يُؤاخِذ النبي ﷺ لَبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحره، وأعلم الله نبيه بالوحي، أو من طريق جبريل عليه السلام الذي أخبره بأنه سحره، وأبان حاله، فلم يعتب عليه، أي أعرض عن معاتبته، فَضْلًا عن معاقبته، بل إنه ﷺ قال لمن أشار عليه بقتل بعض من ارتكبوا منكرًا من الأقوال والأفعال في حقه ﷺ: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي"[٤][٥].

١. السَّمُرَة: نوع من أنواع شجر الطلح.

٢. اخترط السيف: نزعه من غِمده.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٣٩٠٥، ٣٩٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توكله على الله وعصمة الله تعالى له من الناس (٦٠٩٠)، واللفظ للبخاري.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٢٤٩٦)، واللفظ له.

٥. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١١٣، ١١٤ بتصرف.

إن رجلًا بهذا العفو وذاك التسامح لا يمكن أن يكون أبدًا سفاكًا للدماء؟!!

وكان من حُسْن خلقه ﷺ تريُّثه عند لقاء العدو: "فإنه كان يتذرَّع بالصبر، ويَلْتزم بالأناة، ولا يُعاجل عدوَّه بالضَّرْب حتى تظهر قوته، وكان يقول لجنوده لا تُقاتلوهم، حتى تدعوهم، فإن أَبَوْا، فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم فإن بدءوكم، فلا تُقاتلوهم حتى يَقْتلوا منكم قتيلًا، ثم أَرُوهم ذلك، وقولوا لهم هل إلى خير من هذا سبيل؟ فلأن يهدي الله على يديك رجُلًا واحدًا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت"[٦].

وبهذا يَظْهر أن النبي ﷺ لم يكن يبادر في إهدار الدماء، بل كان يدعو أعداءه إلى الحق حتى يبادروا هم، فإن بادروا فلا مناص من استِعْمال السيف، ومن حُسْن أخلاقه ﷺ أنه كان متمسكًا بالفضيلة وإن جافاها العدو، وكانت تَصْدُر في صورة أقواله ومواقفه في الحروب.

فهو لا يُقاتل إلا من حَمَل السيف فقط، ويأمر جنوده بالعِفَّة التي لا يحدُّها حدٌّ، والعفة التي ترقى بصاحبها إلى درجة الملائكة، فلا يعرف الجندي المسلم الإسفاف أو التردِّي إلى حضيض الحيوانية، ولا يقبل أن يكون وحشًا ضاريًا، إنما يمارس الحرب هاديًا مهديًّا، متأسيًا بنبيه ورسوله الهادي إلى صراط مستقيم، حتى إذا مات ذهب إلى الله تبارك وتعالى راضيًا مرضيًّا"[٧].

تِلْك أخلاقه ﷺ التي لا ينكرها إلا جاحد أو حاقد،

٦. الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع كفافي، دار الفتح، مصر، ٢٠٠٥م، ص٣٦٣.

٧. المرجع السابق، ص ٣٦٦.

فالرسول كان أشدَّ الناس حرصًا على النفوس، وعلى عدم إراقة نقطة دم واحدة، وقد ظهر ذلك جليًّا يوم الفتح الأكبر فقد عفا عمن ظلموه، وأخرجوه من بلده تاركًا ماله وأهله، إلى أن نصره الله وأعزَّه بالفتح المبين، فلم يفعل الرسول ﷺ ما فعله المشركون به وبأصحابه، بل قال لهم: "﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ (يوسف)"(١).

وقد ظهرت دلائل رحمته وحسن خُلُقه ﷺ قبل ذلك يوم عَفْوه عن أسرى بدر، وقبوله رأي أبي بكر رضي الله عنه ورفضه رأي عمر رضي الله عنه بقتل الأسرى، ورضي النبي ﷺ بالعفو، وعدم إراقة الدماء، وما ذلك إلا لكراهة النبي ﷺ إراقة الدماء، تلك أخلاق النبي ﷺ التي لا يكاد يُنكرها منصف®!

ثالثًا. لم يقْتل النبي ﷺ أُبَي بن خلف - الذي تهكَّم عليه وتوعَّده بالقتل - إلا دفاعًا عن نفسه ﷺ:

قد كان أُبي بن خلف من مشركي قريش الذين آذوا النبي وتهكَّموا عليه، وتوعدوه بالقتل، ونذكر أن أُبي بن خلف ذهب إلى رسول الله ﷺ بعَظْم بال قد أَرَمَّ، فقال: يا مُحمّد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أَرِمَ(٢)، ثم فتَّه بيده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله، فقال له: "نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله، وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار"(٣). وقد نزَّل الله عز وجل فيه قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ (يس).

تلك كانت مجادلة أُبي بن خَلَف للنبي ﷺ، ولم يكتف أبي بالمجادلة، والإعْراض والسُّخْرية، بل زاد على ذلك بتوعد النبي ﷺ بالقتل.

قال ابن كثير: "عن عروةَ بن الزبير قال: كان أُبي بن خَلَف أخو بني جُمَح، قد حَلَف - وهو بمكة - ليَقْتُلَنَّ رسولَ الله ﷺ، فلما بَلَغَتْ رسول الله ﷺ حَلْفتُه قال: "بل أنا أقتلُه إن شاء الله"(٤)، فلما كان يومُ أُحُد أقبل أُبَي في الحديد مُقَنَّعًا، وهو يقول: لا نَجوتُ إن نجا محمدٌ، فَحمَل على رسول الله ﷺ يريدُ قَتْله، فاستقبله مُصعبُ بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقُتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ تَرقوةَ(٥) أُبي ابن خَلَف من فُرجةٍ بين سابغةِ الدِّرع والبيضة، فطَعَنه فيها

١. حسن: أخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب التفسير، باب سورة الإسراء (١١٢٩٨)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب السير، باب فتح مكة حرسها الله تعالى (١٨٠٥٤)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٧٦).

® في **"رأفة النبي ﷺ ورحمته وحلمه بالناس أجمعين"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، من هذا الجزء.

٢. أَرِمَ: فَنِي.

٣. صحيح: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، كتاب نصر بن علقمة نصر عن أبي هريرة، باب ابن عائذ عن المقدام بن معديكرب (٢٥٠٥)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٢٠١).

٤. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب سورة الأنفال (٣٢٦٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في التلخيص.

٥. التَّرْقُوَة: عَظْمة مُشرِفة بين النَّحْر والعاتق.

بالحَرْبة، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرجْ من طَعْنته دمٌ، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخورُ خُوارَ الثَّوْر، فقالوا له: ما أجزَعَك، إنما هو خدْش؟ فذكر لهم قولَ الرسولِ ﷺ: "أنا أقتل أُبيًّا"، ثم قال: والذي نفسي بيده، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون فمات إلى النار ﴿ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ (الملك)[1].

فتأمّلْ صَبْر النبي ﷺ وأناته في مواجهة هذا المشرك، فهو لا يُعَجِّل بقتله عسى أن يَنْثَنِي، فلما أصرَّ أُبي على ملاحقته، ودنا منه ﷺ تصدَّى له بنفسه، ولم يَسْمح لأحد من أصحابه أن يكفيه ذلك، رغم جراحاته، وذلك أن الرجل كان يَقْصده ويتهددهُ في مكة، ومحمد ﷺ واثق من ربه، قوي برسالته، فهيهات أن يصيبه الجزع والوهن، وما أهون الكافر على الله!! إن ضربة واحدة من يده ﷺ تكفيه ليتدحرج من كبريائه، وإنَّ خدشًا واحدًا في جسده يحدث شرخًا في أعماقه، وانظر إليه كيف يرتعد أمام يقينه بصدق محمد ﷺ "قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله، لو بَصَقَ عليَّ لقتلني"!! ما أعجب نفوس هؤلاء؟ لقد كانوا على يقين من صدق النبي ﷺ، ولكنه الجحود المتأصل في أعماقهم.

ومع ذلك منعتهم تقاليدهم من الإيمان، ونحن إذا نظرنا إلى مقولة أُبي بن خلف، لوجدنا أنها تؤكد حسن خلق النبي ﷺ.

ويذكر الرواة عند هذه الحادثة قول النبي ﷺ: "اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله"[2].

صلوات الله عليك يا رسول الله، كم كُنْتَ حريصًا على عدم قَتْل أحد بيدك، بل تُعْطي الجميع فُرصة للمراجعة والنَّجاة، وهذا أُبي استأنيت به، وهو يهاجمك متبجحًا حتى اختار لنفسه هذا المصير وذاك المصرع[3]®.

رابعًا. لم يكن النبي ﷺ بِدْعًا من الرسل حين قتل أُبيًّا دفاعًا عن نفسه ؛ إذ قتل قبله سيدنا موسى عليه السلام قبطيًّا، وقتل ـ أيضًا ـ سيدنا داود عليه السلام جالوت بمقلاعه :

عجيب أن يُطْعن في عفو النبي ﷺ وحلمه، ويُتَّهم بحبه لسفك الدماء، مع العلم أن مبدأ الدفاع عن النفس موجود في مواقف من سبقه من الأنبياء.

ثُمَّ إن الدين ـ أي دين ـ لا يُحَرِّم القتل إذا كان دفاعًا عن النفس، ما دام الأمر لا يتَّصل بهوى نفسي، وحِقْد فردي، غير أن هذا لا يجوز في مقام الأنبياء جميعًا عليهم السلام؛ لأنهم معصومون من كل هذه النقائص والعيوب، وقد روت لنا كتب السيرة أن النبي ﷺ كان أكثر الناس حلمًا وعفوًا، وهذا يتضح ـ كما أسلفنا ـ من مواقف كثيرة ومتعددة في حياته ﷺ.

---

١. والمحمداه، د. سيد بن حسين العفاني، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٢، ٢٦٣.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد (٣٨٤٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب اشتداد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ (٤٧٤٩).

٣. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، مرجع سابق، ص٢٥٢، ٢٥٣ بتصرف يسير.

® في **"ملابسات قتل كعب بن الأشرف وأبي عفك"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء. وفي **"أسباب قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثامنة والعشرين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

فهل يعقل أن مثل هذا النبي الحليم يقتل جورًا وظلمًا، وهو الذي كان يتنازل عن حقه حلمًا وترفعًا؟ وهل يحقُّ أن نصم من حقن الدماء بأنه مولع بسفكها؟!

ولا يبعد النبي ﷺ فيما فعل عن سيدنا موسى عليه السلام حين قتل رجلًا قبطيًّا، ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك في قوله عز وجل: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ (القصص).

فقد قيل: كان القبطي من عَمَلَة مَخبَز فرعون، فأراد أن يحمل حطبًا إلى الفرن فدعا إسرائيليًّا ليحمله فأبى، فأراد أن يُجبره على حمله، وأن يضعه على ظهره فاخْتَصَما وتضاربا ضَرْبًا شديدًا، وهو المعبَّرُ عنه بالتَّقاتل على طريق الاستعارة، وكان الإسرائيلي مغلوبًا، فاستغاث بموسى عليه السلام، فضرب موسى القبطي بمجامع يده وجمع أصابعه فمات، ففوجئ موسى بموت القبطي، ثم علم أن هذا العمل من عمل الشيطان واستغفر لذنبه[1].

هذا، وقد قتل أيضًا سيدنا داود عليه السلام جالوتَ بيده بمقلاعه الذي كان معه، وقد حكى لنا القرآن هذه القصة في سورة البقرة، يقول الله عز وجل: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (البقرة:٢٥١).

فلمَّا لم يستطع أحد مبارزة جالوت انبرى له داود ورماه بالمقلاع، فأصاب الحجر جبهته، وأسقطه إلى الأرض واعتلاه داود واخترط سيفه وقطع رأسه، وصار داود ملكًا، ثم أتاه الله تبارك وتعالى النبوة فصار ملكًا نبيًّا[2].

فالقتل إذا كان في صالح انتشار الدعوة، أو للدِّفاع عن حُرْمة الدين، أو للدفاع عن النفس فلا شيء فيه، ـ حتى وإن كان من نبي أو رسول ـ فللرسول أن يدافع عن نفسه أيضًا كغيره من الناس؛ لأنه بشر يصيبه ما يُصيب البشر، وإذا كان هذا الكافر قد توعَّده بالقتل في أكثر من موقف، فلماذا لا يقتله دفاعًا عن نفسه؟!

الخلاصة:

- كان ﷺ رحمة مُهْداة شَمِلت كل من حوله وما حوله؛ فقد وسع بره وحسن خلقه الصغير والكبير، والقريب والبعيد والعدو والصديق، حتى الحيوان فكان ﷺ رحمة مُهداة للعالمين بحق.
- لقد كان النبي ﷺ أحلم الناس، وأكثرهم عفوًا عند المقدرة، وهذا من كمال أخلاقه ﷺ، والأدلة على ذلك في كتب السيرة كثيرة، ويكفينا أن نشير إلى عفوه ﷺ عن أسرى بدر وعدم قتلهم، وعفوه عن أهل مكة ـ الذين ناصبوه العداء ـ عند فتحها، وقوله لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢)﴾ (يوسف).
- إن النبي ﷺ ما قتل أُبَي بن خلف إلا نتيجة لتهكُّمه عليه ﷺ في مكة، وتهديده له بالقتل لو تمكن من ذلك، فهل اعتدى عليه النبي ﷺ أم كان يدافع عن نفسه

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، ج١٠، ص٨٩، ٩٠ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ج٢، ص٥٠٠.

كغيره من البشر؟!

- لم يكن النبي ﷺ بدعًا من الرسل - عليهم السلام - في هذا الشأن، خاصة فيما يتعلق بقتل الكفرة الذين يهدِّدون حياتهم، وحياة دعوتهم، فقد سبقه إلى ذلك موسى عليه السلام حين قتل القبطي، ثم استغفر لذنبه وتاب الله عليه، ونجد سيدنا داود عليه السلام قد قتل جالوت بمقلاعه، فلماذا لم ينكر أحد عليهما ذلك الأمر؟!

الشبهة الثالثة عشرة

اتِّهامه ﷺ بالغدر والقتل غيلة(*)

مضمون الشبهة:

يتهم بعض الزاعمين النبي ﷺ بأنه كان يبيح قتل أعدائه غدرًا، ويستدلون على ذلك بأنه ﷺ قد أرسل أبا نائلة لقتل كعب بن الأشرف اليهودي غِيلَة[1]. ويهدفون من وراء ذلك إلى وصمه ﷺ بما لا يليق بمقام النبوة من غَدْر، ونقض للعهود والمواثيق، وإراقة للدماء بغير وجه حق.

وجها إبطال الشبهة:

١) الوفاء بالعهد والأمانات أدبٌ إسلامي لم يَزَل مأثورًا عن النبي ﷺ قبل الرسالة وبعدها، فليس في سيرة النبي ﷺ أنه نقض عهدًا عَقَده مع مخالفيه إلا أن يبدءوا هم بنقضه.

٢) لقد جاهر كعب بن الأشرف بعداوة النبي ﷺ وعداوة المسلمين، وحرَّض قومه اليهود على نقض عهودهم مع النبي ﷺ كما حرَّض المشركين على قتال المسلمين، فكان لا بد من قتله دفعًا لشرِّه، ومنعًا لاستمراره في غيّه وجرائمه.

التفصيل:

أولا. النبي ﷺ أُسوة في حفظ العهود والأمانات:

لقد كانت حياة النبي ﷺ أسوة حسنة، وقدوة صالحة في وفائه بالعهود، وتأديته للأمانات، وعدم الخيانة، وذلك تطبيقًا للمنهج القرآني الَّذين دَعوا إلى ذلك وحثّا عليه؛ يقول تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأنفال)، ويقول أيضًا في وصف عباده المؤمنين المفلحين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المؤمنون).

ومن الأحاديث النبوية التي أكد فيها النبي ﷺ على الوفاء بالعهود، وتأدية الأمانات، وعدم الخيانة، ووصف من فعل ذلك بأنه منافق، قوله ﷺ: "أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خَصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدَعَها: إذا اؤتُمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[2][3].

(*) رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢م.

١. الغِيلَة: الغَفلة.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (٣٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٢١٩).

٣. محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٣٩٤.

ومن أمثلة وفاء رسول الله ﷺ بالعهد وردِّه الأمانات إلى أصحابها: ما حدث ليلة الهجرة، إذ أمر سيدَنا عليًّا ﷺ أن ينام في فراشه، حتى يؤدي الأمانات إلى أهلها، وهذه الأمانات كانت قريش قد استودعتها إياه، وجعلتها عنده، فأمر سيدنا عليًّا أن يوزع الأمانات ويردها إلى أهلها، وهذا يتجلَّى فيه مدى حرص النبي ﷺ على تأدية الأمانات إلى أهلها حتى وإن كانوا على غير الإسلام.

ومن أمثلة وفائه ﷺ بالعهد: بِرُّه لزوجته خديجة بعد موتها، فقد أُثِرَ عنه ﷺ أنه كان يتفقد صويحباتها، ويَبَرُّهن وفاءً منه لمن آزرته وأيدته في أيام الدعوة الأولى، جاء عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أُتِي بشيء، قال: "اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة"[1][2].

وعن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: "اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتُمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكم"[3].

هذا هو موقف نبينا ﷺ، وكذا موقف القرآن ـ الذي هو عماد رسالته ﷺ وجوهرها ـ من الغدر والخيانة.

وبعد، فهل يُعقل أنَّ إنسانًا في منزلة محمد ﷺ، وقد بلغ من تصديق الناس له ولدعوته، وإيمانهم به، وإقبالهم عليه ﷺ مبلغًا عظيمًا، هل يُعقل أن ينهى عن أشياء، ثم يأتي مثلها؟! هذا ما لا يقوله مُنْصِف.

حفظه ﷺ العهد ما حفظه خصومه:

لم يسجِّل التاريخ على النبي ﷺ نقضًا للعهد، إلا إذا سبقه العدو إلى ذلك وهذا لا يسمَّى نقضًا للعهد، وذلك تبعًا للمبدأ الذي أقرته الفطرة، فضلًا عن إقرار الدين الإسلامي له، والذي مقتضاه أن: "الجزاء من جنس العمل"، ومن الأمثلة التي تؤيد ذلك:

أنه قبل سنة من هُدنَة الحُدَيبِية، كانت قريش تحاصر المدينة، وقد جمعت لذلك الأحزاب، من أهل القُرى والأعراب، ونقض بنو قُريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ، واشتدّ بذلك الكرب، وزُلزِل المؤمنون زلزالًا شديدًا، ولكن الله نصر عبده، وأعز جنده، وألقى الرعب في قلوب المشركين، ولم تمض إلا مدة وجيزة حتى كان جيش الإسلام بقيادة رسول الله يزحف إلى مكة، فنزل الحديبية، وبعثت قريش رسلها إلى محمد ﷺ.

كان محمد ﷺ في مَنَعَةٍ وقوة، ولكنه كان يعلن أنه لا يريد الحرب، ويقول: لا تَدْعوني قريش اليوم إلى خُطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، فلما جاءه سُهيل بن عمرو مفوّضًا من قريش لعقد هدنة، يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة، كان من شروط هذه الهدنة شرطٌ ظاهِرُ الغَبْنِ، وهو أن محمدًا يسلِّم إلى قريش من لجأ إليه من المسلمين بغير إذن وليه، ولا يطلب تسليم من لجأ إلى قريش من أتباعه.

ذلك الشرط أهاج أصحاب محمد ﷺ، حتى إن

---

١. صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب المعروف، باب قول المعروف (٢٣٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (٧٠٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨١٨).

٢. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٤٩.

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث عبادة بن الصامت ﷺ (٢٢٨٠٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٧١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٧٠).

عمر ﷺ كان يذهب تارة إلى أبي بكر، وأخرى إلى الرسول ﷺ، ويقول: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟! قال رسول الله ﷺ: "بلى"، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار! قال ﷺ: "بلى"، قال: ففيم نُعطي الدَّنيَّة في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال رسول الله ﷺ: "يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا"[1]. ويقول أبو بكر: أشهد أنه رسول الله.

فقبول المسلمين هذا الشرط هو استسلام منهم لأمر لم يدركوا سرَّه، وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم، وبينما هم على هذه المضاضة، وقد فرغ الرسول ﷺ من الجدل مع مُفوَّض قريش سُهيل بن عمرو، ولم يكتب العقد، ولم يُمْضِ - جاءهم أبو جندل مستصرخًا يَرسُف[2] في قيوده.

وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه، وقد انفلت إلى المسلمين من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه، وقال: يا محمد، قد لجَّت القضية بيني وبينك - أي فرغنا من المناقشة - قبل أن يأتيك هذا. قال النبي ﷺ: "صدقت"، وأبو جندل ينادي: يا معشر المسلمين! أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟

تصوروا ذلك المقام، مقام محمد ﷺ، وهو الشجاع الذي عُلِمَتْ شجاعتُهُ المنقطعةُ النظير، وهو القوي الذي خرج من المدينة زاحفًا بجيش، تصوروه وهو يرى أقرب أصحابه يكاد يجنح إلى العصيان، ثم تصوروه يرى لاجئًا يرسُف في القيود، وهو من أبناء الأعزة في قريش، عائذًا بمحمد ودين محمد، ثم انظروا إليه ﷺ لا يحتال ولا يتردد، ولما يكتب، ولما يمض، يقول لسهيل: صدقت، لقد لجّت القضية، ويرد صاحبه باكيًا إلى أعدائه!

تصوروا كل ذلك، ثم ليأت من شاء بِمَثَلٍ واحد في تاريخ البشر كله كهذا المثل، يضربه محمد ﷺ في رعاية الكلمة التي قالها، ولما تُكتب، ولما تُمض، ذلك هو أعلى الأمثال في الوفاء بعهد العدو[3].

ومن ذلك أيضًا: ما حدث عند غزو النبي ﷺ لبني النضير، فلم يقم بما قام به من تركٍ لعهد معهم إلا بعد خيانتهم للعهود والمواثيق، وكذلك ما حدث مع بني قريظة، فهو ﷺ لم ينقض العهد إلا إذا سبقه عدوه لذلك، مطبّقًا بذلك المبدأ الذي مؤداه أن الجزاء من جنس العمل.

ثانيًا. كعب بن الأشرف كان من السابقين إلى الخيانة:

لقد كان كعب بن الأشرف اليهودي - وهو رجلٌ من طيّئ وأمه من بني النضير - يقوم بدور كبير في تحريض المشركين وتخذيل المؤمنين، وبثِّ روح التردد والهزيمة في أهل المدينة، ولم يقف من النبي ﷺ ولا المؤمنين موقف المسالمة، أو يعتزل فلا يكون مع هؤلاء ولا أولئك، بل أظهر العداوة، وعمل تحت سلطانها، **وبدا ذلك فيما يأتي:**

- أنه لما علم بمقتل المشركين من أهل بدر، أعلن

1. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣٠١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٤٧٣٣).
2. يَرسُف: يمشي رويدًا.

3. بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ﷺ، عبد الرحمن عزام، مرجع سابق، ص٢٥: ٢٧ بتصرف يسير.

غضبه على المسلمين، وقال: "لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من ظهرها"، وبذلك أعلن العداوة المكنونة في نفسه، وماذا يصنع النبي ﷺ مع عدوّ أظهر عداوته، ولم يكن له عهد مع النبي ﷺ ؟!

- أنه كان يهجو النبي ﷺ ويشدِّد في الهجاء، غيرَ مُراعٍ كرامة ولا حرمة، بل كان منخلعًا من كل عهد، ومن كل فضيلة، وكان كالذين آذوا موسى من إخوانه اليهود، وهو متحلل من كل مروءة.

- أنه قدم المدينة المنورة يعلن عداوته للنبي ﷺ ويجاهر بها، ويحرِّض اليهود على المؤمنين، ويلقي بالشر والفتنة بين المؤمنين من غير حرج من خلق أو دين أو عهد، وجعل يُشبِّبُ بنساء المؤمنين، ويشيع قالة السوء عن فضليات هؤلاء النساء.

- وكان يحرِّض اليهود على أن تنقض عهدها مع النبي ﷺ، وكان بأفعاله هذه يُجرِّئ كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ على الخروج عليه، وشنّ الحرب، ولم يترك بابًا من أبواب الكيد إلا دخل إليه، وليس له أهل يُشتكى أمره إليهم فيمنعوه، بل هو منفرد بأعماله مقيم في حصن، لا ينتمي إلى بني النضير إلا من جهة أمه، ولا تسري عليه عهودهم.

- أنه لم يقف عمله عند العداوة والبغضاء، وإشاعة الفساد، وتحريض اليهود، بل إنه تجاوز ذلك؛ إذ ذهب إلى مكة المكرمة، واستعدى قريشًا، فنزل على الذين أُوذوا في غزوة بدر، وأخذ يحرضهم على قتال النبي ﷺ وربط أسبابه بأسبابهم، ونفسه بنفوسهم، حتى إن أبا سفيان قال له من فَرْط ما امتزجت نفوسهم به: "أناشدك، أديننا أحبّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه، وأينا أهدى في رأيك، وأقرب إلى الحق؛ إننا نطعم الجَزور الكَوماء[1]، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبَّت الشمال"، فقال له كعب اليهودي: أنتم أهدى سبيلًا، قال الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (النساء).

وهكذا قد بدت العداوة من أفواههم، والتحريض من أعمالهم، وإرادة الفساد وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين من تصرفاتهم، وكان كعب المثل الواضح في ذلك، وكان يقول القصائد محرضًا المشركين على المؤمنين، ويقول في شعره محرضًا قريشًا:

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِه
ولِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمَعُ

ويقول في التحريض من هذه القصيدة:

ويَقُولُ أقوامٌ أُسَرُّ بِسُخْطِهِم
إن ابنَ أَشْرَفَ ظَلَّ كَعْبًا يَفْزَعُ
نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي المُغِيرَةِ كُلَّهُم
خَشَعُوا لِقَتْلِ أَبِي الحكيم وجَدَّعُوا
وابنَا رَبيعَةَ عِنْدَهُ ومُنَبِّهٌ
مَا نَالَ مِثْلَ المُهْلَكِينَ وتُبَّعُ
نُبِّئْتُ أن الحارثَ بنَ هِشَامِهِم
في النَاسِ يَبْنِي الصالحاتِ ويَجْمَعُ

1. الجَزور الكَوماء: الناقة العظيمة.

لِيَــزُورَ يَثْــرِبَ بـــالجموعِ وإنَّـــما
يَحْمِـي عَـلى الحَـسَبِ الكَـرِيمُ الأَرْوَعُ

وهكذا يحرِّض على القتال، ويرثي القتلى بعبارات تؤجج نيران الحقد ليدفع قريشًا إلى الثأر.

هذا ما يفعله الرجل اليهودي المتفلّت من كل العهود والمواثيق، أيسكت النبي ﷺ وهو المحارب الحذر الذي يهجم على مداخل الأذى قبل أن يلج منها العدو، أم يعلنها حربًا على قومه أو من ينتمي إليهم من بني النضير، وأكثرهم لم ينالوا المؤمنين بمثل ما نال، ولا تزر وازرة وزر أخرى، والنبي ﷺ لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها، ولمّا يعلنوها؟

أم يسكت ويترك الشر يستشري، ويحاكيه في أفعاله بقيةُ اليهود؟ لا شك أن آخر الدواء الكي، إنه لا بد أن يستأصل الداء من موضعه، ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله، ولا منجاة حينئذ، لم يبق إذًا إلّا أن يقتل كعبًا؛ حسمًا لمادة الفساد، وما السبيل لدفع شره غير القتل؟! إنه لا سبيل إلا هو، طالما أن الحرب لم تُعلن، وهل تُعلن الحرب على واحد، لقد قلنا: إن من ينتمي إليهم لم يكن منهم شيء مثل ما فعل.

فلم يبق إلا أن يُقتل، وأن يدعو النبي ﷺ من يتولّى قتله في مأمنه، وقد اتخذ حصنًا يأوِي إليه، فحرَّض ﷺ من يقتله من غير ضجة، ولا إزعاج لأحد من الآمنين، ولقد انتدب لذلك من رأى في نفسه القدرة من الصحابة، واستأذنوا الرسول ﷺ في أن يخدعوه بالقول فأذن.

ولقد وجدنا من الغربيين الذين يكتبون في تاريخ الإسلام من أثار زوبعة حول النبي ﷺ وكيف يأمر بالقتل غيلة، وهو نبي مرسل، قالوا ذلك، ونسوا أنه نبي مُحَارَب لا يدعو إلى الاستسلام للشر، بل يقاومه، ويحتاج لحماية الناس من الضرر، وأنه بمقتضى حكمة النبوة يجب أن يدفع الضرر الكثير بالضرر القليل، وأنه في سبيل أن تُحقن الدماء في القتال يجب منع أسبابها، وأن الذي كان يُعِيدُ الحربَ جَذَعًا هو واحد، وقتل واحد شرير كان يحرِّض على الحرب خير من قتل جماعة في ميدان الحرب.

قالوا إن القتل كان غيلة، ونحن نقول إن الرجل جاهر بالعداوة، وشبَّب بنساء المسلمين، وحرض اليهود على الانقضاض على المؤمنين، ونكث العهود، ولم يكتف بذلك، بل ذهب إلى مكة وأثار الأحقاد، ودعا القوم إلى أن يقاتلوا محمدًا ﷺ.

فعل كل ذلك جهارًا، فإذا لم يتوقع من محمد ﷺ أنه يتربص به الدوائر، وأنه يريد أن يقضي عليه؛ لأنه مادة الشر ولسانه، إذا لم يقدِّر ذلك فهو أَبْلَهٌ[1] ــ ولم يكن كذلك ــ فمحمد ﷺ أمر بقتله في وقت كان هو يتوقع ذلك فيه، أو ينبغي أن يتوقعه، ولا يُعَدُّ القتلُ غيلةً لمن يتوقع القتل، إنَّ قتل النبي ﷺ لمثل هؤلاء يشبه من يعلن عن شرير بأنه ارتكب آثامًا كثيرة، وأن من أحضره حيًّا أو ميتًا، فله جزاء.

إن قتله كان أمرًا لا بد منه لما قام به، ويقوم به رئيس الدولة العادلة التي يحكمها ذلك الحاكم العادل، فإنه لا سبيل لدفع فساده وإفساده إلا بقتله بأي طريق كان، وكل ما فعله النبي ﷺ أنه أباح دمه، جزاء ما ارتكب، ومنعًا لاستمراره في غيِّه؛ فقد كان يقوم بجريمة

١. الأبْلَه: ضعيف العقل.

مستمرة غير متحرج، فالنبي ﷺ كان مُخيَّرًا بين أمرين؛ إما أن يقتله، وإما أن يتركه يرتع في جريمته، فاختار أسلم الأمرين اللذين لا مناص من اختيار أحدهما[1].

وكذلك كان الحال مع أبي عَفَك الشاعر ألد أعداء المسلمين، وقد كان شيخًا كبيرًا من بني عمرو بن عوف وكان يهوديًّا، يحرض على عداوة النبي ﷺ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ورجع وقد انتصر على المشركين، حسده أبو عَفَك وبغى، وقال في هجائه وهجاء المسلمين شعرًا، فكان لا بد من قتله لتخليص البشرية من دَنَسه وخبثه، وقد تم ذلك على يد الصحابي الجليل سالم بن عمير العوفي رضي الله عنه[2].

إن أولئك الذين يثيرون الشك حول أعمال محمد ﷺ وحول رسالته السماوية التي كانت رحمة للعالمين - يقولون: إن الرسالة السماوية تتنافى مع القتل غيلة، بل تتنافى مع أصل القتل، كما كان من عيسى عليه السلام الذي يروون أنه قال: "من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا" (متى ٥: ٣٩).

ونقول في الجواب عن ذلك: إن قمع أعداء الدعوة الدينية لا يتنافى مع الرسالة، فموسى عليه السلام - وهو من أُولي العزم من الرسل - قد قتل بيده، وقاتل، ودعا بني إسرائيل إلى القتال، وما تنافى ذلك مع رسالته الإلهية التي نزلت بها التوراة، وهي كتب العهد القديم المقدسة عند اليهود والنصارى معًا.

ويحسبون أن الرحمة النبوية تمنع القتل والقتال، ونقول: إن القتل المشروع يكون بباعث من الرحمة، فليست رحمة النبوة انفعالة رَعناء[3] تكون على موضع البرء والسقم، إنما رحمة النبوة تكون بالكافة، ومن الرحمة بالكافة أخذ المذنب بذنبه، ومنع الفساد في الأرض قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ (البقرة). والنبي ﷺ يقول: "أنا نبي الرحمة، وأنا نبي المَلحَمة"[4].

وملحمته نابعة من مرحمته، وكثير من العفو يكون مشتملًا على أقسى العذاب، وهو العفو عن الجاني الذي لا رجاء في صلاحه. والنبي ﷺ قد اشتملت شريعته على العفو في الأمور التي لا يعود العفو فيها بالشر على الجماعة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ (النحل).

ومن ثَمّ فالصبر عن أخذ الجاني بجريمته، إنما يكون في الاعتداء على الآحاد، الذي لا يتعدى الأمر فيه إلى الجماعة، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ (الأعراف)، إنما هو

١. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٠٣: ٦٠٦ بتصرف يسير.
٢. وامحمداه، د. سيد بن حسين العفاني، مرجع سابق، ج١، ص٣١١، ٣١٢.

٣. الرَّعناء: الهوجاء.
٤. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، باب ما أعطى الله تعالى محمدًا ﷺ (٣١٦٩٣)، وأحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث أبي موسى الأشعري (١٩٥٤٣)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (١/ ٩).

في الأمور الشخصية التي لا يعود ضررها على الكافة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (فصلت)، وهذا واضح في الأمور التي تمسّ الشخص ولا تصل إلى الجماعة[1].

وبذلك يتضح لنا أن أمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف وأبي عفك الشاعرين اليهوديين، ليس من قبيل الغدر والخيانة، ولكنه من باب درء المفاسد، إذ قد يؤدي عدم القيام بها إلى نتائج وخيمة وعظيمة يعود وبالها على الجميع®.

الخلاصة:

- إن المتتبع لحياة النبي ﷺ يجد حياته قدوة حسنة، وأسوة صالحة، في وفائه بالعهود، وهذا واضح جلي من المواقف المذكورة في حياته، تطبيقًا منه للمنهج القرآني، المتمثل في قوله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأنفال)، والسنة النبوية المتمثلة في قوله ﷺ في الحديث: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان"[2].

- إن التاريخ لم يسجل حالة واحدة سبق فيها النبي ﷺ عدوه إلى نقض العهد؛ ولكن النبي ﷺ كان إذا غُدر به قابل ذلك بمبدأ "الجزاء من جنس العمل"، ونجد هذا واضحًا في عهده مع المشركين في صلح الحديبية، وعهده ليهود بني النضير، ويهود بني قريظة، وذلك أنهم نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ فعاقبهم ﷺ وأمر بإخراجهم جميعًا.

- كان قتل كعب بن الأشرف وأبي عفك اليهوديَّين هو الحلُّ الوحيد الذي لم يجد النبي ﷺ سواه؛ كي يتخلص من شرورهما وفسادهما، فكان الأمر بقتلهما بمنزلة دَرْءٍ لمفسدة عظيمة، قد يؤدي عدم القيام به إلى نتائج وخيمة يعود وبالها على الإسلام والمسلمين آنذاك.

الشبهة الرابعة عشرة

الزعم أن النبي ﷺ كان ينتقم لنفسه بقسوة(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المفترين أن النبي ﷺ كان ينتقم لنفسه بقسوة، مستدلين على ذلك بأن النبي ﷺ لمَّا سرق بعضُ الناس ماشِيَته الخاصة وقتلوا راعيه؛ انتقم منهم انتقامًا

---

١. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٠٦، ٦٠٧ بتصرف يسير.

® في "**ملابسات مقتل أبي بن خلف**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء. وفي "**أسباب قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثامنة والعشرين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده). وفي "**جواز أن يقتل الأنبياء دفاعًا عن أنفسهم**" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (٣٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٢٢٠).

(*) سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

بشعًا، إذ قطع أيديهم وأرجلهم وسَمَل[1] أعينهم بالنار، حتى لقد نزل القرآن معاتبًا له، وناهيًا له عن العودة إلى مثل هذه القسوة مرة أخرى في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) ﴾ (المائدة). ويهدفون من وراء زعمهم الباطل واستشهادهم المُتَوهَّم إلى الطَّعن في رحمته ورفقه وعفوه ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن ما عُرف من تسامح النبي ﷺ وعفوه عند المقدرة، لدالٌّ - بما لا يدع مجالًا لزعم زاعم - دلالةً قاطعةً على كمال خلقه ﷺ، فإن نبيًّا شملت رحمته الحيوانات والجمادات، حري بنا أن ننزِّهه ﷺ عن مَظِنَّة القسوة انتقامًا لنفسه - كما يزعمون - وإنما الأمر من قبيل: "الجزاء من جنس العمل".

٢) الآية القرآنية التي توهَّموا أن فيها شاهدًا يستندون عليه في تعضيد مزعمهم لم تنزل في عتاب النبي ﷺ، وإنما نزلت لتشريع حدِّ الحِرَابة، وهذا الحدُّ تشريع ربَّاني ليس فيه من القسوة شيء، ثم إن الإبل كانت إبل الصدقة، ولم تكن إبل الرسول ﷺ ولا ماله الخاص، والرَّاعي كان عاملًا عليها، ولم يكن الراعي الخاص لرسول الله ﷺ؛ حتى يُقال إن النبي كان ينتقم لنفسه.

التفصيل:

أولا. إن ما عُرف من تسامح النبي ﷺ وعفوه عند المقدرة لدالٌّ دلالة قاطعة على كمال خلقه ﷺ:

إن العفو عند المقدرة مرآة تتجلَّى فيها أحسن صور النفس، وسمو المقصد، وقد أدَّب القرآن الكريم النبي ﷺ بهذا الخلق الكريم قال ﷻ: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ (١٩٩) ﴾ (الأعراف)، فتخلَّق ﷺ بهذا الخلق في أقواله وأفعاله، ودعا إليه، وحثَّ عليه بقوله، ولا يخفى معاملته لأهل مكة والطائف، ورؤساء الفتنة، وزعماء الشر لما دخل مكة المكرمة فاتحًا مظفرًا منصورًا، فشمِلَ عفوُهُ البلاد والسادة والزعماء الذين عتوا في الأرض وأسرفوا في إيذائه واضطهاده.

دخل الرسول ﷺ مكة، ولكن عكرمة، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ومن جمَّعوا من الناس، أبوا إلا قتالًا فهُزموا وفروا، ثم استأمنوا فأُمِّنوا، بل عُفي عنهم، وأعطوا من غنائم هوازن تأليفًا لقلوبهم.

وهذا صفوان بن أمية، العدو ابن العدو، يفر إلى جدة ليبحر إلى اليمن، فيأتي عمير بن وهب لرسول الله ﷺ فيقول: "يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه قد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر فأمِّنه، قال: هو آمن، قال: يا رسول الله، فأعطني آية يعرف بها أمنك، فأعطاه الرسول عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر، فقال يا صفوان فداك أبي وأمي! الله الله في نفسك أن تهلكها! فهذا أمان رسول الله قد جئتك به، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذاك وأكرم، فرجع

١. سَمَل العينَ: فَقَأَها.

معه حتى قدم به على رسول الله ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني؟ قال صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار أربعة أشهر"[1].

ولم يكن الرسول ﷺ ليقصر رحمته وبره، الذي هو صورة صادقة لنفسه الكريمة على الناطقين من بني الإنسان، فإن هذه الرحمة ملكت مشاعره، وحفّزته لكفاح موفق في سبيل الرفق بالحيوان، فكان العرب يقتطعون من حيواناتهم وهي حية، فيشوون ويطعمون، فحرم ذلك، .. وكان وشم الحيوان - ولا يزال - ضرورة لإثبات الملكية في البادية، فنهى عن ذلك الأذى، وخفضه باختيار أقل الأثر في أقل الأعضاء إحساسًا، وكان العرب يتخذون من دوابهم أهدافًا للرماية، فنهى عن ذلك وعن قطع ذيول الخيل، ومرَّ مرة بناقة مربوطة جائعة فحلَّ وثاقها، وأطلقها، وأوصى الناس أن يخشوا الله في البهائم[2]، ومن الأمثلة التي ضربها ﷺ في ذلك:

رأى ﷺ رجلًا أضجع شاة، فوضع رجله على عنقها، وهو يحدُّ شفرته، فقال له النبي: "ويلك، أردت أن تميتها موتات؟ هلَّا أحددت شَفْرتك قبل أن تُضْجِعها"[3] [4].

١. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي، مرجع سابق، ص١٥٩.

٢. بطل الأبطال، عبد الرحمن عزام، مرجع سابق، ص٦١، ٦٢ بتصرف.

٣. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب المناسك، باب سنة الذبح (٨٦٠٨)، والحاكم في مستدركه، كتاب الذبائح (٧٥٧٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٥).

٤. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعجي، مرجع سابق، ص٨٤.

وكان يُرغِّب ﷺ أصحابه في الرحمة بالحيوان، إذ يقول: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها، فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث، يأكل الثَّرى[5] من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني! فنزل البئر، فملأ خُفَّه ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رَقِي، فسقى الكلب، فشكر الله ﷻ له، فغفر له"، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ قال: "في كل كبد رطبة أجر"[6]. وقال أيضًا: "دخلت امرأة النار في هِرَّة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خَشَاش الأرض"[7][8].

وهذه رحمته يفيض بها قلبه الكبير على عصفور صغير، قال عبد الرحمن بن عبد الله: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة[9] معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرة فجعلت تَعْرِش[10].

فجاء النبي ﷺ قال: "من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا

٥. الثَّرى: التراب.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء (٢٢٣٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها (٥٩٩٦)، واللفظ له.

٧. الخَشَاش: حشرات الأرض.

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣١٤٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإسلام، باب تحريم قتل الهرة (٥٩٩٢)، واللفظ للبخاري.

٢. الحُمَّرة: طائر كالعصفور.

١٠. تَعرِش: تُرفرِف.

ولدها إليها"[1]. وقال ﷺ لعائشة حين قَسَت على بعير رَكِبَته: "من يُحرَم الرِّفق يُحرم الخير"[2][3].

وكما كان النبي ﷺ رحيمًا بالحيوان، كان رحيمًا بالجماد، فلما بُني له ﷺ المنبر ليقيم الخطبة عليه بكى الجذع الذي كان يقف النبي ﷺ ويخطب عليه؛ لفراق النبي، فحنَّ ﷺ لهذا الجذع وتأسَّى عليه.

ولكن ليس معنى كون النبي ﷺ رحيمًا أن يتساهل في حقوق العباد؛ فيعفو عن الظالمين والمجرمين؛ لأن الرحمة تبقى صفة حسنة ما وُضعتْ موضعها، أما إذا لم توضع موضعها، واستعملت استعمالًا غير صحيح، فإنها تنقلب إلى عنصر تخريب كما قال الشاعر:

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوضِعِ السَّيفِ بالعُلَا
مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيفِ في مَوضِعِ النَّدَى

فمع ما وصفناه به ﷺ من الرحمة وجدناه يتصرف بمنتهى الحزم مع العرنيين (الذين سرقوا الإبل وقتلوا الراعي)؛ لأن الحكمة تقتضي أن يتصرف هذا التصرف، ونحن لا نشك في أن قلب رسول الله ﷺ كان يعتصر ألمًا، ويود أن لا يكون قد فعل معهم ما فعل، ولكن الرحمة لا تكون رحمة مستحسنة إلا إذا كانت بنّاءة، أما إذا أدت إلى الدمار والخراب كما حدث من هؤلاء المجرمين، فإن الرحمة في غير هذا الموطن أولى.

ومن ثم فلم يكن انتقام النبي ﷺ من هؤلاء المجرمين لحقد عليهم في صدره ﷺ، ولكن تطهيرًا للمجتمع ورحمة بآلاف الأنفس التي يمكن أن تتعرض لمثل هذا الاعتداء، وقد صدق الله حين أخبر عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء)®.

ثانيًا. لم تنزل آية المائدة لعتاب النبي ﷺ، وإنما لتشريع حد الحرابة:

إن آية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ (المائدة)، لم تنزل لعتاب النبي ﷺ، وإنما نزلت لتشريع حد الحرابة.

والحِرابة: هي قطع الطريق أو هي السرقة الكبرى، وإطلاق السرقة على قطع الطريق مجاز لا حقيقة؛ لأن السرقة هي أخذ المال خفية، وفي قطع الطريق يؤخذ المال مجاهرة، ولكن في خِلسة، حيث يختفي القاطع عن الإمام؛ ولذا لا تُطلق السرقة على قطع الطريق إلا بقيود، فيقال: السرقة الكبرى، ولو قيل: السرقة فقط لم

---

١. صحيح: أخرجه أبو دواد في سننه، كتاب الأدب، باب في قتل الذر (٥٢٧٠)، والطبراني في المعجم الكبير، باب العين، عبد الله بن مسعود الهذلي (١٠٣٨٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٦٧٦٤).

٣. بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي ﷺ، عبد الرحمن عزام، مرجع سابق، ص٦٢ بتصرف يسير.

® في "تسامح النبي ﷺ مع أعدائه وعفوه ورحمته بكل من حوله" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الحادية عشرة، والوجه الثاني، من الشبهة السادسة عشرة، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة الخامسة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

يُفهم منها قطع الطريق[١].

وهذه الآية: اختلف الناس في سبب نزولها، والذي عليه الجمهور أن هذه الآية نزلت في العرينيّين.

رُوي عن أنس بن مالك أن رهطًا من عُكل ـ أو قال: عُرينة ـ قدموا المدينة، فأمر لهم النبي ﷺ بلِقَاحٍ وأمرهم أن يخرجوا فيشربوا من أبوالها وألبانها، فشربوا حتى إذا برئوا قتلوا الراعي واستاقوا النَّعَم، فبلغ النبي ﷺ غَدوَة، فبعث الطلب في إثرهم، فما ارتفع النهار حتى جِيء بهم، فأمر بهم فقُطعت أيديهم وأرجلهم، وسَمَرَ[٢] أعينهم، وأُلقُوا في الحَرَّة يستسقُون فلا يُسقَوْن"[٣].

وفي رواية: فبعث رسول الله ﷺ في طلبهم قافةً[٤] فأُتِي بهم، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ (المائدة)، وقد حكى أهل السير: أنهم قطعوا يَدي الراعي ورجليه، وغرزوا الشوك في عينيه حتى مات، وأُدخل المدينة ميتًا، وكان اسمه يسار، وكان نوبيًّا، وكان هذا الفعل من المرتدين سنة ست من الهجرة.

قال أبو قلابة: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله[٥]، والآية نزلت لتجعل لأمثال هؤلاء حدًّا من حدود الإسلام هو الحرابة، وليس القصاص.. فهي نزلت بتشريع جديد، وليس لنهي الرسول ﷺ عن القسوة[٦].

وبذلك نجد أن هذه الآية لم تنزل لنهي النبي ﷺ عن القسوة كما يدّعون، وإنما نزلت لتشريع حد من الحدود، وهو حد الحرابة، وهذا الحد ليس فيه من القسوة شيء، وإنما هو من قبيل: "الجزاء من جنس العمل".

ثم إن الإبل التي جاءت في القصة التي استدل بها هؤلاء المشككون لم تكن خاصة بالنبي ﷺ، ولكنها كانت إبل صدقة، وإذا رجعنا إلى كتب أسباب النزول، وإلى صحاح السنة النبوية، وإلى تفاسير القرآن الكريم اكتشفنا أن تلك الإبل كانت إبل الصدقة، ولم تكن إبل الرسول ﷺ، ولا ماله الخاص، والراعي كان عاملًا على إبل الصدقة، ولم يكن الراعي الخاص لرسول الله ﷺ، وهؤلاء الذين عاقبهم الرسول هذا العقاب، كانوا قد ارتكبوا عدة جرائم بشعة، فهم استاقوا الإبل، وارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي النوبي يسار.. ومثّلوا به، عندما قطعوا يديه ورجليه، وغرزوا الشوك في عينيه حتى مات، فنحن أمام جريمة حرابة، هي: "محاربة لله؛ أي: الكفر به.. فقد قتلوا النفس، وحاربوا الله ورسوله، فالجريمة ليست سرقة في خفاء، وإنما هي حرابة استاقوا

١. التشريع الجنائي في الإسلام، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٢، ط٧، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٦٣٨ بتصرف يسير.

٢. سَمَر: فقَأَ.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب سمر النبي ﷺ أعين المحاربين (٦٤٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب حكم المحاربين والمرتدين (٤٤٤٦)، واللفظ للبخاري.

٤. القافَة: الذي يتبع أَثَر الأقدام على الرمال.

٥. الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، مرجع سابق، ج٦، ص١٤٨ بتصرف يسير.

٦. سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، مرجع سابق، ص٥٤.

فيها الإبل، واستخدموا السلاح في القتل والتمثيل مع الكفر والردة، والمحاربة لله ورسوله.. ولذلك كان حكم رسول الله ﷺ فيهم هو القصاص"[1].

كما أن القصة التي يستند إليها أصحاب هذا الافتراء ـ قصة قطَّاع الطرق الذين قطع النبي ﷺ أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم ـ إن دلت على شيء، فإنما تدل على حرصه ﷺ على المسلمين، وحمايته لحقوقهم والاقتصاص لهم، ولقد فعل ذلك حتى يعلم الجميع أن المسلمين قوة، وحتى يهاب كل من تسوِّل له نفسه أن يؤذي مسلمًا؛ لأن الإمام الذي يخاف على رعيته قائم دونهم، ويستطيع أن يأخذ على يديه.

فأين إذًا الانتقام للنفس الذي يَدَّعونه؟! إنه أَخْذٌ بحق الضعيف، ونصرةٌ للمظلوم، وانتصار من الظالم، وتطبيق لمبدأ "الجزاء من جنس العمل"، ثم إن هؤلاء ـ الذين نزلت فيهم آية الحرابة ـ يستحقون ذاك المصير والعقاب الذي حلّ بهم، فهل هذا هو جزاء ما فعله معهم النبي ﷺ؟ وإنقاذه إياهم من المحن والهلاك، ألم يكن من الأولى بهم أن يشكروا ولا يكفروا، وأن يردوا الجميل؟ كلا، لم يفعلوا وإنما بادروا بالسوء، فكان العقاب الرادع والعادل من الله ﷻ.

الخلاصة:

- لقد أدب القرآن الكريم النبي ﷺ بخلق العفو، والرحمة، والتسامح، ونبي شملت رحمته الحيوانات والجمادات، حرِي به أن يكون ببني البشر أرحم، ولكن رحمته ﷺ كانت رحمة بنَّاءة؛ لا تُضيع الحقوق ولا تُطمع الطغاة.

1. المرجع السابق، ص٥٤.

- إن آية المائدة لم تنزل في عتاب النبي ﷺ، وإنما نزلت لتشريع حد الحرابة، والحرابة اتفاق طائفة من المجرمين على الخروج على الجماعة، بارتكاب مفاسد من أنواع الاعتداء المختلفة أو اغتصاب أموال، وهذا ما فعله العرينيون، فكان الجزاء من جنس العمل.
- ثم إن الإبل التي سرقها هؤلاء كانت إبل الصدقة، ولم تكن ملكًا خاصًا بالرسول ﷺ، حتى يُقال أن الرسول ﷺ كان ينتقم لنفسه، وكذلك الراعي كان راعي إبل الصدقة ولم يكن راعيًا خاصًا له، ولكن فعل الرسول ﷺ بالقوم ما فعل، من منطلق حرصه على المسلمين، وحماية حقوقهم.

الشبهة الخامسة عشرة

اتِّهام النبي ﷺ بانتهاز الفرص لنقض العهود(*)

مضمون الشبهة:

يتهم بعض الطاعنين النبي ﷺ بأنه كان ينتهز الفرص لنقض العهود، ويبرهنون على ذلك بأنه ﷺ كان ينتظر أي فرصة تسنح لفتح مكة، فلما وقع الاعتداء على خُزاعة تظاهر بالغضب، وبأخذ الثَّأر، والانتصار لهم لينقض العهد، ويهجم على مكة. ويتساءلون: أليس فيما فعله النبي ﷺ من انتهاز الفرص ونقض العهود ما يتناف مع أخلاق الأنبياء؟! هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في وفائه ﷺ بالوعد وحفظه للعهد.

(*) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن شريعة الإسلام تدعو إلى احترام العهود، والرسول ﷺ لم يكن أبدًا رجلًا انتهازيًّا، بل كان وفيًّا بالعهود والوعود التي يبرمها، وسيرته العطرة خير شاهد على ذلك.

٢) إن قريشًا هم الذين نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ، وذلك باشتراكهم مع بَكْر في قتل عشرين رجلًا من خُزَاعة، وهم في عقد النبي ﷺ وعهده؛ لذا ندمت قريش على ما فعلوا، وحاولوا تجديد الصلح والعهد مرة أخرى.

التفصيل:

أولا. كان النبي ﷺ وفيًّا بالعهود والوعود التي يبرمها:

إن حفظ العهد، والوفاء بالوعد، خلق رفيع من أخلاق النبي ﷺ الحميدة، التي اشتهر بها ﷺ، فقد كان أحفظ الناس للعهود والمواثيق، ومن أشدهم وفاء للوعود، فلم يؤثر عنه أنه نقض عهدًا أو خالف وعدًا لأحد من الناس، سواء كان من أتباعه أم من أعدائه، وسيرته العطرة خير شاهد على ذلك، كيف لا! وشريعة الإسلام التي بُعث بها تحثُّ على احترام العهود والمواثيق، وتؤكد على المحافظة عليها، وتعتبر نقض العهد وإخلاف الوعد من كبائر الذنوب، ومساوئ الشيم، قال ﷻ في وصف عباده المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المؤمنون)، فعُدَّ حفظ العهد من جملة الأخلاق الحميدة التي يتصف بها المؤمنون، وقد حرَّم الله ﷻ نصرة المسلمين لإخوانهم في الدين إذا كانوا يقيمون بين قوم مشركين، بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، يقول ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأنفال)[1].

وقد حفل القرآن الكريم بكثير من الآيات التي تناولت العهود والوفاء بها، ذلك أن الوفاء بالعهود من شروط الإيمان، ومن سمات المؤمنين أن يلتزموا بعهودهم ويذعنوا لشروطها، والله ﷻ يكرم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، بقوله ﷻ: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأحزاب).

وقد شرَّف الله ﷻ الذين بايعوا الرسول ﷺ في الحديبية، ووعد الصادقين منهم بحسن الجزاء في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾ ﴾ (الفتح).

ويعظم الله ﷻ شأن الموفين بعهدهم، ويسلكهم في عقد النخبة المتميزة من المتقين الذين جمعتهم الآية الكريمة من قوله ﷻ: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ

---

١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٤٨.

وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ (البقرة).

ويهتم كتاب الله ﷻ بالوفاء بالعهد اهتمامًا شديدًا، وإن التوجيهات الربانية في شأنه حاسمة قاطعة ملزمة، لا تحتمل أي قدر من التهاون - وإن قلَّ - فيقول ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)﴾ (النحل)[1].

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يحثُّ على الوفاء بالعهد والمواثيق، وقد كان الرسول الكريم ﷺ متخلقًا بأخلاق القرآن، ملتزمًا بكل ما جاء به، داعيًا إلى العمل بكل ما جاء فيه.

وكان رسول الله ﷺ لا يقتصر في وفائه على المسلمين، بل كان أشد الناس محافظة على العهود والمواثيق مع أعدائه، حتى ولو كان فيها إعنات له، حتى إذا نقض أعداؤه الميثاق جعل الله له بذلك مخرجًا، كما حدث من يهود بني النضير، وبني قريظة، الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وكما حدث من مشركي قريش، حين نقضوا شروط صلح الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو ممثل المشركين، وكان من شروط الصلح أن من جاء محمدًا من المشركين مسلمًا رده إليهم[2].

١. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧١، ١٧٢.

٢. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، د. هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٤٩، ٣٥٠.

من المواقف التي تدل على وفائه ﷺ بالعهد ردُّه لأبي جندل:

وإن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد، والتقيُّد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم والحديث لاحترام كلمة لم تكتب، فما بالنا بكلمة كُتبت، وفي الجِدّ في عهوده، وحبه للصراحة والواقعية، وبغضه التحايل والالتواء والكيد، وذلك حينما كان يفاوض سهيل بن عمرو في الحديبية، حيث جاءه ابن سهيل يرْسُف في الأغلال[3]، وقد فرَّ من مشركي مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرسول ﷺ، وكان هذا الابن ممن آمنوا، جاء مستصرخًا بالمسلمين، وقد انفلت من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه، وقال: يا محمد، لقد لـجَّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، فقال رسول الله ﷺ: "صدقت"، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أتردُّونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟! فلم يغن عنه ذلك شيئًا، ورده رسول الله ﷺ، وقال لأبي جندل: "إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهدًا، وإنا لا نَغدُر بهم"، غير أن النبي ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجًا منها لأبي جندل المسلم، طمأن أبا جندل وبشَّره بقُرب الفرج له ولمن على شاكلته من المسلمين، وقال له وهو يواسيه: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا

٣. الأغلال: القيود.

ومخرجًا"[1].

وفي هذه الكلمات النبوية المشرقة العظيمة دلالة ساطعة على مقدار حرص رسول الله ﷺ وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس.

لقد كان درس أبي جندل امتحانًا قاسيًا ورهيبًا لهذا الوفاء بالعهد أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحًا عظيمًا في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه، مما زاد في إيلامهم حتى إن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقًا منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجلف ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة.

وقد صبر أبو جندل واحتسب لمصابه في سبيل دينه وعقيدته، وتحقق فيه قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ (الطلاق)، فلم تمر سنة حتى تمكن مع إخوانه المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من قيود مكة، وأصبحوا قوة صار كفار مكة يخشونها، بعد أن انضموا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام[2].

وثمة موقف آخر - يُعدُّ من أوضح الأمثلة على وفائه ﷺ بعهده مع المشركين - حدث بعد عودة الرسول ﷺ من الحديبية إلى المدينة، ممثلًا في أبي بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي حليف بني زهرة، أفلت من قومه سائرًا على قدميه ساعيًا إلى المدينة، فكتب أزهر بن عبد عوف الزهري إلى رسول الله ﷺ كتابًا بعث به مع خنيس بن جابر العامري يذكر عهد الصلح ويطلب ردَّ أبي بصير إلى مكة، فقدم العامري إلى المدينة بصحبة دليل له يقال له: (كوثر) بعد أبي بصير بثلاثة أيام، فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهما، فقال: يا رسول الله، ترُدُّني إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فقال ﷺ: "يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يحل لنا في ديننا الغدر، وإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا"، فقال: يا رسول الله تردني إلى المشركين؟! قال: "انطلق يا أبا بصير، فإن الله سيجعل لك فرجًا ومخرجًا".

فسار أبو بصير معهما والمسلمون يشيّعونه، ويطيبون خاطره ويشجعونه، ولما أن وصل مع حارسيه إلى ذي الحليفة، وكان الوقت ظهرًا صلى أبو بصير صلاة المسافر، واشترك مع حارسيه في تناول بعض الطعام، وبحيلة ذكية استطاع أبو بصير أن يأخذ السيف، فقتل العامري، وهمَّ بقتل الرجل الآخر، ولكنه أفلت منه وخرج هاربًا يعدو إلى المدينة، وأبو بصير في أثره، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له: ويحك مالك؟ قال: قتل

---

١. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم ﷺ (١٨٩٣٠)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب الجزية، باب الهدنة على أن يرد الإمام من جاء بلده مسلمًا من المشركين (١٨٦١١)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على مسند الإمام أحمد (١٨٩٣٠).

٢. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٢، ص٤٠٦، ٤٠٧ بتصرف يسير.

والله صاحبكم صاحبي وأفلتُّ منه ولم أكد، وإني لمقتول، واستغاث برسول الله فأمنه، وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامري ودخل متوشحًا سيفه، فقال: يا رسول الله قد وفت ذمتك وأدى الله عنك، وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بديني من أن أفتن، فقال رسول الله ﷺ: "ويل أمه، مِسْعَر حرب[1] لو كان له أحد"[2].

فخرج أبو بصير ومعه خمسة كانوا قد قدموا معه مسلمين من مكة حتى انتهوا إلى سيف البحر.

فلما بلغ سهيلًا قتلُ أبي بصير للعامري اشتد، وقال: ما صالحنا محمدًا على هذا، وجرت في ذلك مناقشات حول دية القتيل ومن يتحملها، ومن العجيب أن أبا سفيان بن حرب كان من رأيه أن الرسول ﷺ غير مسئول عن دم القتيل.

ثم إن أبا جندل بن سهيل بن عمرو انفلت فخرج هو وسبعون راكبًا ممن أسلموا فلحقوا بأبي بصير؛ ولأن أبا جندل قرشي فقد سلَّم له أبو بصير الأمر، فكان أبو جندل يؤمهم في الصلاة، واجتمع إلى أبي جندل ناس من بني غِفَار وأسْلم وجهينة لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا من فيها، وضيَّقوا على قريش فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه. فأخذ أبو جندل يقول في ذلك شعرًا منه:

أَبْلِغْ قُرَيْشًا عن أَبي جَنْدَلٍ
أَنَّا بِذِي المَرْوَةَ في السَّاحِلِ
في مَعْشَرٍ تَخْفُقُ رَايَاتُهُم
بِالبِيْضِ فِيْهَا والقَنَا الذَّابِلِ[3]
يَأْبُونَ أنْ تَبْقَى لهم رِفْقَةٌ
من بَعْدِ إسلامِهِم الواصِلِ
أو يَجْعَلَ اللهُ لهم مَخْرَجًا
فَالحَقُّ لا يُغْلَبُ بالبَاطِلِ

ولما استشرى فزع قريش من أبي جندل، وأبي بصير، أرسلت قريش أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بصير وأبي جندل ومن معهم، وقالوا - وهنا تقع المفارقة العظمى -: من خرج منا إليك فأمسكه فهو لك حلال غير حرج أنت فيه، وقال أبو سفيان -: فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابًا لا يصلح إقراره، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي بصير، وأبي جندل يأمرهما أن يقدما عليه، ويأمر من معهما ممن اتبعهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم فلا يتعرضوا لأحد مرَّ بهم من قريش وعيرانها، فقدم كتاب رسول الله إلى أبي بصير وهو يموت، فجعل يقرؤه ومات وهو في يديه، فدفنه أبو جندل، وجعل عند قبره مسجدًا، وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعه ناس من أصحابه، ورجع سائرهم إلى أهليهم، وأمنت بعد ذلك عَيَرَات قريش[4].

وهكذا يتضح مدى وفائه ﷺ للعهد مع المشركين، وبعد هذا البيان الأخلاقي الرفيع الذي يؤكد التزامه ﷺ بعهده مع المشركين، هل بتلك الأخلاق يكون

---

١. مِسْعَر حرب: مُوقِدها.
٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١).
٣. القَنَا الذَّابِل: الرِّماح الدقيقة.
٤. البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص٢٢٥: ٢٢٧ بتصرف يسير.

الرسول ﷺ انتهازيًّا؟!

وماذا يقول المدَّعون في ردِّ النبي ﷺ لأبي بصير وأبي جندل؟ أليس هذا قمة الوفاء بالعهد؟!

ثانيًا. إن قريشًا هي التي نقضت عهدها مع النبي ﷺ:

لقد كان من بنود صلح الحديبية بندٌ يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها فليدخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءًا من ذلك الفريق، فأي عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق[1]، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

والسبب في دخول خزاعة في عقد رسول الله ﷺ أن خزاعة كانت حليفة جده عبد المطلب حين تنازع مع عمه نوفل في ساحات وأفنية من السقاية كانت في يد عبد المطلب، فأخذها منه نوفل، فاستنهض عبد المطلب قومه فلم ينهض معه منهم أحد، وقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، ثم كتب إلى أخواله بني النجار فجاء منهم سبعون، وقالوا: وربِّ هذه البنية ـ الكعبة ـ لتَرُدنَّ على ابن أختنا ما أخذت منه، وإلا ملأنا منك السيف، فرَدَّه، ثم حالف نوفل بني أخيه عبد شمس، وحالف عبد المطلب خزاعة، وكان النبي ﷺ عارفًا بذلك، ولقد جاءته خزاعة يوم الحديبية بكتاب جده عبد المطلب فقرأه عليه أُبَي بن كعب ﷺ فأقرَّهم رسول الله ﷺ.

وقد كان بين بني بكر وبين خزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، وتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت هدنة الحديبية، ووقف القتال بين المسلمين وقريش، اغتنمتها طائفة من بني بكر يقال لهم "بنو نفاثة"، ذلك أن شخصًا منهم هجا رسول الله ﷺ وصار يتغنَّى بالهجاء، فسمعه غلام من خزاعة، أي من القبيلة التي دخلت في عقد رسول الله، فثارت ثائرته فضربه وشجه، فثار الشرُّ بين القبيلتين، فطلب بنو نفاثة من أشراف قريش أن يُعِينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوهم، فجاءوا خزاعة ليلًا وهم آمنون على ماء لهم يقال له "الوتير" وقتلوا منهم عشرين، أو ثلاثة وعشرين، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيًا، منهم: صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزَّى، وعكرمة بن أبي جهل، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وهؤلاء أسلموا جميعًا بعد ذلك، وما زالوا بهم حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة، فلما ناصرت قريش بني بكر على خزاعة، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من الميثاق، ندموا وجاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان وأخبره بما فعل القوم، فقال: "هذا أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، وإنه لشر، والله ليغزونا محمد، ولقد حدثتني هند بنت عتبة ـ يعني زوجته ـ أنها رأت رؤيا كرهتها، رأت دمًا أقبل من الحجون ـ اسم مكان بمكة ـ يسيل حتى وقف بالخندمة ـ اسم مكان آخر بمكة ـ فكره القوم ذلك"، وهذا القول يبين مقدار جرم ما فعلته قريش مع حلفاء رسول الله ﷺ.

وعند ذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي ـ سيد

1. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٣٩٤.

خزاعة - حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ودخل المسجد، ووقف على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين الناس، وأنشد:

يَـــا رَبِّ إِنِّي نَاشِـــدٌ مُحَمَّـــدًا
حِلْـفَ أَبِيْنَـا وَأَبِيْـهِ الأَتْلَـدَا[1]
قَـدْ كُنْـتُمْ وَلَـدًا وَكُنَّـا وَالِـدَا
ثَـمَّـتَ أَسْلَمْنَا فَلَـمْ نَنْـزَعْ يَـدَا
فَانْـصُرْ هَـدَاكَ اللهُ نَـصْرًا أَعْتَـدَا
وَادْعُ عِبَــادَ اللهِ يَــأْتُوا مَــدَدَا
فِـيْهِمْ رَسُــولُ اللهِ قَـدْ تَجَـرَّدَا
إِنْ سِـيْمَ خَـسْفًا وَجْهُـهُ تَرَبَّـدَا[2]
فِي فَيْلَقٍ كَالبَحْرِ يَجْـرِي مُزْبِـدَا[3]
إِنْ قُرَيْــشًا أَخْلَفُــوكَ الْمَوْعِــدَا
وَنَقَــضُوا مِيْثَاقَــكَ الْمُوَكَّــدَا
وَجَعَلُــوا لِي كَــدَاءَ[4] رَصَــدَا
وَزَعَمُـوا أَنْ لَـسْتُ أَدْعُـو أَحَـدًا
وَهُـــمْ أَذَلُّ وَأَقَــلُّ عَــدَدَا
هُـمْ بَيَّتُونَـا بِـالوَتِيْرِ[5] هُجَّـدَا[6]
وَقَتَلُونَــا رُكَّعًــا وسُــجَّدَا

فقال رسول الله ﷺ: "نُصرت يا عمرو بن سالم"، ودمعت عيناه، وفي رواية: فقام ﷺ وهو يجر رداءه ويقول: لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب"[7]. وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بني كعب غضبًا لم أره غضبه منذ زمان، ثم قال ﷺ لعمرو بن سالم وأصحابه بعد أن علم منهم حقيقة ما حدث: ارجعوا وتفرقوا في الأودية فرجعوا وتفرقوا، وكان عددهم نحو أربعين راكبًا من خزاعة، وقصد رسول الله ﷺ بتفرقهم إخفاء مجيئهم[8].

ومما سبق يتضح سوء ما فعلته قريش؛ لنقضهم العهد، وسفكهم لدماء بني خزاعة، الذين هم في عقد النبي ﷺ وعهده، واستحلالهم لدمائهم رغم المعاهدة، وما تنص عليه، فغضب النبي ﷺ لذلك أشد الغضب، ولا شك أن ما فعلته قريش وحلفاؤها كان غدرًا محضًا ونقضًا صريحًا للميثاق لم يكن له أي مسوِّغ، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، وعقدت مجلسًا استشاريًّا، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلًا لها، ليقوم بتجديد الصلح.

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بُنَيَّة، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، فقال: والله لقد

١. الأتلَد: القديم الأصيل.
٢. تربَّد: احمرَّ غضبًا.
٣. المُزبِد: الهائج.
٤. كَداء: اسم موضِع في مكة.
٥. الوتير: اسم عين ماء.
٦. الهُجَّد: النائمون.

٧. إسناده حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها (٤٣٨٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب المغازي والسير، باب غزوة الفتح (١٠٢٢٧)، وحسَّن إسناده حسين سليم أسد في تعليقات مسند أبي يعلى.
٨. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٣٠٣، ٣٠٤ بتصرف يسير.

أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ والله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، وعندها الحسن غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمسُّ القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير على رسول الله ﷺ أحد.

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئًا يغني عنك. ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الْحَقْ بأرضك، قال: أوترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما ردَّ علي شيئًا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو، ثم جئت عليًّا فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئًا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك[1]. وهكذا نجد أن قريشًا قد أحست بجريمتها، فأرسلت أبا سفيان لإرضاء الرسول ﷺ وتجديد العهد، ولكن أنَّى يهدر النبي ﷺ دماء حلفائه وينسى ذِمَّتهم؛ لهذا كان عدلًا من النبي ﷺ أن سارع إلى الثأر لقتلى حلفائه، واستنقاذ بيت الله الحرام من أيدي المشركين، فهل بعد هذا يكون النبي ﷺ قد انتهز هذه الفرصة لغزو مكة ودخولها®؟!

الخلاصة:

- لقد كان الرسول ﷺ أرفع الناس خلقًا، فقد أثنى عليه الله ﷻ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم)، وكان مما اشتهر به النبي ﷺ من حفظه للعهد، وسيرته العطرة خير شاهد على ذلك، فلقد عقد النبي ﷺ عهودًا مع اليهود والمشركين، فلم يبادر إلى نقض عهد شدّه، ولكنهم هم الذين نقضوا العهود، وكان يلتزم بما تنص به عهودهم، وكيف لا يلتزم وشريعته التي يحملها هي الداعية إلى الوفاء بالعهد،

١. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص ٣٩٥: ٣٩٧.

® في **"نقض قريش لصلح الحديبية"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المؤمنون)، وكثير من الآيات تحث على حفظ العهد، وتعلي مكانة المحافظين عليه، ويكفي الطاعنين ردًّا عليهم: أن رسول الله ﷺ التزم بعهده مع المشركين، وردَّ عليهم أبا جندل وأبا بصير، فذاك إنما يدل على الالتزام التام بالعهد، ويدل على الخلق الرفيع للنبي ﷺ.

- إن الخيانة جاءت من قريش وحليفتها الذين اعتدوا على قبيلة خزاعة - الذين كانوا في عقد النبي ﷺ وعهده - رغم أن بنود المعاهدة تقتضي أن من دخل في عهد قريش فهو منهم، ومن دخل في عهد المسلمين فهو منهم، وينطبق عليهم شروط العهد، ولكن مشركي قريش أخلفوا المعاهدة، ولما أحسوا بذلك أرسلوا أبا سفيان ليجدِّد العهد مع النبي ﷺ، وذلك لإحساسهم بجرم ما فعلوا مع خزاعة وفحشه، فكيف يكون النبي ﷺ انتهازيًّا وقد وفي بعهده رغم أن بنوده لم تكن - ظاهريًّا - في صالحه؟!
- لقد نقض المشركون عهدهم مع رسول الله ﷺ وقتلوا عشرين من حلفائه حتى ألجئوهم إلى الحرم، فكيف يسكت عنهم ولا يناصر من دخل في حلفه؟

الشبهة السادسة عشرة

الزعم أنه ﷺ اغتاب بعض صحابته بدافع الحقد(*)

مضمون الشبهة:

يتهم بعض المغرضين النبي ﷺ بأنه كان يغتاب صحابته حينًا ويبهتهم حينًا آخر، ويمثلون لذلك بأنه لما جاءته فاطمة بنت قيس تستطلع رأيه في خاطبَيْن تقدَّما لها - هما: أبو جهم بن هشام ومعاوية بن أبي سفيان - فقال لها النبي ﷺ: "أمَّا أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له"، ويُرجعون هذا الحقد المزعوم إلى أن معاوية قد حارب النبي ﷺ كثيرًا وكاد له، وعاون والده أبا سفيان في محاولات اسْتِئْصال شأفة محمد ﷺ. ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في إخلاصه ﷺ لأصحابه، ووصمه أنه ﷺ كان يشهِّر ببعضهم.

وجوه إبطال الشبهة:

1) كان من كمال خلق النبي ﷺ إغضاؤه عمَّا لا يحب، وعفوه عند المقدرة، وخلوُّ قلبه من الغل والحقد لأي أحد حتى الذين آذوه وحاربوه، فما بالنا بأصحابه رضي الله عنهم.

2) لقد عفا النبي ﷺ عن أبي سفيان بن حرب وسائر أهل مكة رغم عدائهم الشديد له وللمسلمين؛ بل إنه عظَّم قدر أبي سفيان وداره يوم الفتح الأكبر، فأين هو الحقد المزعوم؟

3) بيان النبي ﷺ لحال معاوية حينما سألته السيدة

(*) شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، مرجع سابق.

عن أمر الخطيبَيْن مشروع للنصيحة، وليس في وصفه بالصَّعْلكة انتقاص من شأنه؛ إذ الصعلوك هو الفقير، خلافًا لما اكتسبه هذا اللفظ من دلالات مذمومة، ثم إنه لا دليل لدى هؤلاء على كيد معاوية للنبي ﷺ واشتراكه في الحرب ضده.

التفصيل:

أولا. كان من كمال خلقه ﷺ إغضاؤه عمًّا لا يحب، وخلو قلبه من الغل والحقد:

ورد النهي عن الحقد والغل متمثلًا في الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تذم الحقد والغل ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر)، وقوله ﷻ أيضًا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الأعراف)، وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: "كل مخموم القلب صدوق اللسان"، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال ﷺ: "هو التقي النَّقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد"[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"[2].

وعن الزبير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم؛ الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين"[3]. وعن ضمرة بن ثعلبة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزال الناس بخير؛ ما لم يتحاسدوا"[4][5].

فقد كان ﷺ يحثُّ على نبذ الغل والحقد وينهى عنهما، ومن ثم فهو أسمى وأكبر من أن يأتي هذه الخصال الذميمة، وما تصديق الناس له، وإيمانهم به، واقتناعهم بدعوته ﷺ إلا دليلٌ ساطع على سمو خلقه، فهو الصادق المصدوق الذي لا يقول إلا ما يفعل دائمًا.

وكان من كمال خلقه ﷺ إغضاؤه عما لا يُحب، وعفوه عند المقدرة، فقد كان ﷺ وافر الحلم والاحتمال، كثير الفضل والإفضال، يَصِل من يقطعه، ويُعطي من

---

١. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى (٤٢١٦)، والطبراني في مسند الشاميين، كتاب زيد بن واقد الدمشقي، باب زيد عن مغيث بن مسمى (١٢١٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٨).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٥٧١٨)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر (٦٦٩٠)، واللفظ له.

٣. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند الزبير بن العوام ﷺ (١٤٣٠)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه (٢٥١٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٨٨).

٤. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الضاد، ضمرة بن ثعلبة السلمي ثم البهزي من أخباره (٨١٥٧)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الأدب، باب ما جاء في الحسد والظن (١٣٠٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٨٦).

٥. وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ج٢، ص٤٤٠: ٤٤٢ بتصرف.

منعه، ويبذل لمن حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ويغض طرفه عن القَذَى، ويحبس نفسه عن الأذى، ويصبر على ما يشق ويكره، ولا يزيد مع أذى الجاهل إلا صبرًا وحلمًا، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، ولم يؤاخذ الذين كسروا رباعيته في أُحد، بل دعا لهم وعفا عنهم، وكم عفا عن مثلهم، وتجاوز عما بدا من المنافقين في حقه قولًا وفعلًا، ولم يقابل من شتمه ولا من أراده بسوء طَوْلًا وفضلًا.

وقد جاء عن أبي هريرة أنه قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: "دعوه وهَرِيقوا على بوله سَجْلًا من ماء أو ذَنوبًا[1] من ماء، فإنما بعثتم مُيسِّرين ولم تبعثوا مُعسِّرين"[2].

وهكذا يتبين لنا أن النبي ﷺ كان يدفع السيئة بالحسنة، ويعفو عمن أساء، فلم يكن ﷺ يحمل حقدًا ولا كراهية لأحد كما يزعمون.

ثانيًا. عفو النبي ﷺ عن أبي سفيان وسائر أهل مكة يوم الفتح:

لقد نال النبي ﷺ من العفو الثريا، فهذه قريش قد بالغت في أذاه ﷺ وأحكمت قبضتها منه، ثم أخرجته من بين أهله وعشيرته.. قتلوا من أصحابه في يوم أحد سبعين وجرحوا آخرين.. وجُرح ﷺ وكُسرت رَباعيته، وشُجَّ وجهه ﷺ وهو يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، قال عبد الله بن مسعود: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[3].

ثم أمكنه الله منهم فعاد فاتحًا مكة، ومعه أكثر من عشرة آلاف معهم السيوف مسلطة على رءوس قريش[4]، وهم الذين طالما عذبوه وآذوه هو وأصحابه ﷺ، فلم يلق أحد من الإهانة والإيذاء والصدود مثل ما لاقاه النبي ﷺ في مكة من أهلها، فلو أن أي إنسان آخر تعرَّض لمثل ما تعرض له النبي ﷺ لتحيَّن الفرص لينتقم لنفسه ويشفي غليله، لكنه النبي محمد ﷺ الرحمة المهداة للبشر جميعًا، بل للمخلوقات جميعًا، قابل الإساءة بالإحسان، والظلم بالعدل، والإهانة بالإكرام، والبغض بالحب، فقد رُوي أنه ﷺ قد وقف يوم الفتح على باب الكعبة، وقد تكاثر الناس في المسجد، وأوجس المشركون خيفة، وكادت تغص حلوقهم بقلوبهم من شدة الخوف، وصارت أبصارهم مشدودة إلى الرسول ﷺ، ولكن المظلوم المنتصر أبى إلا أن يضرب مثلًا نادرًا في العفو، فقام خطيبًا، وكان مما قال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾[5][6].

---

١. السَّجل والذَّنوب: بمعنى الدلو المملوء ماء.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (٢١٧)، وفي مواضع أخرى.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ..﴾ (الكهف: ٩) (٣٢٩٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٧).

٤. موسوعة من أخلاق الرسول، محمود المصري، مرجع سابق، ص٧٨٥ بتصرف يسير.

٥. التثريب: اللَّوم.

٦. حسن: أخرجه النسائي في سننه الكبرى، كتاب التفسير سورة الإسراء (١١٢٩٨)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب السير، باب فتح مكة حرسها الله تعالى (١٨٠٥٤)، وحسنه الألباني في فقه السيرة (١/ ٣٧٦).

ألا ما أجمل العفو عند المقدرة، وما أعظم النفوس التي تسمو على الأحقاد، وعلى الانتقام، بل تسمو على أن تقابل السيئة بالسيئة، ولكن تعفو وتصفح، والعفو عن قوم طالما عذبوه وأصحابه، وهمُّوا بقتله مرارًا، وأخرجوه وأتباعه من ديارهم وأهليهم وأموالهم، ولم ينفكوا عن محاربته، والكيد له بعد الهجرة!!

إن غاية ما يُتوقَّع من نفس بشرية كانت مظلومة فانتصرت أن تقتص من غير إسراف في إراقة الدماء، ولكنه النبي، والنبوة من خصائصها كبح النفس ومغالبة الهوى، والعفو والصفح والسماح، أليس من صفاته التي بشَّرت بها التوارة أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يقابل السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح؟

لقد ضرب النبي ﷺ بعفوه عن أهل مكة للدنيا كلها، وللأجيال المتعاقبة مثلًا في البر والرحمة، والعدل والوفاء، وسمو النفس، لم تعرفه الدنيا، ولن تعرفه في تاريخها الطويل[1].

وأبو سفيان الذي كان من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام أراد الله الهداية له، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه الرسول ﷺ في فتح مكة وأعلن: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"[2][3]. فلو كان النبي ﷺ يضمر لأبي سفيان حقدًا لمعاداته إياه قبل إسلامه، لقتله أو حطَّ من قدره، ولم يمنحه هذا الشرف بين قومه®.

ثالثًا. بيان النبي ﷺ لحال معاوية ليس فيه انتقاص من شأنه:

إن بيان عيوب أحد الخطيبين لمن سأل، إنما هو من حقوق المسلم على المسلم، ولا يُعدُّ غيبة، مع شرط حسن النية.

وعن فاطمة بنت قيس أنها عندما خلت من عدتها بعد طلاقها من زوجها أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، ذكرت للنبي ﷺ أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جَهم بن هشام خطباها، فقال ﷺ: "أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه (وفي رواية: فرجل ضرَّاب للنساء)، وأما معاوية فصعلوك لا مال له (وفي رواية: فرجل ترب لا مال له)، انكحي أسامة بن زيد"، فنكحته فجعل الله في ذلك خيرًا واغتبطت به"[4]. فهذا الحديث يبين لنا ما ينبغي على المسلم أن يفعله إذا سئل عن حال الخطيبين فينبغي عليه أن يقول الصدق، وأن يخبر بالحقيقة التي يعرفها، وليبين العيب الذي فيهما، ولا يُعدُّ هذا غيبة؛ فهو مشروع للنصيحة، على أن هذا من حق المسلم على المسلم الذي جاء في الحديث الشريف، ومنه: "وإذا استنصحك فانصح له"[5].

والذي يُخرجه من تبعة النهي عن الغيبة هو النية

---

1. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٤٤٧، ٤٤٨ بتصرف.
2. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٤٧٢٤).
3. معاوية بن أبي سفيان، د. علي الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، ص٢٨.

® في "تسامح النبي ﷺ مع أعدائه وعفوه عند المقدرة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

4. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها (٣٧٧٠).
5. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام (٥٧٧٨).

والقصد، فالأعمال بالنيات، فليكن القصد من ذكر العيوب إسداء النصح و التحذير من الوقوع في الخطر، ولا يقصد التشفِّي والقدح والانتقام من المتحدث عنه وتشويه سمعته[1].

أما وصفه ﷺ لمعاوية بالصعلكة فليس انتقاصًا من شأنه، إذ الصعلوك هو الفقير، خلافًا لما اكتسبه هذا اللفظ من دلالات مذمومة، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ بعد قوله: "وأما معاوية فصعلوك"، قال: "لا مال له"، وجاء في لسان العرب: "الصعلوك: الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري: ولا اعتماد، قال حاتم طيِّئ:

غَنِينا[2] زمانًا بالتَّصَعْلُكِ[3] والغِنَى
فكلًّا سقاناه بكأسيهما الدَّهرُ

وقد يقال: كيف يكون معاوية صعلوكًا لا مال له رغم غنى أبيه؟ ولكننا نقول: لقد أعلن رسول الله ﷺ هذا الكلام على ملأ من الناس، ولم يراجعه أحدٌ أو يعلِّق على ما قال، كما أن غنى الأب لا يستتبع بالضرورة غنى الابن، ثم إن معاوية لم يكن يسكن في بلاد واق الواق فيقال إن السيدة المذكورة لم تكن تستطيع أن تكشف حقيقة أمره لو افترضنا أن الرسول ﷺ قد ضللها.

ثم إن أبا سفيان كان رجلاً شحيحًا ممسكًا، حتى لقد اشتكت زوجته وقالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فأجابها بأن من حقها أن تأخذ منه ما يكفيها هي وولدها بالمعروف.

فقد اشتهر أبو سفيان إذن ببخله وشحه، ولم يكن ابنه معاوية مُخَوَّلًا بالتصرف في مال أبيه، ويعضد هذا ما يذكر عن معاوية من أن شخصيته كانت تعيش في ظل شخصية أبيه طوال حياة ذلك الوالد، ثم برزت بروزا جليًّا بعد مماته.

وعلى ذلك فعندما يقول سيد البشر ﷺ عن معاوية إنه صعلوك - أي فقير - فهو يقرر حقيقة لا ينكرها أحد.

أما زعمهم أن معاوية كان قد اشترك مع أبيه وقومه في حرب النبي ﷺ والكيد له، فإننا نقرأ أخباره في مظانها المختلفة فلا نعثر على إشارة إلى اشتراكه معهم في حربه ﷺ، بل نجد فقط ذكرًا لاشتراكه في غزوات الإسلام، بعد دخوله فيه عام الفتح، بدءًا من حنين فصاعدًا[4].

بل تذكر بعض المصادر أن إسلامه كان مبكرًا عن الفتح؛ يقول معاوية: "أسلمتُ يوم القضية - أي عمرة القضاء سنة ٧هـ - ولكن كتمت إسلامي من أبي، ثم علم بذلك، فقال لي: هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه، فقلت له: لم آل نفسي جهدًا، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرتُ إسلامي، فجئته فرحب بي

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١، ص٢٨٦ بتصرف يسير.

٢. غَنِينا: عِشنا.

٣. لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، د. ت، مادة: صعلك.

٤. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص٢٤٧: ٢٥٠ بتصرف.

وكتبت بين يديه".

وقد شهد معاوية ﷺ مع رسول الله ﷺ حُنَيْنًا، وأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الذهب، وقد دعا له الرسول ﷺ بقوله: "اللهم اجعله هاديًا مهديًّا واهد به"[1]. وقال ﷺ: "اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقِهِ العذاب"[2]. وكان معاوية ﷺ يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، وكذلك رسائل النبي ﷺ إلى زعماء القبائل[3].

فلو كان النبي ﷺ يضمر حقدًا على معاوية أو يريد الانتقام منه، فلماذا لم يقتله عام الفتح فيستريح منه؟! ولماذا يقرِّبه ويغدق عليه، ويجعله واحدًا من كتَّابه ويستأمنه على كتابة الوحي؟!

إذن فالأمر ليس كما زعم هؤلاء من أنه ﷺ وصفه بالصعلكة بدافع من الحقد عليه ورغبة في الانتقام منه.

الخلاصة:

- الرسول ﷺ أسمى من أن يحقد على أحد، أو يريد الانتقام من أحد؛ فقد كان النبي ﷺ وافر الحلم والاحتمال، صبورًا على الأذى، ويغضُّ الطرف عن القَذَى، ويعفو عمن ظلمه، وقد عفا عن أهل مكة بعد الفتح وفيهم أبو سفيان بن حرب وغيره، وقد كان بوسعه أن يبيدهم جميعًا.. إلا أنها رحمة رسول الله ﷺ!!
- بيان النبي ﷺ حال معاوية بن أبي سفيان حينما سألته فاطمة بنت قيس عن أمر من أراد خِطبتها مشروع للنصيحة، ولا ينبغي لمن يُسأل في مثل ذلك أن يخفي ما يعلم، أما وصفه ﷺ لمعاوية بالصعلكة فليس انتقاصًا من أنه ﷺ؛ لأن الصعلوك في اللغة هو الفقير، خلافًا لما اكتسبه هذا اللفظ من دلالات مذمومة عند الناس.
- لا دليل على أن معاوية بن أبي سفيان اشترك مع أبيه وقومه في حرب النبي ﷺ حتى يحقد عليه النبي ﷺ؛ بل إن النبي ﷺ دعا له وقرَّبه حتى جعله من كتبة الوحي، وشارك معاوية في الغزوات وأغدق عليه النبي ﷺ من الغنائم، وفي هذا خير دليل على نَفْي ادعاء المغرضين أنه ﷺ أراد الانتقام منه ﷺ.



---

1. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عبد الرحمن بن أبي عميرة الأزدي ﷺ (١٧٩٢٦)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب مناقب لمعاوية بن أبي سفيان (٣٨٤٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٦٩).
2. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ (١٧١٩٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (٧٢١٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٢٧).
3. معاوية بن أبي سفيان، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ص٤٥ : ٤٨ بتصرف.

الشبهة السابعة عشرة

الزعم أن النبي ﷺ كان متكبرًا على أصحابه منتقصًا من قدرهم(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن النبي ﷺ كان متكبرًا على أصحابه منتقصًا قدرهم؛ إذ كان يمارس نفوذه عليهم، ويستبد بالرأي دونهم، ويرون أن في تصرفاته ﷺ مع أصحابه ما يثبت أن روح الكبر والزهو والتعالي كانت تسيطر عليه.

ويستدلون على ذلك بثناء كثير من آيات القرآن الكريم عليه، وتفضيلها إياه على سائر البشر من جهة، وتمجيد المسلمين له، وتعظيمهم إياه من جهة أخرى لاقى عنده رغبة وهوى، فتمادى في زهوه، وتقديس ذاته، وازداد انتقاصه لأصحابه فسماهم "الصحابة"، ولم يسمهم "الإخوان"؛ لأن الأخوة تعني المساواة به، وهو لا يريد ذلك، في حين فضَّل عليهم أتباعه الذين يأتون من بعدهم؛ وذلك حين قال: "وددتُ أني لقيت إخواني"، فقال أصحابه: أولسنا إخوانك؟ قال: "أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني". ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام النبي ﷺ بالزهو والتعالي؛ بغية التشكيك في تقديره لأصحابه، والطعن في أخلاقه ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إنَّ قرائن الواقع وشواهد التاريخ لدالَّة على عظيم تواضع النبي ﷺ مع أصحابه، والمطالِع لسيرته ﷺ يراه مُتعهِّدَ حاضرهم، سائلًا عن غائبهم، مُجالس فقيرهم، مُعِين ضعيفهم، عائد مريضهم، مُشَيِّع مَيِّتهم، مشبع جائعهم، كاسي عاريهم، راعي أراملهم وأيتامهم.

٢) ما كان النبي ﷺ ليفرض نفوذه على أتباعه، وهو الذي أرسى مبدأ الشورى واختار أن يكون عبدًا رسولًا، وإن في تعظيم الصحابة وحبهم له ﷺ في حياته وبعد مماته ما يدل على ما كان من ودِّه وتواضعه معهم.

٣) إنَّ القرآن الكريم الذي أثنى على النبي محمد ﷺ في بعض الآيات هو نفسه الذي أقرَّ بشريته وأكد عبوديته لله ﷻ في آيات أخرى.

٤) إنَّ تَفْريق النبي ﷺ بين الصُّحْبة والأُخُوَّة لا يحمل أي انتقاص لقدر الصحابة ﭫ؛ لأن الأُخُوَّة لا تعني المساواة والمماثلة كما يظنون. ثم إن منزلة الصحبة أعلى المنازل في الإسلام بعد النبوة.

٥) إنَّ اشْتياق النبي ﷺ لأتباعه الذين لم يروه وتسميتهم بـ "إخوانه" لا يعني تفضيلهم على أصحابه؛ لأن النبي ﷺ كان يصف حالة وجدانية شعورية تُعبِّر عن شوقه لرؤية أمته كلها بما فيهم صحابته.

٦) بالاحتكام إلى العقل والمنطق نجد أن الصحابة هم أفضل هذه الأمة؛ وذلك لأنهم الجيل الأول الذي تربَّى على يدي رسول الله ﷺ، وبرزت فيه خصائص الشخصية المسلمة الكاملة.

(*) حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، ترجمة: عبد العزيز جاويد، وعبد الحميد العبادي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م. تاريخ الشعوب العربية، د. ألبرت حوراني، ترجمة: نبيل صلاح الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م. شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، مرجع سابق. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. إنَّ كل قرائن الواقع وشواهد التاريخ تدل على عظيم تواضع النبي ﷺ مع أصحابه:

إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ وفي تعامله مع أصحابه وغيرهم يجده أبعد الناس عن الكبر والزهو والتعالي، بل إن كل تصرفاته ﷺ تدل على شدة تواضعه ﷺ ولين جانبه مع الناس أجمعين، فما بالنا مع أصحابه، ولم لا وقد أوصى الله رسولَه بالمؤمنين خيرًا؛ فقال ﷺ أيضًا: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾ (الشعراء)، وقد استجاب النبي ﷺ لأمر ربه؛ "فكان ﷺ رءوفًا رحيمًا بهم، يتعهد حاضرهم، ويسأل عمَّن غاب منهم، ويسلم عليهم، ويُشمِّت عاطسهم، ويواسي فقيرهم، ويعين ضعيفهم، ويشاركهم في السراء والضراء، ويعود مريضهم، ويُشَيِّع ميِّتهم، ويكسو عاريَهم، ويُشبع جائعهم، ويرعى أراملهم وأيتامهم، ويجالس فقراءهم والأعبد منهم، ويُحنِّك أطفالهم، ويبارك عليهم، ويداعب صبيانهم ليدخل السرور على نفوسهم.

وتروي كتب السِّير أنه ما رُئي ﷺ مادًّا رجليه بينهم، ولا عابسًا في وجه أحد منهم، ولا استأثر عليهم بشيء لنفسه ولا لأهله، ولما عرض عليه شريكاه في ركوب البعير في غزوة بدر أن يعفياه من نوبته في المشي أبى، وقال: "ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما"[(١)]. وفي حجة الوداع ذهب ليشرب من السقاية، فأراد عَمُّه العباس أن يميزه بشراب خاص من البيت، فأبى وقال: "لا حاجة لي فيه، اسقوني مما يشرب منه الناس"[(٢)(٣)].

"وكان من أخلاقه ﷺ السامية التي تحلَّى بها التواضع، وخفض الجناح لمن تبعه من المؤمنين، فقد كان ﷺ من أكثر الناس تواضعًا، ومن أشدهم كراهية للكبر والتعالي على الأصحاب؛ لذا ذم الكبر، والمتكبرين في كثير من أقواله، بل وتوعَّد بالعذاب هذا الصنف من الناس، إذ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[(٤)].

وهذا الخلق السامي الذي اتصف به ﷺ عرفه كل من عاصره وعاشره، فقد عاش مع أصحابه كواحد منهم، لم يتميز عنهم في شيء من الأشياء، يأكل مما يأكلون، ويلبس مما يلبسون، ويجلس معهم على الأرض كما يجلسون، حيثما انتهى به المجلس جلس، لا يستنكف أن يجالس الفقراء والمساكين، يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، يأكل مع الخادم، ويركب الحمار، إلى غير ذلك من مظاهر التواضع وخفض الجناح الذي اشتهر به ﷺ"[(٥)].

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود (٣٩٠١)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب السير، باب الاعتقاب في الدابة (٨٨٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٥٧).

٢. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الأشربة، باب في الرخصة في النبيذ ومن شربه (٢٣٨٦٦)، وأحمد في مسنده، من مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ (١٨٤١)، وصححه الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد (١٨٤١).

٣. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٣٧ بتصرف.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٢٧٧).

٥. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٤٠.

وغنيٌّ عن الذكر أنه كان يركب البعير والحمار، ويردف وراءه غيره، ولا يقبل أن يسير أحد وراءه وهو راكب، وقد حج على رَحْلٍ رَثٍّ، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، وقال: "اللهم اجعله حجًّا لا رياء فيه ولا سمعة"،[1] ودخل عليه رجل فأصابته من هَيْبته رعدة، فقال له: "هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[2][3]. وهو ﷺ أشد الناس تواضعًا، وأبعدهم عن الكبر والخُيَلاء، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: يا رسول الله، كُلْ جعلني الله فداك متكئًا؛ فإني أهوِّن عليك، فأحنى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض وقال: "إنما أنا عبدٌ، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد"[4][5].

وكان ﷺ يحمل حاجته من السوق بنفسه، وكانت تقابله المرأة في سكك المدينة فتستوقفه فيقف حتى يقضي لها حاجتها، وعن أنس قال: "إن كانت الأمة ـ الجارية ـ من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت"[6].

وهذا الجانب العظيم من شخصيته جعله يرفض كل مظاهر التعظيم والتفخيم من القيام وتقبيل الأيدي، والإطراء، والألقاب، وغير ذلك من الأمور التي يلهث خلفها الحكام السياسيون.

وكان ﷺ أحب الناس إلى أصحابه غير أنهم لم يكونوا يقومون له لكراهيته ذلك، وقدم على رسول الله ﷺ وفد من بني عامر، فلما كانوا عنده قالوا: أنت سيدنا فقال: "السيد الله تبارك وتعالى"، فقالوا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طَوْلًا، فقال: "قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُم[7] الشيطان"[8]. وهذا كراهية منه للإطراء والألقاب.

ومن تواضعه ﷺ أنه كان إذا دخل على جماعة جلس، حيث ينتهي به المجلس، وحثَّ أصحابه على ذلك، وكان يوسِّع لهم في المجلس، ويمسهم بجناح الرحمة، ويسوي بينهم، ويلين جانبه لهم، ويغضُّ الطرف عما لا يحسن إلا أن يكون في السكوت ترك لواجب الإرشاد، وإن أرشد ففي رفق، يكتفي بالإشارة، فإن لم يكف كان التعريض، فإن لم يكف كان التنبيه في تعميم، فإذا رأى بعض الناس يسيء لا يواجهه بالإساءة، بل يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، ولا شك أنه إذا كان

١. صحيح: أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب المناسك، باب الاستعاذة في الموقف من الرياء والسمعة في الحج إن ثبت الخبر (٢٨٣٦)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٨٨).

٢. القَدِيد: اللَّحم المُشقَّق المُجفَّف.

٣. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢)، والطبراني في الأوسط، باب الألف، من اسمه محمد (١٣١٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).

٤. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب أهل الكتابين، باب الأكل متكئًا (١٩٥٥٤)، وأبو يعلى في مسنده، تابع مسند عائشة رضي الله عنها (٤٩٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٤).

٥. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٥٦، ٦٥٧ بتصرف.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر (٥٧٢٤).

٧. يستجري: يغلب.

٨. صحيح: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، كتاب الخدم والمماليك، باب هل يقول: سيدي (٢١١)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح (٤٨٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١٥٥).

التوبيخ فيه معنى العموم كان ألطف، وكان مع ذلك أفعل وأبلغ أثرًا[1].

وقد كان تواضعه ﷺ شهادة على عظمته، فهو تواضع يخمد النفس ويذيبها، ويبطل أنانيتها، وتنقلع به شجرة الرياسة والكبر من النفس، فلا يأخذ الزهو والغرور من النبي ﷺ حظه، بل كان ﷺ سيد المتواضعين، وله في ذلك المثل الكامل والحظ الوافر[2].

وكان يدنو ﷺ من المريض ويجلس عند رأسه، ويسأله عن حاله، ويقول: "لا بأس عليك، طهور بإذن الله"[3].

وعن زهد النبي ﷺ وتواضعه ما رواه عبد الله بن بريدة فقال: سمعت أبي بريدة يقول: بينما رسول الله ﷺ يمشي جاء رجل ومعه حمار فقال: يا رسول الله، اركب. وتأخّر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: "لأنت أحق بصدر دابتك مني إلا أن تجعله لي"، قال: فإني قد جعلته لك قال: فركب[4].

فهل يحق لأحد بعد هذا أن يقول إن محمدًا ﷺ كانت تغلب عليه روح الكبر والتعالي، ويمارس نفوذه على أصحابه، مكذّبين بذلك كتب السِّيَر والشمائل والتاريخ.

وقد فُتحت عليه الدنيا ودانت له الجزيرة كلها فما أخرجه ذلك عن تواضعه وخلقه، ولما دخل مكة فاتحًا منتصرًا طأطأ رأسه حتى لتكاد تمس مقدمة الرَّحل تواضعًا لله تعالى، إلى غير ذلك من الأخبار الصحاح والحسان التي زخرت بها كتب الحديث والسير والشمائل المحمدية[5] ®.

ثانيًا. ما كان للنبي ﷺ أن يفرض نفوذه على أتباعه وهو الذي أرسى مبدأ الشورى:

لقد رفع النبي ﷺ طوال حياته قول الله ﷻ: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران:١٥٩) نبراسًا له، ومع كونه المعصوم المؤيد بالوحي إلا أنه لم يهمّش أصحابه، بل جعل لهم دورًا عظيمًا في مشاركته الرأي في كل الأمور، وقد كان الملوك قبل عهد النبوة يستبدون برعاياهم ولا يرون الشورى واجبة عليهم، في حين أنه ﷺ جعلها مبدأً، مع كونه المؤيد بالوحي؛ ليقتدي به غيره في المشاورة وتصير سنة في أمته، وقد كان[6].

---

١. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، د. هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٤٠: ٣٤٢ بتصرف.

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص١٦٧ بتصرف يسير.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠) (٧٠٣٢).

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه (٢٣٠٤٢)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب رب الدابة أحق بصدرها (٢٥٧٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٤٢).

٥. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٥٧، ٦٥٨ باختصار.

® في **"حسن عشرة النبي ﷺ لأصحابه"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء. وفي **"رفض النبي ﷺ لمظاهر التعظيم والتفخيم والإطراء"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الأولى، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). وفي **"تواضع النبي ﷺ مع علو مكانته"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

٦. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٣٩٤ بتصرف.

والأمثلة على ذلك كثيرة تغني الإشارة إليها عن حصرها، ومنها ما كان منه ﷺ قبل غزوة بدر، وفي أسرى بدر، ويوم أحد، والأحزاب، وقبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك حدود الشام والعودة إلى المدينة وغيرها كثير.

وبالجملة نقول: "إن هذه النفسية الرفيعة عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض لرأي سيد ولد آدم عليه السلام، وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبنِّي الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها، أو قائد من قوَّادها"[1].

ولا عجب أن تكون تلك أخلاق النبي، وأن يكون ذاك نهجه وسيماه وهو الذي خُيِّر بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو عبدًا رسولًا فاختار العبدية تواضعًا لله عز وجل، وهذا ثابت من حديث أبي هريرة، ولفظه: "جلس جبريل إلى النبي ﷺ وسلم فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خُلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، أملكًا أجعلك أم عبدًا رسولًا؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد، فقال ﷺ: لا بل عبدًا رسولًا"[2][3].

وإذا كان هؤلاء قد زعموا احتقار النبي ﷺ لأصحابه، وفرض نفوذه عليهم. فماذا عن تزكية الله لهم وثنائه عليهم في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، أما كان من المنطق لو كان محمد ﷺ يفرض نفوذه ويتعالى على أصحابه أن يخفي مثل هذه الآيات أو على الأقل لا يمدحهم ولا يُثْني عليهم، كما ورد في سنته ﷺ، ومن نماذج تزكية الله لهم في كتابه الكريم الذي جاء به النبي محمد ﷺ، "قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الأحزاب)، وقال عز وجل عنهم: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (البينة: ٨)، وقال عز وجل في حقهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ (الفتح)، وزكاهم الله تعالى بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح).

وهذا طَرَفٌ من جملة ما بلَّغه النبي ﷺ عن ربه عز وجل في قرآن يُتلَى آناء الليل وأطراف النهار، ليس هذا فحسب، بل إننا إذا تأملنا السُّنَّة وجدنا ثناء النبي ﷺ على أصحابه كثيرًا متواترًا، ولو كان ﷺ كاتمًا شيئًا من أجل تهميش أحد لكتم شهادته لأصحابه حتى لا يصبح أحد غيره المشار إليه والمُثنى عليه، وفيما يأتي نذكر طرفًا منها للتدليل على ما نحن بصدده:

---

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص١٤.

٢. صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أبي هريرة (٦١٠٥)، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب من صفته ﷺ وأخباره (٦٣٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٠٢).

٣. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص١٦٨ بتصرف يسير.

فعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله: "خيرُ أمتي قَرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". قال عمران: فلا أدري أَذَكَر بعد قرنه قرنين أو ثلاثًا، " ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمَن"[١].

وعن أنس ﷺ قال: "مُرَّ بجنازة فأُثني عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: "وَجَبَتْ وجبت وجبت"، ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شرًّا، فقال نبي الله ﷺ: "وجبت وجبت وجبت"، قال عمر: فِدًى لك أبي وأمي، مُرَّ بجنازة فأُثني عليها خيرًا، فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شرًّا، فقلت: وجبت وجبت وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: "من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض"[٢].

وعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه. قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا فقال: "ما زلتم ها هنا"، قلنا: يا رسول الله! صلينا معك المغرب ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء قال: "أحسنتم، أو أصبتم" ، قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: "النجوم أَمَنَة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون"[٣].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "يأتي على الناس زمان فيغزو فِئَام[٤] من الناس فيقولون: فيكم من صاحبَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون لهم: نعم، فَيُفْتَح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئامٌ من الناس فيقال: هل فيكم مَن صَاحَبَ مَن صَاحَبَ أصحاب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم"[٥].

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآني وصاحبَني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني، وصاحب من صاحبني"[٦][٧].

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٤٥٠)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٦٦٣٦)، واللفظ للبخاري.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت (١٣٠١)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى (٢٢٤٣)، واللفظ له.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي أمان لأصحابه (٦٦٢٩).

٤. الفِئَام: الجماعة من الناس.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٤٤٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٦٦٣٠)، واللفظ للبخاري.

٦. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، باب ما ذكر في الكف عن أصحاب النبي ﷺ (٣٢٤١٧)، والطبراني في المعجم الكبير، باب الواو، من اسمه واثلة (٢٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٨٢).

٧. أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، دار التقوى، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج١، ص٣٢: ٣٤.

وأكثر من هذا برهانًا فيما نحن بصدده ما قاله رسول الله ﷺ في تحريم سبِّ أصحابه، ومن ذلك ما يأتي:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "لا تسُبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ[1] أحدهم ولا نصيفه"[2].

وقال رسول الله ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى اختارني، واختار لي أصحابًا، فجعل لي منهم وزراء وأنصارًا وأصهارًا، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صَرْف[3] ولا عَدل"[4][5].

وقال ﷺ: "إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذُكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القَدَرُ فأمسكوا"[6]، وقال ﷺ: "لعن الله من سبَّ أصحابي"[7]. وفي رواية قال ﷺ: "من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"[8][9].

وإذا كان إكرام النبي لصحابته على هذا النحو؛ فإن لنا أن نتساءل: هل من المنطق أن يكرمهم ﷺ ويقدِّرهم قدرهم، ويحرِّم سبَّهم ثم يفرض عليهم نفوذه وينفرد بالأمر دونهم؟!! ولو كان ذلك حقًّا؛ فهل من المنطق أن يحب الصحابة النبي ﷺ هذا الحب، ويتمثلوا دينه هذا التمثُّل في حياته وبعد مماته وهو مزهو بنفسه متكبر؟!

إننا لا نجد بدًّا من أن نُلْزِمَ هؤلاء النَّفر بحقيقة تُنافي ما ادَّعوه ببراهين الواقع قبل أي شيء. "فقد استولى حب النبي ﷺ والإخلاص في طاعته والشوق إلى رؤيته على قلوب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام من المجتهدين وتلامذتهم وأتباعهم؛ لأنهم أحسوا في أعماق نفوسهم بأنه أنقذهم من الظلمات إلى النور، وخلصهم من الضلالة إلى الإيمان الراسخ، والأعمال الصالحة، والشواهد والأمثلة على هذا كثيرة منها:

عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "من أشد أمتي لي حبًّا ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله"، أي يبصرني بدلًا عن أهله وماله[10].

---

١. المُدّ: نوع من المكاييل.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٧٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة (٦٦٥١)، واللفظ للبخاري.

٣. الصَّرْف: النافلة.

٤. العَدْل: الفريضة.

٥. صحيح: أخرجه والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، ذكر عويم بن ساعدة ﷺ (٦٦٥٦)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في التلخيص.

٦. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الثاء، ثوبان مولى رسول الله ﷺ (١٤٢٧)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب القدر، باب النهي عن الكلام في القدر (١١٨٥١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤).

٧. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب العين، عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ (١٣٥٨٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥١١١).

٨. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، ما ذكر في الكف عن أصحاب النبي ﷺ (٣٢٤١٩)، والطبراني في المعجم الكبير، باب العين، أحاديث عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (١٢٧٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٤٠).

٩. أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، مرجع سابق، ص٤٥: ٤٧ بتصرف.

١٠. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي بأهله وماله (٧٣٢٣).

كذلك حديث عمر ﷺ الذي جاء في هذا المعنى، إذ قال للنبي ﷺ: "لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي"[١]. أي روحي، وورد مثل ذلك كثيرًا عن الصحابة الكرام. فلو كان النبي ﷺ مزهوًّا بنفسه معجبًا، لكان أول النافرين منه أصحابه، أما وقد صرَّحوا بحبه وإخلاصهم له ولدعوته حتى بعد مماته، فهذا مما ينفي زعم هؤلاء وافترائهم.

قال عمرو بن العاص ﷺ: ما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ[٢].

وقالت عبدة بنت خالد بن معدان: ما كان خالد - أبوها - يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار يسميهم، ويقول: هم أَصْلي وفصلي، وإليهم يحنُّ قلبي، طال شوقي إليهم، فعجِّل رب قبضي إليك، حتى يغلِبَه النوم[٣].

ورُوي أنه لما أخرج أهل مكة زيد بن الدِّثِنَّة من الحَرَم ليقتلوه، قال له أبو سفيان بن حرب: أَنشُدُك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك يُضْرَبُ عُنُقُه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أُحِبُّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحبِّ أصحاب محمد محمدًا[٤].

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: كانت المرأة إذا جاءت النبي ﷺ حلَّفها بالله ما خرجتُ من بُغض زوجي، ما خرجتُ إلا حبًّا لله ورسوله[٥].

ووقف ابن عمر على ابن الزبير - رضي الله عنهما - بعد قتله، فاستغفر له، وقال: كنتَ والله - ما علمتُ - صوَّامًا قوَّامًا تحب الله ورسوله[٦].

إنَّ قومًا تمثَّلوا حُبَّ النبي ﷺ على هذا النحو لجدير بهم أنْ يثبتوا أن النبي ﷺ كان على خلاف ما ادَّعاه هؤلاء المغرضون من التعالي عليهم أو فرض نفوذه وما شابه ذلك من أقاويل تبتعد عن المنطق والواقع التاريخي بُعْدَ المشرق عن المغرب ®.

ثالثًا. القرآن الكريم الذي أثنى على النبي محمد ﷺ في بعض آياته هو أيضًا الذي أقرَّ بشريته وأكد عبوديته لله ﷻ في آيات أخرى:

لقد عظَّم الله قدر نبينا ﷺ بفضائل ومحاسن لا يمكن حصرها، فمنها ما صرَّح به ﷻ في كتابه، ونبه به على

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٢٥٧).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة (٣٣٦).

٣. أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، خالد بن معدان (٥/ ٢١٠).

٤. أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة، باب الزاي، من اسمه زيد (٢٦٣٤).

٥. أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة الممتحنة (٣٣٠٨).

٦. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٣٨٥: ٣٨٧ بتصرف يسير.

® في **"حب النبي ﷺ للأنصار وذكره لمناقبهم"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده). وفي **"مشاورة النبي ﷺ للصحابة في إطلاق أسرى بدر"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

جليل نصابه، وأثنى به عليه من أخلاقه وآدابه، وحضّ العباد على التزامه، فكان ﷻ هو الذي تفضَّل وأولى، ثم طهر وزكّى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى؛ فله الفضل بدءًا وعودًا والحمد أُولى وأُخرى[1].

وترتب على ذلك التشريف والثناء من الله ﷻ في قوله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، فقد جعل طاعته مقرونه بطاعة النبي ﷺ وهذا تشريف له ﷺ، وبيان لعلو مكانته عند ربه، فكان رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى، وقدوة الخلق في محاسن الأخلاق التي لا يعدلها شيء وقال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ (آل عمران: ٥٩)، فكان رسول الله لين الجانب، حسن الأخلاق والسجايا بعيدًا عن الغِلْظة، يعدل بين الناس ولا يظلم أحدًا، وبذلك اجتذب إليه المؤمنين، ولو كان فظًّا لنفروا منه ونبذوه وانفضوا من حوله[2].

وفي سياق ثناء الله ﷻ على النبي ﷺ وإظهار عظيم قدره لديه، نجد في كتاب الله آيات كثيرة مفصحة بجميل ذكر المصطفى ﷺ ومحاسنه وتعظيم أمره وتنزيه قدره، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء)، فقد زينه الله ﷻ بزينة الرحمة في الدارين، وأثنى عليه وسماه في القرآن نورًا وسراجًا منيرًا، فقال ﷻ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ (المائدة).

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ (الأحزاب)، فدائمًا كان التكريم من الله ﷻ والثناء منه على نبيه ﷺ؛ وقد قال ﷻ: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ (الشرح)، وقيل معناه: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وقيل في الأذان والإقامة، فرفع الله ﷻ ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب مستشهِد ولا صاحب صلاة إلا يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وفي هذا تشريف ليس بعده تشريف.

وقد بيّن الله ﷻ فضل نبينا ﷺ عندما جعل الشهادة له يوم القيامة على أمته في قوله ﷻ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ (النساء)، وقال ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ (النحل)، فجعله شاهدًا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة وذلك في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ (الأحزاب)، وفي بعض صور قَسَمِه ﷻ تعظيم لقدر نبيِّه، قال ﷻ: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ (الحجر)، فهذا قسم الله ﷻ بمدة حياة محمد ﷺ، وقد أعلى الله قدره وشرفه عندما رفع العذاب عن قومه بسببه في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ (الأنفال).

وبعد كل هذا الثناء من الله ﷻ على نبيه ﷺ قال ﷻ:

---

١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص١١.

٢. محمد رسول الله، محمد رضا، مرجع سابق، ص٤٠٠ بتصرف يسير.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الأحزاب)، فأمر بالصلاة عليه تكريمًا وإلزامًا لأمته بذلك.

وبعد كل هذا التكريم والتشريف من قِبَل الله ﷻ في قرآنه يثبت ﷻ في مواضع أخرى بشرية النبي ﷺ؛ ليدلل لهم على عبوديته له ﷻ، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (آل عمران)، وهكذا وضَّح القرآن وأكد بشرية النبي ﷺ.

وإن المتأمل في حياة النبي ﷺ وفي تصرفاته يجد النبي ﷺ لم يبعد بأوامره وتوجيهاته عن هذه البشرية وتلك العبودية قيد أنملة، وأحاديثه خير شاهد على ذلك، فعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تُطْروني كما أَطْرَت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله"[1].

"وفي هذا القول إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (الكهف: ١١٠)، ثم لا يلزم من كونه عبد الله ورسوله مساواة غيره له ﷺ في العبودية لله ﷻ، التي هي شهود الربوبية، وعدم الغفلة عنها؛ لأنه ﷺ أكمل الخلق في هذا الوصف الذي هو عين الكمال الإنساني"[2].

ولم يبعد هذا المعنى عن ذهن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ولم يغب عن علم زوجاته، وليس أدل على ذلك مما جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "كان رسول الله بشرًا من البشر يَفْلِي ثوبه[3]، ويحلب شاته، ويخدم نفسه"[4].

وفي رواية: "يخيط ثوبه، ويَخْصِف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم"[5].

وفي هذا دلالة على تواضعه الجمِّ، مما ينفي التَّقوُّل عليه زورًا بأنه كان متكبرًا متعاليًا.

رابعًا. تفريق النبي ﷺ بين الصحبة والأخوة لا يحمل أي انتقاص لقدر أصحابه ﷺ:

يحلو للبعض أن يزعم أن محمدًا ﷺ سمَّى أصحابه "الصحابة" ولم يسمهم "الإخوان"؛ لأن الأخوة تعني المماثلة والمساواة بينهم وبينه، ولكن من يزعم ذلك يصطدم ببعض الأحاديث التي يذكر فيها محمد ﷺ أخوة أبي بكر له.

ففي ذلك يقول رسول الله ﷺ: "إن من أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كُنْتُ متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودَّتُه، لا يَبْقَيَنَّ في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ (مريم: ١٦) (٣٢٦١)، وفي مواضع أخرى.

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص ١٦٧، ١٦٨ بتصرف.

٣. يَفْلِي ثوبه: ينظِّفه.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٢٣٧)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب المريض، باب ما يعمل الرجل في بيته (٥٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧١).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٣٨٠)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب المريض، باب ما يعمل الرجل في بيته (٥٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٣٧).

بكر"[1].

ثم إن القرآن الكريم سمَّى صالحًا مثلًا "أخا ثمود"، وهودًا "أخا عاد" وشعيبًا "أخا مدين"، ولم يكن القصد أن أقوامهم الكفرة مساوون لهم في الرتبة، بل المقصود بكلمة "أخ" هنا هو أنه "رسول"، فليست الأخوة هنا بمعنى إخوانية الدين، فأين الأخوة في الدين بين هؤلاء الأنبياء وأقوامهم، وقد أُطلقت عليهم هذه التسمية من قبل إيمان أحد من أقوامهم بهم، كما أن الكثيرين من أقوامهم قد ظلوا على عنادهم وكفرهم برسالتهم، ولم تكن بين الفريقين من ثم أخوة إيمان[2].

وقد جاء محمد ﷺ ليعلن أن البشر ـ كما يقرِّر القرآن الكريم ـ إخوة وأبناء لأب واحد وأم واحدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء)، وقال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).

ولأن البشر كلَّهم إخوة وكرامتهم عند الله واحدة، فقد محا الإسلام كل أسباب التفرقة، وأسقط كل المزاعم التي تميز إنسانًا على إنسان بالجنس، أو اللون، أو الطبقة أو شيء آخر قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر" (٣٤٥٤).

٢. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص٢٢٠، ٢٢١.

أجل.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. هذا هو الميزان الحق الذي يوزن به الناس، فالعدالة الإسلامية ترفض أي امتياز لإنسان على آخر بسبب اللون، أو الجنس، ولم يؤثر أو يُعرف عن مفكري الإسلام أو فقهائه قول يخالف هذه القاعدة التي أرسى قواعدها القرآن والنبي ﷺ.

فعن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال: يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية[3] وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات)[4]. فليس لعربي على عجمي فضل، وليس لأسود على أبيض فضل، ولا لأبيض على أسود فضل.. إلا بالتقوى[5].

وبناء على ما سبق ليس لمدعٍ أن يقول: إن تسمية النبي ﷺ أتباعه المعاصرين له بـ "الأصحاب" بدلًا من "الإخوان" كان تعاليًا منه ﷺ أو رغبة منه في البعد عن المساواة بهم، وإنما كان ﷺ أحسن البشر خلقًا، وخير البشر تواضعًا، ولقد أحبه أصحابه رضوان الله عليهم،

٣. عُبِّيَّة الجاهلية: تفاخرها وكبرها وتعاظمها.

٤. صحيح: أخرجه عبد بن حميد، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة الحجرات (٣٢٧٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٠٣).

٥. بنديكت السادس عشر البابا الذي لا يعرف شيئًا، د. عبد الودود شلبي، كتاب المختار، القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٥٥: ٥٨ بتصرف.

كما لم يحب بشرٌ بشرًا، ويكفي أصحابه هذا الوسام الذي وضعه ﷺ على صدورهم، حينما قال عنهم: "لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآني وصاحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني وصاحبَ من صاحبني"[1]. فأين ما زعموه من تكبره ﷺ على أصحابه؟

خامسًا. تسمية النبي لأتباعه الذين لم يروه بإخوانه لا يعني تفضيلهم على أصحابه:

إن الفهم الخاطئ للحديث النبوي الذي يقول فيه النبي ﷺ: "وددت أنا قد رأينا إخواننا"، قالوا: أوَلَسْنَا إخوانك يا رسول الله؟ قال: "أنتم أصحابي"[2].

إن هذا الفهم هو الذي دفع بعض المتوهمين أن يظنوا أن النبي ﷺ قد فضَّل أتباعه الذين لم يروه على أصحابه، فالحقيقة التي يتجاهلها هؤلاء أن هذا الحديث لا يحمل معناه أي مظنة لتفضيل المسلمين من غير الصحابة على الصحابة، فليس في قول النبي ﷺ: "وددت أني لقيت إخواني" إلا وصفًا لحالة وجدانية شعورية تعبر عن مدى اشتياق النبي ﷺ لهؤلاء المؤمنين به بعد موته ﷺ دون أن يراهم أو يروه، وفي هذا من الدلالة الواضحة على محبة النبي ﷺ لأمته ورحمته بهم على الرغم من أنه لم يَرَهم، فما بالنا بمحبته لمن رآهم ورأوه ونصروه وتحمَّلوا معه مصاعب نشر الدعوة!

وإنما اشتاق النبي ﷺ لرؤية هؤلاء الذين لم يروه ولم يرهم من أمته؛ لأن المرء يزداد اشتياقه لمن لا يراهم، أما أصحابه المعاصرون له فهم تحت ناظريه لا يفارقهم ولا يفارقونه؛ ومن ثم فليس في اشتياق النبي لأتباعه الذين سيأتون بعد موته أي تفضيل لهم على أصحابه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن وصف النبي ﷺ لأتباعه الذين لم يروه بإخوانه لا ينفي عن أصحابه أنهم إخوانه؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات)، فأُخُوَّة الصحابة للنبي ﷺ ثابتة مع شرف الصحبة بهذه الآية الكريمة، وقد أرسى ﷺ قواعد المساواة والأخوة بين المسلمين جميعًا السابق منهم واللاحق، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر).

ومِنْ ثَمَّ فلم يفضِّل رسول الله ﷺ أحدًا على أصحابه،بل إن الحقيقة التي لا يمارى فيها أن النبي ﷺ قد فضل أصحابه الذين اتبعوه ونصروه على سائر الأمة كما سبق أن تحدثنا، بل فضَّل أوائل الصحابة على متأخريهم.

إن صحابة رسول الله ﷺ هم الذين حملوا الأمانة من بعده؛ فقاموا بتأديتها خير أداء، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده؛ فنشروا الإسلام، وكسروا الأوثان، وأطفئوا النيران وفتحوا البلدان، وعدلوا في الرعية، وقسموا الحقوق بالسوية، فمن يوازيهم، أو يبلغ خميص ـ ثوب ـ أحدهم ولو أنفق ما في الأرض

---

١. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، باب ما ذكر في الكف عن أصحاب النبي ﷺ (٣٢٤١٧)، والطبراني في المعجم الكبير، باب الواو، من اسمه واثلة (٢٠٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٨٣).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (٦٠٧).

جميعًا[1]؟!

وعليه فالصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين، لكن الاختلاف: هل هذه الأفضيلة بالنسبة إلى المجموع أم الأفراد؟ والذي ذهب إليه الجمهور أن من قاتل مع النبي ﷺ أو في زمانه بأمره أو أنفق من ماله بسببه لا يعدله في الفضل أحد بعده كائنًا من كان لقوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10)﴾ (الحديد)[2].

إن ما ورد من آيات قرآنية كريمة وأقوال النبي ﷺ لكافٍ للدلالة على فضل أصحاب النبي ﷺ على غيرهم من المسلمين في كل زمان ومكان؛ ولِمَ لا وقد تعلموا في مدرسة النبوة على يد معلم البشرية، ودليلها إلى الخير محمد ﷺ؟ فلقد باعوا الدنيا؛ لأنهم علموا وأيقنوا أنها إلى زوال وإلى فناء، ويجمع لها من لا عقل له، واشتروا الآخرة لعلمهم أنها الباقية فربحوا الدنيا والآخرة ﷺ، وهذا ما عليه كل من يعتد به من علماء المسلمين قديما وحديثًا[3].

وللصحابة ﷺ اليد البيضاء على كل من جاء بعدهم من المسلمين، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا"[4].

وقد كانوا ﷺ الصلة الوثيقة التي تربط المسلمين بنبيهم ﷺ، فكل من استفاد وكل من دخل في دين الله وعمل صالحًا، فإن الله يثيب الصحابة عليه، وقبلهم رسوله ﷺ، فكل فضل لمن بعدهم لهم فيه نصيب، فهل يعقل أن يفضل رسول الله ﷺ أحدًا من الناس عليهم؟ وهل يعقل أن ينتقص النبي ﷺ من قدر صحابته؟ وهل يعقل أن يساويهم أحد أو أن يبلغ منزلتهم في الفضل والأجر؟

ويؤكد هذه الحقيقة قول النبي ﷺ: "لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه"[5].

فإذا كان سيف الله خالد بن الوليد وغيره ممن أسلم بعد الحديبية لا يساوي العمل الكثير منهم القليل من عبد الرحمن بن عوف وغيره ممن تقدم إسلامه، مع أن الكل تشرَّف بصحبته ﷺ، فكيف بمن لم يحصل له شرف الصحبة بالنسبة إلى أولئك الأخيار؟! إن البَوْن لشاسع، وإن الشُّقَّة لبعيدة، فما أبعد الثَّرَى من الثُّرَيَّا، بل وما أبعد الأرض السابعة عن السماء السابعة:

---

1. محمد خير البشر وأمته خير الأمم، عمر أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط1، 1419هـ/ 1998م، ص217 وما بعدها.
2. فرسان النهار من الصحابة الأخيار، د. سيد بن حسين العفاني، دار ماجد عسيري، جدة، ط3، 1427هـ/ 2006م، المقدمة، ص88، 89 بتصرف يسير.
3. محمد خير البشر، عمر أحمد محمد، مرجع سابق، ص211.
4. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى (6980).
5. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلا" (3470)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة (6651)، واللفظ للبخاري.

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ (الجمعة)[1].

سادسًا. الصحابة هم أفضل هذه الأمة:

إن المحتكم إلى العقل المنصف والمنطق السليم لا يمكن إلا أن يصل إلى نتيجة مؤادها: أن أصحاب النبي ﷺ هم أفضل هذه الأمة؛ وذلك لأن خصائص الشخصية المسلمة الكاملة لم تظهر في جيل كما ظهرت في جيل الصحابة، ومن أبرز هذه الخصائص:

١. الاستجابة الكاملة للوحي وعدم التقديم بين يديه:

إن العلم الصحيح الكامل بالعقائد، والشرائع، والآداب وغيرها، لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزَّل: قرآنًا وسُنَّة، وذلك بالعلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة ما يجب له وما يُنزَّه عنه ﷻ، والعلم بالملائكة، والكتاب، والنبيين، والعلم بالآخرة، والجنة والنار، والعلم بالشرائع المجملة والمفصلة والأحكام المتعلقة بالمكلفين، والعلم بالمسلك الصحيح الذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال في: الغضب والرضا، والقصد والغنى، في الأمن والخوف، في الخير والشر، في الهدنة والفتنة، والتزام الدليل الشرعي هو منهج الذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصحيح، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ (الأعراف).

ولقد كان الصحابة ـ رضوان الله عيهم ـ أعظم من غيرهم انتفاعًا بالدليل والوحي، وتسليمًا له؛ لأسباب عديدة منها:

- نزاهة قلوبهم وخلوُّها من كل مَيل أو هوًى غير ما جاءت به النصوص، واستعدادها التام لقبول ما جاء عن الله ورسوله، والإذعان والانقياد له انقيادًا مطلقًا دون حرج، ولا تردد، ولا إحجام.
- معاصرتهم لوقت التشريع ونزول الوحي، ومصاحبتهم للرسول ﷺ؛ ولذلك كانوا أعلم الناس بملابسات الأحوال التي نزلت النصوص فيها، والعلم بملابسات الواقعة أو النص من أعظم أسباب فقهه وفهمه وإدراك مغزاه.
- كانت النصوص ـ قرآنًا وسنة ـ تأتي في كثير من الأحيان لأسباب تتعلق بهم ـ بصورة فردية أو جماعية ـ فتخاطبهم خطابًا مباشرًا، وتؤثِّر فيهم أعظم التأثير؛ لأنها تعالج أحداثًا واقعية وقعت في حينها، حيث تكون النفوس مشحونة بأسباب التأثر، متهيئة لتلقي الأمر والاستجابة له.
- قد أعفاهم قرب عهدهم بالنبي ﷺ من الجهد الذي احتاج إليه مَنْ بعدهم في تمييز النصوص وتصحيحها، فلم يحتاجوا ـ في غالب أحوالهم ـ إلى سلسلة الإسناد، ولا معرفة الرجال، والعلل، وغيرها، ولم يختلط عليهم الصحيح بغيره، ومن ثم لم يقع عندهم التردد في ثبوت النص الذي وقع عند كثير ممن جاء بعدهم، خاصة من أصحاب النفوس المريضة، أومن الجهلة الذين لم يدرسوا السنة ويفقهوها رواية ودراية، فكانوا إذا سمعوا أحدًا يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارهم ـ كما يقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

---

١. فرسان النهار من الصحابة الأخيار، د. سيد بن حسين العفاني، مرجع سابق، المقدمة، ص٩٥، ٩٦.

٢. التأثر الوجداني العميق بالوحي والإيمان:

كان الصحابة يتعاملون مع العلم الصحيح ليس بوصفه مجموعة من الحقائق المجردة التي يتعامل معها العقل فحسب، دون أن يكون لها علاقة بالقلب والجوارح، بل لقد أورثهم العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله محبته، والشوق إلى لقائه والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم في جنة عدن، وأورثهم تعظيمه، والخوف منه والحذر من بأسه وعقابه، وبطشه ونقمته، وأورثهم رجاء ما عنده، والطمع في جنته ورضوانه، وحسن الظن به، فاكتملت لديهم - بذلك - آثار العلم بالله والإيمان به، وهي: الحب والخوف والرجاء، وأورثهم العلم بالجنة والنار: الرغبة في النعيم الأبدي السرمدي، والخوف من مقاساة العذاب الرهيب، فقلوبهم تتراوح بين نعيم ترجوه وتخشى فوته، وعذاب تحذره وتخشى وقوعه، فتعلقت قلوبهم بالآخرة، فكرًا وخوفًا ورجاءً، حتى كأنهم يرون البعث والقيامة، والميزان والصراط، والجنة والنار رأي العين، وأورثهم علمهم بالقدر وأنه أمر قد فُرغ منه: الاتكال على الله، وعدم التوكل على الأسباب، وعدم الفرح بما أوتوا ولا الأسى لما مُنِعُوا، والإجمال في الطلب؛ إذ لا يفوت المرء ما قُدِّر له، ولن يأتيه ما لم يقدَّر، كما غرس في نفوسهم الشجاعة والإقدام، وأورثهم علمهم بالموت وإيمانهم به العزوف عن الدنيا، والإقبال على الآخرة، والدوام على العمل الصالح؛ إذ لا يدري متى يموت والموت منه قريب، وهذه المعاني الوجدانية هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم، وإذا فقدت، فلا ينفع مع فقدها علم، بل هو ضرر في العاجل والآجل.

ولقد كان للصحابة ﷺ من هذه المعاني الوجدانية، أعظم نصيب؛ لأن إيمانهم كان أعمق وأكمل من إيمان غيرهم، ولقد تلقوه غضًّا طريًّا من النبي ﷺ لم يَخْلَقْ بغبرة الغفلة والأهواء.

وكان الصحابة فرسانًا بالنهار، ورهبانًا بالليل، لا يمنعهم علمهم وإيمانهم الحق وخشوعهم لله من القيام بشئونهم الدنيوية، من بيع وشراء، وحرث ونكاح، وقيام على الأهل والأولاد وغيرهم فيما يحتاجون، وكانوا بعيدين كل البعد عن الإعجاب بالنفس، الذي أُصيب به بعض المتعبدين ممن جاء بعدهم، فترتب عليه ازدراؤهم واحتقارهم لأعمال الآخرين، والاستهانة بمجهوداتهم في سبيل الدين والحط من قدرهم، فأصبحوا في الحقيقة متعبدين في محراب "الذات" معظِّمين لأنفسهم، وهذا مصدر لكل رذيلة خلقية، وسبب لمحق كل عمل صالح[1].

ومن ثم فقد برزت في جيل الصحابة كل خصائص الشخصية المسلمة الكاملة التي قامت عليها الدولة الإسلامية، وهذا ما لم يحدث في أي جيل بعدهم بهذه الصورة المثالية، فاستحقوا بذلك ﷺ أن يكونوا أفضل من غيرهم، وقد عرف لهم النبي ﷺ هذا الفضل فقدمهم وفضلهم على سائر هذه الأمة.

الخلاصة:

- لم يكن النبي ﷺ متكبرًا على أصحابه، بل إن سيرته معهم تشهد بحبه لهم، ولين الجانب معهم، ولِمَ لا؟ وقد أمره ربه بذلك: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص ١٢٦: ١٢٨ بتصرف.

﴿٨٨﴾ (الحجر)، وقد كان ﷺ يحسن معاملة كل أصحابه كبيرهم وصغيرهم، فالكل عنده سواء، ولم يكن ﷺ يميز نفسه عليهم بحال من الأحوال ويكره هذا، على الرغم من سعيهم الدءوب لتمييزه؛ لهذا أحبوه حبًّا شديدًا وقدموا حبه على الأهل والمال والنفس.

- لم يخرج النبي ﷺ عن سمت التواضع الذي عُهد عنه حتى بعد أن فتحت عليه الدنيا ودانت له الجزيرة كلها، حتى إنه لما دخل مكة فاتحًا منتصرًا طأطأ رأسه حتى لتكاد تمسُّ مقدمة الرَّحل؛ تواضعًا لله، وهذا التواضع شهد له به كل من عرفه أو شاهده أو تعامل معه ﷺ، وهو القائل عن نفسه: "آكل كما يأكل العبيد، وأجلس كما يجلس العبيد، فإنما أنا عبد"[1].
- ليس من المنطق أن يعظِّم النبي ﷺ أصحابه ويحترمهم بهذه الكيفية التي نطالعها في كتب السِّيَر، ثم يفرض نفوذه عليهم ويلغي دورهم في الدولة الإسلامية، ولقد أرسى النبي ﷺ مبدأ الشورى في الدولة الإسلامية ولم ينفرد برأي دون أصحابه، وهذا خير شاهد على فساد ما ادعاه المغرضون، وشواهد السيرة على هذا كثيرة تغني الإشارة إليها عن ذكرها.
- لقد أثنى القرآن على النبي ﷺ وفضَّله وامتدحه بما هو أهله، ولم يزده هذا الثناء ولا ذاك التفضيل إلا تواضعًا وخشوعًا وامتنانًا، ولقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع على بشرية النبي وعبوديته لله تبارك وتعالى، وهذا ما لم تبعد عنه أقواله ﷺ وأفعاله، فلقد تمثَّل النبي أوامر القرآن الكريم بالتودد للمؤمنين وخفض الجناح لهم خير تمثُّل، فكان نموذجًا وافيًا للتواضع والرحمة.
- لم يكن وصفه ﷺ للمؤمنين المعاصرين له بصفة "الأصحاب" دون صفة "الإخوان" حطًّا من شأنهم ﷺ، وخاصة إذا علمنا أن الأخوة لا تعني بحال من الأحوال المساواة والمماثلة، وقد صرَّح الوحي بأن الصحابة الأوائل قد بلغوا منزلة لا يمكن لأحد بعدهم - مهما فعل - أن يصل إليها.
- إن قول النبي ﷺ: "وددت أني لقيت إخواني"، ليس فيه ما يدل على تفضيل المسلمين الذين لم يرهم النبي ﷺ على الصحابة الكرام، وإنما هو وصف لحالة وجدانية شعورية، تعبِّر عن شوقه لرؤية أمته كلها بما فيهم صحابته.
- إن منزلة الصحبة هي أعلى المنازل في الإسلام بعد النبوة وذلك بشهادة القرآن والسنة النبوية ، ويكفي أن تستشهد بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد: ١٠)، وقول رسول الله ﷺ: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[2]، فهم القدوة والأسوة الحسنة لكل من أراد الهداية.

---

١. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب أهل الكتابين، باب الأكل متكئًا (١٩٥٥٤)، وأبو يعلى في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها (٤٩٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٤).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٥٠٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٦٦٣٥).

الشبهة الثامنة عشرة

اتهام النبي ﷺ بالنفاق (*)

مضمون الشبهة:

يتهم بعض المتطاولين النبي ﷺ بالنفاق، إذ إنه كان يأمر بما لا يفعل، ويستدلون على ذلك بأن القرآن الكريم حثَّ على قيام الليل وقلة النوم في قوله ﷻ: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ (المزمل)، في حين أن النبي ﷺ كان كثير النوم، وكذلك كان يقوم من نومه ويصلي بغير وضوء مع أن هذا مخالف للشريعة الإسلامية، ويتساءلون: ألا يعد هذا مخالفة صريحة لما يأمر به النبي المسلمين من قيام الليل، وتجديد الوضوء لمن قام من النوم؟! ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في أخلاق النبي ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) دعت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إلى الصدق، والبعد عن النفاق والكذب، فهل من المعقول أن يأمر الله ورسوله المسلمين بأمر، ثم يكون النبي ﷺ ـ وهو خير البشر ـ أول المخالفين له؟! ولو كان النبي ﷺ كذلك، فلِمَ لَمْ يُخفِ الآيات التي تعاتبه في القرآن الكريم، وكذلك الآيات التي تتحدث عن أحداث خاصة به ﷺ؟!

٢) من يطالع سيرة الرسول ﷺ يجد أنه كان لا يركن إلى الراحة إلا قليلًا، فقد كان كثير الصلاة والصيام والقيام والجهاد في سبيل الله لكي تصل الدعوة إلى كل أرجاء الأرض، فهل يفعل النبي ﷺ كل هذا وهو كثير النوم والراحة كما يدعي هؤلاء؟!

٣) اختص الله ﷻ النبي ﷺ ببعض الصفات التي يتميز بها عن بقية البشر، ومن هذه الصفات أنه ﷺ كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، فلا ينتقض وضوءه بالنوم.

التفصيل:

أولا. دعت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث إلى الصدق والإخلاص، والبعد عن النفاق:

لقد ذمَّ الله ﷻ النفاق والمنافقين، والضلال والمضللين، ومن بعده رسوله ﷺ، فسنته الغرَّاء تجدها مليئة بالنهي عن الكذب والغش والنفاق، وتأمر بالصدق والأمانة، وهداية الناس وإعلامهم بالمعروف، فكيف يرد النهي عن شيء في الكتاب الخاتم على لسان النبي الخاتم ثم يفعله؟ ومن أراد مطالعة نصوص الكتاب يجدها موضحة ذلك ومبرهنة عليه لقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الزمر)، وقال تعالى: ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الأحزاب) وقال تبارك وتعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ (الأحزاب: ٧٣). وقال ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

(*) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، د. عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق. الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق.

﴿مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١﴾ (الأحزاب).

ونزلت سورة (المنافقون) أيضًا مبرزة بعضًا من أمورهم فقال الله ﷻ عنهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ (المنافقون)، وآيات القرآن كثيرة في ذم النفاق والمنافقين وقبح فعلهم وسوء عاقبته.

وكذلك ذم النبي ﷺ النفاق والمنافقين، يقول النبي ﷺ محذرًا من النفاق وأهله: "آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"[1]. وقال أيضًا: "أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[2].

ولو كان النبي ﷺ آمرًا بشيء ثم وقع منه ما يخالفه لانفضَّ عنه أول ما انفض أتباعه؛ لأن النبي ﷺ قدوة لهم، فإن أتى ما يخالف ما يأمر به لانحطت درجته في عيون متبعيه، ولشكُّوا في أمره وارتابوا في معتقده، ولقلَّ مناصروه، وهو ما لم يحدث بل كثروا ويكثرون إلى قيام الساعة.

وسلك النبي ﷺ كل السبل الصحيحة لكي تصل دعوة الإسلام إلى الناس كافة دون أي نقص أو زيادة فيها، ولذلك اتصف بالعديد من الصفات الحميدة التي تعينه على تبليغ دعوته، وقد أجملت السيدة عائشة رضي الله عنها كل هذه الصفات في كلمة واحدة فقالت: "كان خلقه القرآن"[3]. فكيف ينافق أو يكذب من كان خلقه القرآن؟!

وليس أدل على صدق النبي وبُعده عن النفاق من شهادة الأعداء له، فقد كان يُلقَّب بين أهل مكة قبل الإسلام بـ "الصادق الأمين"، ولم تتغير هذه الصفة بعد الإسلام، فنجد أبا سفيان بن حرب -وكان لا يزال كافرًا- عندما سأله هرقل ملك الروم عن النبيﷺ، فقال له: "ما جربنا عليه كذبًا قط"، والأمثلة في هذا الجانب أكثر من أن تُحصَى.

ومما ينفي صفة النفاق المزعومة في حق النبي ﷺ ما جاء في القرآن الكريم من الآيات التي تعاتب النبي ﷺ على تركه الفعل، وفعله نقيضَه أو خلافَه، فلو كان النبي منافقًا لأخفى ذلك ولم يظهره حتى لا يكون ذلك مطعنًا فيه.

فلقد حرص النبي ﷺ على تبليغ كل ما يُوحَى إليه من ألفاظ الوحي لكمال البلاغ، وأداء الأمانة، وهذا ينافي الكذب والنفاق والتضليل، فهو يبلِّغ عن ربه أدق

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (٣٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٢٢٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر (٢٣٢٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٢١٩)، واللفظ للبخاري.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٦٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب ما دعا الله أن يحسن خلقه (٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١).

التفاصيل، أو تلك الأحداث التي تتناول قصصًا شخصية، أو قضايا ذات خطر وحساسية كبيرة، دونما تضليل أو تعمية، فنراه ﷺ يحرص على أن يثبت ويملي على كتبة الوحي كل ما يوحَى إليه من كتاب رب العالمين.

انظر إليه ﷺ وقد أثبت كل ما عُوتب على فعله خلافًا للأولى، ولو كان منافقًا مضللًا لأخفى هذا ولم يأتِ به في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، حتى لا يكون ذلك مطعنًا فيه، كلَّا، بل رواه على عِلَّاته على هذا النحو من العتاب والتأديب والتقويم.

لقد كان ﷺ صادقًا مع نفسه أولًا قبل أن يكون صادقًا مع المخلوقين، وذلك حين أثبت كل ما أُلقِي إليه من الوحي بما فيه من عتاب له في غير آية مثل قوله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (التوبة)، وقوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنفال)، وقوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ (التوبة)، ونحوه في القرآن الكريم، لم يجد النبي ﷺ غضاضة في أن يذكره ويتلوه، إنها الأمانة التي تحملها الأمين والتي تنوء عن حملها الجبال الرواسي.

أَبَعْد هذا كله يقال: إن النبي ﷺ مضلِّل ومنافق؟ لو كان كذلك لما زفَّ لنفسه كل هذه الآيات ولاقتصر على ما يمدحه ويعلو بشأنه ويتفاخر به.

بل ما الداعي إلى أن يُظهر الرسول الوحي الذي يتناول أهل بيته في حادثة الإفك، وهي قصة شخصية جدًّا ؟ وما الذي يجبره على إثبات قضية أكثر حساسية وخطورة في وقت يزداد فيه أنصاره؟ أما يخشى أن يكون إثارتها مثارًا للشبهات والريب حوله؟ ما الذي يجبره على فعل هذا إلا الصدق وعدم النفاق، كما في حادثة زيد بن حارثة مُتبنَّاه؟ قال ﷻ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الأحزاب).

ثم إننا نود أن نسأل هؤلاء الذين يرمون النبي ﷺ بتهمة النفاق: إذا كان النبي ﷺ منافقًا كما تزعمون، فلماذا لم ينافق ويداهن كبار كفار قريش حتى تدين له قريش بأكملها، وهو في أحلك الظروف، ليس لديه أنصار سوى الضعفاء وهم قلة يعدُّون على أصابع اليد الواحدة؟ لِـمَ لم يفعلها - ولو رياءً - حتى يستقطب أناسًا للدعوة، ثم ينقلب على ذلك الوضع بعدما تشتد قوته، ويكثر أنصاره، والضرورات تبيح المحظورات؟ إن كمال الصدق والوضوح الداخلي والخارجي لهذا النبي غالب، يأبى كل هذا ويرفضه؛ لأنه واضح والحق الذي جاء به صادح، وقد أخبر عن ذلك مولاه في قوله ﷻ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ (القلم)، ولِمَ لَمْ يخدع مُسَيْلِمَة الكذاب حينما جاء يطلب إليه أن يجعل له الأمر من بعده حتى تُسْلِمَ نَجْد بأكملها، وهو في أمسِّ الحاجة إلى أنصار ومؤيدين؟ بل يأبى ويقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

ثم ألستم تتفقون معنا أن أكبر الأسباب الداعية إلى النفاق هو الخوف والجبن من إظهار الشيء؟

إننا نتحداكم أن تأتوا بدليل واحد من حياة النبي ﷺ يدل على جبنه وخوفه، لا شك أن التاريخ لن ينصركم، وستعجزكم الأدلة، وسترهقكم البراهين الساطعة من سيرة النبي ﷺ الدالة على شجاعته.

ثانيًا. كان النبي ﷺ لا يركن إلى الراحة إلا قليلا:

لقد كان النبي ﷺ أعرف الناس بربه، وأعلمهم بجلاله وكماله وصفاته، ومن ثم كان أشدهم تقوى، وأكثرهم عبادة وقيامًا لليل، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان النبي يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: يا رسول الله لمَ تصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا"[1]. وقالت: "كان عمل رسول الله دِيمَةً[2] وأيُّكم يستطيع"[3]؟!

وكان الله ﷻ قد أمر النبي ﷺ في مبدأ أمره أن يقوم الليل إلا قليلًا، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ (المزمل)، فكان قيام الليل واجبًا محتومًا، قيل: على النبي ﷺ وحده، وقيل: عليه وعلى أمته، ثم خُفِّف عن أمته، فنسخ الوجوب وصار مندوبًا لأمته، واجبًا عليه، ولم يُحدَّد للقيام وقت محدود، بل ترك ذلك إلى القدرة والاستطاعة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ (المزمل: ٢٠)، وقال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ (الإسراء)، ومع ذلك كان دائم العبادة والتهجد، وكان دائم التذكر لله، والتفكر في خلق الله وآلائه، لا يغيب قلبه عن الله، فإن حصل ذلك بسبب شواغل الدنيا وهمومها، استغفر الله تعالى، وهذا هو المراد بقوله ﷺ: "إنه لَيُغان[4] على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"[5][6].

"وكذلك كان ﷺ يؤثر ألا ينام على فراش وثير مُغرِق في إراحة البدن؛ لئلا يستسلم للنوم والراحة، فيقعد به ذلك عن سرعة النهوض لأداء الواجبات؛ ولذلك كان فراشه أَدَمًا[7] حشوه ليف وكانت وسادته أيضًا أدمًا حشوها ليف، وكان له مِسحٌ[8] ينام عليه يُثنَى بثنيتين، وثُني له يومًا أربع ثنيات، فنهاهم عن ذلك وقال: "رُدُّوه إلى حاله الأول؛ فإنه منعني صلاتي الليلة"[9].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه (١٠٧٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٧٣٠٤).

٢. الدِّيمَة: من الدوام؛ أي: متصلًا.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٦١٠١)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١٨٦٥).

٤. الغَين: الغفلة والسهو.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٧٠٣٣).

٦. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٦٣٣، ٦٣٤ بتصرف يسير.

٧. الأَدَم: باطن الجلد.

٨. المِسح: كساء من جلد.

٩. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد روَّاس قلعجي، مرجع سابق، ص٦٦، ٦٧.

وكان الرسول ﷺ يحضُّ على قيام الليل، ويبشِّر من يفعل ذلك بأن الله ﷻ يعطيه جائزتين:

الجائزة الأولى: أن الله يتفضل عليهم برحمته.

الجائزة الثانية: أن يكتبهم الله من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

قال رسول الله ﷺ: "رحم الله رجلًا قام من الليل فصلَّى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء"[1]. وقال رسول الله ﷺ: "إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلَّيَا - أو صلى - ركعتين جميعًا كُتبا في الذاكرين والذاكرات"[2]. فكيف يحضُّ الرسول على قيام الليل ولا يفعل ذلك، والشواهد تؤكد فعله؟!

وها هو ذا عبد الله بن مسعود ؓ يقول: "صليت مع رسول الله ﷺ فأطال حتى هممت بأمر سوء"، قيل: وما هممت به؟! قال: "هممت أن أجلس وأدعه"[3].

ولعل لابن مسعود ؓ عذره؛ فقد كان ﷺ يقرأ في الركعة الأولى مثلًا سورة البقرة، وفي الثانية آل عمران، وفي الثالثة سورة النساء، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع، ويطيل السجود في صلاته منفردًا في جوف الليل، أما إذا كان مع الناس فإنه يخفِّف.

وقد ورد في السنة الصحيحة: إطالة الرسول ﷺ القراءة في الركعات التي يصليها في الليل، وبسبب هذه الإطالة كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة، فعن عائشة - رضي الله عنها -: "كان النبي ﷺ يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجيء المؤذن فيؤذنه"[4][5].

وكان ﷺ يواظب على قيام الليل، وكان أغلب قيامه لصلاة الليل في أول النصف الثاني من الليل، تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها -: "كان ينام أول الليل ويحيي آخره"[6].

وهذا القيام بعد هذا النوم حَكَمَ النبي ﷺ بأنه أحب القيام بقوله: "وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ؑ، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه"[7]. وذلك ليستريح من نصب القيام، فإنه بعد القيام يريح البدن، ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم بخلاف

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ؓ (٧٤٠٤)، وأبو داود في سننه، كتاب التطوع، باب قيام الليل (١٣١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٠٧).

٢. صحيح: أخرجه وأبو داود في سننه، كتاب التطوع، باب قيام الليل (١/ ١٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١١٦١).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل (١٠٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (١٨١٥)، واللفظ له.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الضجع على الشق الأيمن (٥٩٥١)، وفي مواضع أخرى.

٥. الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م، ص١٤٥، ١٤٦ بتصرف يسير.

٦. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي في الليل (١٧٦٢).

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود (٣٢٣٨)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقًّا (٢٧٩٦).

السهر إلى الصباح.

وكانت له أوراد وقراءات قبل أن ينام، فقد جاء أنه ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل -أي سورة الإسراء- والزُّمَر، وجاء أنه: كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ (السجدة)، و ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ (الملك: ١)[1].

وكان ﷺ يواظب على صلاة الضحى، وكان تارة يصليها ركعتين، وهو أقلها وتارة أربعًا، وهو الأغلب، وتارة ستًّا، وتارة ثمانية، وتارة اثنتي عشرة ركعة، وذلك أفضلها وأكثرها.

وكان إذا صلى الفجر تربَّع في مجلسه يذكر الله حتى تطلع الشمس، وكانت له نوافل مطلقة بعد المغرب، فتارة يصلي من بعد المغرب إلى العشاء، وتارة يصلي بعد المغرب ست ركعات"[2].

وهذا كان حال النبي ﷺ ليلًا ونهارًا، فأين يجد الوقت الذي يكثر فيه النوم ﷺ، علاوة على أعباء الدعوة، المكلف بها، وبالدفاع عما يدعو إليه، هل فعل ذلك، وهو نائم؟!

إن كثرة النوم تتنافى مع طبيعة هذا الدين الذي يجعل من قيام الليل شريعة لازمة لبناء الداعي إلى الله، والسالك الجاد على جادة الجنة.. وهي أبرز سمات التقي، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨﴾ (الذاريات)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾ (السجدة).

فكيف يكون هذا طابع المؤمن التقي من أهل الجنة، ولا يكون النبي الرائد كذلك؟ لقد وصفته عائشة -وهي أقرب الخلطاء من حياته ﷺ وأخلاقه- فقالت: "كان خلقه القرآن"[3]. ولا يمكن أن ندع صفة القرآن للنبي ﷺ لمفتريات خَصْمٍ ليس له على زيفه بينة، بل إن منطق الحياة يصفع زيفه، إذ لا يتصور معه رجل كرسول الله ﷺ يحيا في محيط خصومات عاتية من الفرس والروم ومشركي العرب، ثم يدع دَفَّة سفينته بين الموج اللُّجِّي لينام. وهل ينام إنسان في الغابة، أو في بحر يقصف بشراع سفينته الرياح؟ إن عوام الناس يدركون من بدهيات الحياة أن الجائع والخائف لا ينامان، فما بالك بمن يحمل هَمَّ العالمين لا هَمَّ نفسه.

إن الرجل المشغول بجسام الأمور يبيت وهذه الأمور تلاحقه في نومه، فكيف الأمر ورسول الله يؤسِّس مجتمعًا جديدًا لبناء شامخ يضم البشرية كلها بمختلف طباعها وتقاليدها؟ إن صح لنا أن نحلل النبي تحليلًا نفسيًّا من كلماته فإننا نقول: إن رسول الله ﷺ كان مشغولًا بدعوته إلى الحد الذي لا يهنأ له معه نوم، بل

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٤٧٠٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٥).

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص ٢١٥، ٢١٦.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٦٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب حسن الخلق، باب ما دعا الله أن يحسن خلقه (٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١).

تلاحقه متاعب رسالته في نومه، وذلك هو ما توحي به عبارته المعروفة: "تنام عيني ولا ينام قلبي"[1].

وإن أردنا تحليله النفسي من تصرفاته لقلنا: إن الرجل النئوم يَغُطُّ في نومه لا يأبه بشيء حوله، أما غيره فيهبّ من نومه لأقل نبأة[2]، وينهض في نشاط من فراشه، وقد ثبت أنه كان إذا سُمِعَ صريخ بالمدينة، وهبَّ القَوْمُ لإغاثة الصريخ، وجدوا رسول الله قد سبقهم لإنقاذه، وآب بعد أن أدركه فردَّهم من الطريق، لقد نهض لأول همسة صياحٍ نشيطًا، فأدركه على فرس أبي طليحة ثم رجع ولمَّا يصل القوم مكان الصريخ، وما لهذا دلالة نفسية إلا أن الرسول كان نومه خفيفًا وقليلًا، وإلا فمتى كان النبي ﷺ يصرِّف أمور "دين ودولة" ـ ولما تستكمل الدولة قوانينها ولا الدين شرائعه ـ إذا كان نئومًا كما يزعمون[3].

إذن.. لقد كان النبي مشغولًا بإيصال دعوته إلى الناس جميعًا شرقًا وغربًا، وقد دافع عن تلك الدعوة، وخاض الغزوات والحروب، فهل فعل ذلك وهو نائم؟! بالطبع لا ®.

ثالثًا. من الصفات التي اختص بها ﷺ أنه كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه:

يختلف نوم النبي ﷺ عن نوم غيره من البشر، فالإنسان العادي عندما ينام لا يتحرك من حواسه إلا ما يبقيه على قيد الحياة فقط، أما النبي ﷺ فلا ينام قلبه وإن نامت عيناه فهو في ذكر متواصل لله ﷻ، ولا يفتر قلبه عن ذكر الله وإن فتر لسانه، وأكدت العديد من الأحاديث النبوية على هذا، من ذلك ما جاء عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ أنه قال: "يا عائشة، إن عيني تنامان ولا ينام قلبي"[4]. فنومه ﷺ كله يقظة؛ لِيَعِي الوحي إذا أُوحي إليه في المنام؛ إذ رؤيا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وحي؛ بدليل قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم ﷺ: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (الصافات: ١٠٢)[5].

ويؤكد ذلك ما رواه أبو سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كيف صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قالت: "ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟ قال: تنام عيني ولا ينام قلبي"[6].

وفي رواية أنس بن مالك: "والنبي ﷺ نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب كان النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه (٣٣٧٦).

٢. النَّبْأَة: صوت ليس بالشديد.

٣. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص١١٠، ١١١ بتصرف يسير.

® في **"تبكير النبي ﷺ لصلاة الفجر وجلوسه حتى تطلع الشمس"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب التهجد، باب قيام النبي ﷺ بالليل في رمضان وغيره (١٠٩٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي في الليل (١٧٥٧).

٥. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص ٩٤ بتصرف يسير.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب كان النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه (٣٣٧٦).

قلـوبهم"[1]. فالأنبيـاء جميعًـا متوجهـون لله بقلـوبهم وأجـسادهم وأرواحهـم، حتـى في نـومهم، وإن كـان قليلًا، كما كان سيدنا محمد ﷺ.

من خلال ذلك يمكن لنـا أن نقـول لهـؤلاء الـذين يزعمون أن النبي ﷺ كان يقوم من نومـه ويـصلي بغـير وضوء: إن ما تظنونه مطعنًا على النبي ﷺ ما هو إلا خطأ في فهمكم، فإن الحقيقة التي تجهلونها هـي أن انتقـاض الوضوء بالنوم راجع إلى فقد السيطرة عنـد النـوم عـلى أماكن الإخراج، فإن تمت السيطرة عـلى هـذه الأمـاكن وضبطها فلا ينتقض الوضوء، وبناءً عليه فإن الذي ينام وهو جالس متمكن في جلسته - كما قرّر بعض الفقهـاء والعلماء - فإنه لا ينتقض وضوءه سواءٌ في ذلك النبي أم غيره.

وإذا ثبت أن النبي ﷺ لا ينام قلبه حين تنـام عينـاه، فإنه تكون له سيطرة على ذاته، وهذه منحة مـن الله لـه، معها لا ينتقض وضوءه كما لا ينـتقض وضـوء الرجـل العـادي إذا نـام وهـو جـالس مـتمكن، والله يمـنح الإمكانات لمن يشاء لا حرج على فضله.

فعلى الرغم من أن النبـي يـشارك أمتـه في التـشريع غالبًا، إلا أن له خواص اختـصَّه الله بهـا، فيـشدد عليـه أحيانًا على نحو ما فعل في قيام الليل، وصوم الوصـال، وينقص له أحيانًا على نحو ما فعل في إعفائـه مـن المَهْـر والوليِّ، والشاهدين، والقسم بين الزوجات في المـسائل العائلية.

وعليه فلم يكن النبـي ﷺ يـصلي بغـير وضـوء كـما يزعمون؛ لأن وضوءه - بكل بساطة - لم يكـن ينـتقض بنومه ﷺ.

الخلاصة:

- لقد التزم النبي ﷺ الصدق ظاهرًا وباطنًـا، فلـم يؤثر عنه أنه كذب قط، وقد شهد له بذلك حتى أعداؤه مثل أبي سفيان - قبل أن يسلم - حينما سأله هرقل: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فأجابه: أن لا"، ولا شك أن المنافق لا يمكن أن يكون صادقًا أبدًا.
- لقد حرص ﷺ على تبليغ كل ما يُوحَى إليه مـن ربه من ألفاظ، فلم يكتم منها مـا يخـالف هـواه، وهـذا ينافي الكذب والنفـاق والتـضليل المنـسوب إليـه كـذبًا وزورًا.
- لـو كـان النبـي ﷺ منافقًـا كـما يـزعم هـؤلاء، لنافق كفـار قـريش في وقـت ضـعفه، وهـو في أحلـك الظروف، فـإذ لم يثبـت هـذا، ثبـت لـه كـمال الـصدق والوضوح.
- لقد حذَّر النبي ﷺ كثيرًا من النفـاق والمنـافقين، ولو فعل ﷺ ما حذر منه، لانفضَّ عنه أتباعه ولشكُّوا في أمره، وهذا ما لم يكن؛ لأن ساحته ﷺ بريئة من الكذب والتضليل والنفاق.
- كـان النبـي ﷺ أحـرص النـاس عـلى طاعـة الله ﷻ، فكان يكثر من الطاعـات لينـال رضي الله ﷻ، وكان كثير الصلاة في الليـل وكثـير الـصيام في النهـار، وجاهد في سبيل تبليغ دعوة الإسلام صحيحة واضحة لا عوج فيها، إلى جانـب كونـه مرشـدًا للمـسلمين إلى طريق النجاة، فهل يعقل مع كل هذه المهام العظيمـة أن يكون النبي ﷺ كثير النوم والراحـة كـما يـدَّعي هـؤلاء

---

١. أخرجـه البخـاري في صـحيحه، كتـاب المناقـب، بـاب كـان النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه (٣٣٧٧)، وفي موضع آخر.

المتوهمون؟!

- ليس صحيحًا أن النبي ﷺ كان ينام نومًا عميقًا ثم يقوم يصلي بغير وضوء. وانتقاض الوضوء بالنوم - كما قرر بعض الفقهاء - راجع إلى فقد السيطرة عند النوم على أماكن الإخراج، فلا ينتقض وضوء النائم جالسًا سواء كان النبي أم غيره، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن النبي ﷺ كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، فكانت له سيطرة على ذاته، وهذه منحة إلهية وهبها الله لأنبيائه - صلوات الله عليهم - دون غيرهم من البشر.

الشبهة التاسعة عشرة

إنكار شجاعة النبي ﷺ ورميه بالجبن (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين شجاعة النبي ﷺ ويرون أنه كسائر بني جنسه من العرب، الذين يتّصفون بالجبن والخوف، ويتساءلون: كيف يكون محمد ﷺ شجاعًا، وهو من قوم ليسوا كذلك؟! هادفين إلى التشكيك في شجاعته ﷺ خاصة، وشجاعة العرب قاطبة، وذلك ضمن ما درجوا عليه من التشكيك في أخلاقه ﷺ وقلب خيرها شرًّا، وجميلها دميمًا، وحَسَنِها قبيحًا.

وجها إبطال الشبهة:

١) العرب بفطرتهم أصحاب شجاعة وشهامة ومروءة؛ فالعربي لا يرضى لنفسه الذل والمهانة، وإن أجبرته الظروف على ذلك، وقد ازدادت شجاعتهم بدخولهم الإسلام، وإيمانهم بالله ﷻ.

٢) لم يكن النبي ﷺ جبانًا، بل كان أشجع الشجعان، منذ كان صبيًّا، وحسْبه أنه واجه صناديد قريش، وطلب منهم تغيير عقيدتهم وتحطيم أصنامهم، وتغيير نظامهم الاجتماعي والديني، وقد كان ﷺ شجاعًا مغوارًا في الحروب، وما كان منه يَوْمي أُحُد وحُنَيْن خير شاهد على ذلك.

التفصيل:

أولا. العربي شجاع بفطرته:

الجزيرة العربية مع ذكاء أهلها واستقامة نفوسهم - وإن انحرفت عقولهم أحيانًا - معتَصم حَصين؛ فبيداؤها، وقُراها، وبرها فيها حصون لمنع الاعتداء الوحشي من الأمم التي اشتدت إغارتها في الماضي، "وفيها رجال شجعان حموا أرضهم من كل معتد أثيم، وإذا كان ثمة جوار وتقارب بينها وبين دولتي الفرس والروم فإن هاتين الدولتين لم تتجاوزا في سلطانهما أطرافها، ولم تتمكن إحداهما أن تنتقل من الأطراف إلى داخلها، فإنهما عندئذ تجدان قلوبًا صَلدة قوّاها ضوء الشمس الساطع.

ولعل أحسن تصوير للنفس العربية ما قاله الإمام الحكيم عمر بن الخطاب عندما تولّى إمرة المؤمنين، فقد قال ﷺ: "مثل العرب مثل جمل أُنُفٍ اتبع قائده، فلينظر قائده"[(١)].

(*) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق.

١. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، باب في فضل العرب (٣٢٤٧٣).

فهناك عناصر ثلاثة نمَّت في العرب خلق الشجاعة:

١. قوة في النفس تقاوم ولا تستسلم، واعتُبر ذلك في النصارى المؤمنين الذين لم يغيِّروا ولم يبدِّلوا دينهم، ولـمَّا حاول تُبَّع أن يُغيرهم ووضعهم في الأُخدود ما نال مأربًا، ولا وصل إلى مُبتغًى.

٢. صفاء نفسي، وقوة مدارك، احتفظوا بها حتى في جاهليتهم، وصدق النفس، والصدق في القول والعمل الذي يوجهون إليه.

٣. الأَنَفة وألا يطيعوا في ذلة، بل يتبعون في هداية ورشد مختارين، غير مجبرين[1]، ومن ذلك اتحادهم وهزيمتهم للفرس في معركة ذي قار.

وتلك صفات قد اجتمعت في العرب، ولم تكن لغيرهم من الفرس مثلًا؛ فقد فرض كسراهم عليهم المذلة والهوان، وتوزَّعتهم سيادة الأشراف، حتى إذا بعدوا عن ذل الملك، وجدوا ذل الحاشية، ووجدوا أنهم ينتقلون في الذل والهوان، وقد لانت نفوسهم وخنعوا لتلك المذلة والمهانة، وما وضعهم فيها إلا جبنهم وخوفهم، بعكس العرب الذين لا يرضون بمثل هذه الذلة وتلك المهانة وإن أجبرتهم الظروف على التصبّر، وعلى أكل العَلْقَم، فقد كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها، وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية، مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوسهم وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلًا يوم البَسُوس، وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقًا أقيم بين داحس، وهو فرس لقيس بن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر، فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي، فإذا رأى داحسًا قد سبق يرده، وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراءُ، وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان. وكذلك الحروب التي قامت بين الأوْس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم[2]، فتلك الحروب إن دلت على شيء فإنما تدل على شجاعتهم، وعزة النفس التي جعلتهم يَأْبَوْن الذُّلَّ والمهانة.

لقد كان للعرب شجاعةٌ ومروءةٌ ونجدةٌ، وكانوا يتمادحون بالموت قتلًا، ويتهاجون بالموت على الفراش، حتى إن أحدهم ـ لما بلغه قتل أخيه ـ قال: إن يُقتل فقد قُتل أبوه وأخوه وعمه، إنَّا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف. وكانوا ينشدون:

وما مات منَّا سيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِه[3]
ولَا طُلَّ[4] منا حيثُ كان قَتِيلُ
تَسِيلُ على حَدِّ الظُّبَاةِ[5] نُفُوسُنا
وليستْ على غيرِ الظُّبَاةِ تَسِيلُ

وكان العرب لا يقدِّمون شيئًا على العزِّ وصيانة

---

١. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٤٣، ٤٤ بتصرف يسير.

٢. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٣٨، ٣٩ بتصرف يسير.

٣. مات حَتْفَ أنفه: مات على الفراش دون قتل.

٤. الطَّلّ: دم القتيل هُدِر ولم يُثأر به ولم تؤخذ دِيَته.

٥. الظُّبَاة: جمع ظبتة، وهي حدُّ السيف أو الرمح أو نحو ذلك.

العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم، قال عنترة:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الحُتُوفُ[1] كأنَّني

أصبحتُ عن غَرَضِ الحُتُوفِ بِمَعْزِلِ

فَأَجَبْتُها إنَّ المَنِيَّةَ مَنْهَلٌ

لا بُدَّ أنْ أُسْقَى بِكَأسِ المَنْهَلِ

فاقْني[2] حياءَكِ لا أَبَا لكِ واعلَمي

أَنِّي امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقْتَلِ

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيفَ أو العاجزَ أو المرأةَ أو الشيخَ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه، ويرون أنه من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم.

ومن سمات العرب عِشْقُهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل؛ فالعرب بفطرتهم يعشقون الحرية، يحيون لها، ويموتون من أجلها؛ فقد نشأ العربي طليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلًا، أو يُمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته، فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار[3].

كما كان العرب في الجاهلية شجعانًا، ازدادت شجاعتهم بالدخول في الإسلام، بقوة الإيمان الصادق، الذي ينادي به الإسلام، وبدءوا يدافعون عنه بعزيمة قوية، حتى انتشر الإسلام في جميع أنحاء العالم، فقد كان العرب نواة الإسلام الأولى الذين نشروا رسالته، وفتحوا الدول، وأسقطوا عروش كسرى وقيصر.

وأسطع دليلٍ على شجاعة العرب التي خَفيت على المشككين أو تناسوْها، موقعة تبوك في العام التاسع من الهجرة الذي يقابل عام ٦٣٠م، فتلك الموقعة تحكي توجُّه القوات الإسلامية لمواجهة قوات الدولة البيزنطية بقيادة الإمبراطور هرقل في عقر دارهم في الشام، رغم أن عدد قوات المسلمين أقلّ من ثلث عدد قوات بيزنطة، فإن لم تكن الشجاعة في العرب والمسلمين، فلمن تكون[4]؟!

فهل يصح لزاعم - بعد عرضنا لكثير من المواقف التي تدل دلالة قاطعة على شجاعة العرب قبل الإسلام وبعدَه - أن يزعم أن العرب لا يتصفون بالشجاعة ®؟!

ثانيًا. شجاعة النبي ﷺ:

لم يكن النبي ﷺ جبانًا، وما ينبغي له أن يكون كذلك، بل كان أشجع الشجعان، فلم يَحِد عن الشجاعة أبدًا؛ صبيًّا وشابًّا وشيخًا، كان شجاعًا قبل دعوته، وفي أثنائها، وبعد أن قامت دولة الإسلام على إثرها، كان شجاعًا حين آمنت معه فئة قليلة لا تكوِّن كيانًا لأمة، وكان شجاعًا حينما دخل الناس في دين الله أفواجًا، وكان شجاعًا في كل مواقعه وغزواته، كان شجّاعا حين علَّم أصحابه الكرام الشجاعة، فظهر فيهم رجل كـ "خالد بن الوليد". وقد رُوي عن ابن عمر أنه

١. الحُتُوف: جمع الحَتْف، وهو الهلاك.

٢. اقني حياءك: الزَمِيه.

٣. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج١، ص٤١، ٤٢ بتصرف يسير.

٤. محمد ﷺ والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١٢٩ بتصرف يسير.

® في **"فضائل وأخلاق العرب في الجاهلية"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة السادسة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

قال: "ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضَى من رسول الله ﷺ"[1][2].

وفيما يأتي نذكر طرفًا من النماذج التي تدلل على شجاعته ﷺ:

لقد استُحْلِف مرة وهو صبيٌّ ــ وهو في الحادية عشرة ــ باللَّات والعُزَّى، فقال لمن استحلفه: لا تسألني بهما شيئًا، فوالله ما بغضت شيئًا بغضي لهما".

هذا الصبي يتحدث بهذه الجرأة عن آلهة القوم، لا يخشى بطشًا، وهو المشهور بالحياء، حتى قيل فيه: إنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها، وفي حرب الفجار وهو دون العشرين كان يَنْبِل على أعمامه[3].

وحينما أُوحي إليه بدت شجاعته حين خرج على قومه مفاجئًا لهم بالدعوة التي كرهوها، وشجاعته وهو يصابر على الأذى والسخرية، وشجاعته وقد تعاهدت قريش في صحيفة عُلِّقت بالكعبة على مقاطعة عمِّه أبي طالب، ومن تبعه من بيت بني هاشم والمطلب لحمايتهم له، فبقُوا في الشدة ثلاث سنين، وهو على هذا دائب على أن يصلي في البيت ويجهر بالقرآن، وشجاعته حينما بعث أنصاره إلى الحبشة فرارًا من الأذى والموت، وصبره هو بعدهم وحيدًا يتعرض للأذى والموت، وشجاعته وقد مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة في أيام متتابعات، وكان في عمه وزوجه النصير والوزير، ثم يبقى بعد ذلك قائمًا بمكة، تمر الحادثات عليه كأنها الأعاصير تعصف في ذروة الطود الراسخ، وثباته في الموقف وحيدًا، إذ يعْرِضُ نفسه على القبائل، ويَلقى السخرية وأشنع الرد بالقول والفعل، حتى إذا ما انصرف كلّ أنصاره مهاجرين ليثرب، جاء البيت يومًا بعد يوم يقيم صلاته ونُسكه جهرًا، ويتلو القرآن جهرًا.

تلك صور لو رُسمت وعُرضت، لكانت أبهج ما تنشرح لها صدور الأبطال في كل جيل وأمة، ولجُعِلت إمامته في الشجاعة النفسية مرضية للأجناس والأديان: سودًا وبيضًا، موحدين ومشركين.

تلك الشجاعة النفسية أو الأدبية التي لا تَهُن للسخرية، ولا تذِلّ للوعيد، ولا تطيش للوعد، والتي أمسكت الخلق المحمدي، فكانت سنده الذي لا يتزلزل، هي شجاعة مقطوعة النظير في تاريخ البشر.

انظروا إليه وقد سلَّطوا عليه سلاح السخرية، وهي أفتك ما يكون بالعزيمة، وأقتل ما يكون لحماس الرجال، هي أفتك من الأذى والاضطهاد.

وقف مرة على الصفا ينادي قريشًا، فلما جاءوا يستمعون أنذرهم حساب الله فتركوه وانصرفوا، ولم يزد أبو لهب على أن قال: تبًّا لك! ألهذا دعوتنا.. ؟

كانوا يتواصون فيما بينهم: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (فصلت)، فهم يعلمون أن سلاح الهزء والسخرية أنكى على الدعوة من الاضطهاد والأذى، فلم يغفلوا عن هذه السخرية، فلما أشار القرآن إلى شجرة الزقوم تخويفًا لهم، ازدادوا طغيانًا، وقال بعضهم مستهزئًا: يا معشر قريش، أتدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ إنها عجوة يثرب

---

١. أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب في حسن النبي ﷺ (٥٩).

٢. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٢٤.

٣. بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي محمد ﷺ، عبد الرحمن عزام، مرجع سابق، ص٢١، ٢٢ بتصرف يسير.

بالزبد، والله لئن استمسكنا بها لنمزقنَّها تمزيقًا.

ولما أشار القرآن إلى جهنم، وأن عليها تسعة عشر من الزبانية، قال أبو جهل وهو يهزأ برسول الله: يا معشر قريش، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار، ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر عددًا، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فنزل القرآن: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (المدثر: ٣١).

كان الرسول ﷺ إذا جلس مجلسًا يعظ الناس خَلَفَه في مجلسه "النضر بن الحارث" وكان قدم الحيرة، وتعلَّم بها أحاديث الفُرس، وأحاديث رستم وإسفنديار، فيقول: يا معشر قريش، أنا والله أحسن من محمد حديثًا، فهلمّوا إلي، فأنا أحدثكم، وأنزل مثل ما أنزل الله، ثم يحدثهم عن رستم وإسفنديار وملوك الفرس.

ولـمَّا ذهب خبَّاب بن الأَرَتّ ـ أحد المستضعفين من أصحاب رسول الله، وكان صانعًا للسيوف ـ يتقاضَى من العاص بن وائل ـ أحد عظماء مكة ـ أجر ما صنع، فقال له: يا خباب، أليس يزعم محمد صاحبكم أن في الجنة ما ابتغى أهلها؟ قال خبّاب: بلى، قال: فأَنْظِرْني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله، لا تكوننَّ أنت وأصحابك يا خباب آثر عند الله مني ولا أعظم حَظًّا.

وكان الوليد بن المغيرة قد انفرد بالرِّياسة في مكة، وأبو عروة بن مسعود الثقفي قد انفرد بالرياسة في الطائف، فكانوا يقولون تهكُّمًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف) تصغيرًا من شأن محمد ﷺ وزِراية به.

لم تزدهم هذه السخرية على إضرارها بالدعوة إلا غفلة، ولا زادته ﷺ إلا صبرًا واستبسالًا، فمرَّت السنون على هذا التهكُّم والأذى، والشجاعة النفسية تسنده، وتعلو به، وتقر هيبته، وتلقي الرعب في نفوس أعدائه.

فلما تحطمت أسلحة السخرية والأذى على جنبات النفس الأبيّة، وتآمر المشركون على قتله، خرج مستخفيًا مهاجرًا، فكان وهو في الغار يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

وابتدأ بذلك دور الصراع، الذي لمع فيه السلاح، كما لمعت النفس التي صقلتها الشجاعة، فعرف رسول الله كيف يصبر ويرضى، وكيف يثور ويغضب، وبقي خالدًا تنطوي صفحات الأبطال، وصفحته منشورة تُقرأ فيها آيات الشجاعة والصبر، ويظل بها رسول الله ﷺ المثل الأعلى[1].

ومن مواقفه ﷺ التي لن ينساها التاريخ، مقولته الشهيرة عندما مشى إلى أبي طالب نفر من عظماء قريش أزعجهم ما جاء به الرسول ﷺ من دعوة لعبادة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام، وقالوا: "إنا والله لا نصبر على هذا من شَتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين".

فلما رأى أبو طالب الغدر في أعينهم، وظهر له إصرارهم على ما هم فيه من ضلال قال لسيدنا رسول الله ﷺ: "يا ابن أخي، إن بني عمك يزعمون أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانته عن ذلك"، وهنا..

١. المرجع السابق، ص٢٤: ٢٢ بتصرف يسير.

سكت سيدنا رسول الله ﷺ قليلًا، وقال مقولته التي لن ينساها التاريخ: "هل ترون هذه الشمس"؟ قالوا: نعم، قال: "ما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا لي منها شعلة". لقد تدفقت أنوار هذه الكلمات الحاسمة من معين الشجاعة، التي أوتِيَها أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ.

ولقد انبهر أبو طالب بشجاعة ابن أخيه، وأخذ بهذه الكلمات التي أقرّت في وجدانه ثبات هذا النبي الكريم ﷺ ورباطة جأشه، وقوة إيمانه، وعمق الصلة بينه وبين ما يدعو إليه، وأيقن أن قوة قريش مهما عظمت فلن توقف هدير الإيمان في قلب محمد ﷺ، وأن محمدًا يمثل كلمة الله، وقضاءه وقدره ﷻ، وكلمة الله هي العليا، وقضاؤه حتمي النفاذ، فلما وجد ابن أخيه يغادر المكان مصمّمًا على المضي في الدعوة إلى الله ناداه وقال: "ما كذبنا ابن أخي فارجعوا"، قال: فرجعوا[1]. فانطلق بشجاعته داعيًا ومجاهدًا إلى أن وصل بالإنسانية إلى ربها رب الوجود[2].

ومن شجاعته ﷺ ما حدث يوم أحد، حيث سعى المسلمون إلى الغنائم، وترك الرماةُ مواقعَهم، وخالفوا أمر النبي ﷺ ولحقت الهزيمة بالمسلمين، فإذا بالنبي ﷺ ثابت كالطود العظيم، ومعه قلةٌ من الصابرين المجاهدين.

ولـمَّا بدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين، والهدف الرئيس هو شخص النبي محمد ﷺ، لم يتزحزح ﷺ عن موقفه، والصحابة ﷺ يسقطون واحدًا تِلْو الواحد، وحُصر رسول الله ﷺ بين المشركين، وليس معه إلا تسعة من أصحابه، سبعة منهم من الأنصار، وكان الهدف أن يفك هذا الحصار، وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه، واستبسل الأنصار في الدفاع عن الرسول ﷺ، واستشهدوا واحدًا بعد الآخر.

وثبت رسول الله ﷺ كالجبل الأشم، يدافع ويجالد جموع المشركين المحيطين به من كل ناحية، وهو يقول: "إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله"، ففاء[3] إليه الكثيرون ممن أذهلتهم شائعة أنه قُتل، فقعدوا عن القتال، وممن تفرقوا يقاتلون بين الصفوف، حتى تكوَّنت حوله ثُلَّة[4] من أصحابه، فسار بهم حتى وصل إلى الصخرة التي فوق الجبل، وكان أول من عرف رسول الله بعد شائعة قتله كعب بن مالك، فإنه رأى عينيه تزهَران[5] من تحت المِغْفَر[6]، فنادى: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله، فأشار إليه الرسول أن أنصت، وكانت تلك حكمة بالغة منه؛ فإن شائعة قتله كان من شأنها أن يخفف المشركون الوطأة على المسلمين، فإذا ما علموا أنه لا يزال حيًّا عاودوا الكرة وكرروا محاولة قتله، ولكن لم يلبث أن ذاع الخبر وانتشر بين المسلمين، فقويت العزائم بعد خَوَر[7]، وتجمعت الصفوف بعد

١. حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند عبد الله بن جعفر الهاشمي (٦٨٠٤)، والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب حمل بن مالك بن النابغة الهذلي (٦٤٦٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٢).

٢. الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع كفافي، مرجع سابق، ص٣٤٠، ٣٤١ بتصرف يسير.

٣. فاء: رجع.

٤. الثُّلة: جماعة من الناس.

٥. تزهران: تلمعان.

٦. المِغْفَر: دِرْع يحمي الرأس.

٧. الخَوَر: الضعف.

تفرق، ثم أراد رسول الله أن يعلو الصخرة التي في شِعب الجبل، فلم يستطع لكثرة ما نزف من دمه الزكي، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله حينئذ: "أوجب[1] طلحة"[2]. وبصر رسول الله بجماعة من المشركين فيهم خالد بن الوليد على ظهر الجبل، فقال: "لا ينبغي لهم أن يعلوا علينا"، ثم أرسل إليهم عمر بن الخطاب في رَهْط من المهاجرين، فقاتلوهم حتى أهبطوهم.

وهذا يدل على أن المسلمين على الرغم مما أصابهم من جروح وهزيمة كانوا - ولا يزالون - بهم قوة ومنعة، أرساها الرسول ﷺ بشجاعته وإيمانه[3].

ومن شواهد شجاعته ﷺ ما رُوي عن مِقْسَم مولى ابن عباس قال: وأما أُبيّ بن خَلَف فقال: والله لأقتلن محمدًا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: "بل أنا أقتله إن شاء الله"، قال: فانطلق رجل ممن سمع ذلك من النبي ﷺ إلى أبي بن خلف، فقيل: إنه لما قيل لمحمد ﷺ ما قلت قال: "بل أنا أقتله إن شاء الله"، فأفزعه ذلك وقال: أنشدك بالله، أسمعته يقول ذلك؟ قال: نعم، فوقعت في نفسه؛ لأنهم لم يسمعوا رسول الله ﷺ يقول قولًا إلا كان حقًّا، فلما كان يوم أُحُد خرج أبي بن خلف مع المشركين، فجعل يلتمس غَفْلَة النبي ﷺ ليحمل عليه فيحول رجل من المسلمين بينه وبين النبي ﷺ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال لأصحابه: "خلُّوا عنه"، فأخذ الحَرْبَة فجزله بها - يقول: رماه بها - فيقع في تَرْقُوَته تحت تَسْبِغة البيضة[4] وفوق الدرع فلم يخرج منه كبير دم، واحتقن[5] الدم في جوفه، فجعل يَخُور[6] كما يخور الثور، فأقبل أصحابه حتى احتملوه وهو يخور وقالوا: ما هذا؟! فوالله ما بك إلا خدش، فقال: والله لو لم يصبني إلا بريقه لقتلني، أليس قد قال: "أنا أقتله إن شاء الله"، والله لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لقتلهم، قال: فما لبث إلا يومًا أو نحو ذلك حتى مات إلى النار، فأنزل الله فيه: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ (الفرقان: ٢٧) إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفرقان)[7].

ومن هذه المواقف التي تنطق بشجاعته ﷺ: ما حدث يوم حنين، حيث فرّ الشجعان وتركوه في ساحة الوَغَى، وهو يجول ويصول، ويصد الهجمات؛ لأن هوازن رشقت الجيش المسلم بالنبال رشقًا شديدًا ومكثفًا، إذ أعدّوا للمسلمين كمينًا، سأل رجل البراء بن عازب: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكنْ رسول الله ﷺ لم يفر، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي يقول: أنا النبي لا كَذِبْ، أنا ابن عبد المطلب.

---

١. أوجب: أتى من الحسنات ما أوجب له الجنة.

٢. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند الزبير بن العوام ﷺ، والترمذي في سننه، كتاب الجهاد، باب الدرع، (١٦٩٢)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٥).

٣. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص١٩٨، ١٩٩ بتصرف يسير.

٤. تَسْبِغة البيضة: ما تُوصَل به الخُوذة من حِلَق الدروع فتستر العُنُق.

٥. احتقن الدم: لم يَسِل.

٦. يَخُور: يصدر صوتًا.

٧. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب المغازي، باب وقعة هذيل بالجريع (٩٧٣١)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأنفال (٣٢٦٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في التلخيص.

قال الحاضرون يوم حنين: فما رُئي يومئذ أحد كان أشد منه، وكان قد نزل عن بغلته، ولم يبق معه ﷺ غير العباس، وأبي سفيان بن الحارث، وأيمن بن أمّ أيمن، فطفق الرسول يطارد الكفار، ثم أمر العباس أن ينادي: أين أصحاب السَمُرَة، فقالوا: يالبيّك يالبيّك، فاقتتلوا مع المشركين، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيَات، فرمى بها في وجوههم، ثم قال: "انْهزِمُوا وربِّ محمد"[1]. قال راوي الحديث: فوالله، ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدَّهُم كليلًا[2]، وأمرَهم مُدبِرًا.

وعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي[3] وفي عنقه السيف، وهو يقول: "لم تُراعوا، لم تُراعوا"[4]، ثم قال: وجدناه بحرًا أو قال إنه لبحر[5]. فلم تمهله همته ﷺ لإسراج فرسه أو إلجامه، وإنما ركبه عاريًا عن كل ذلك سابقًا أمته ليدفع عنها السوء[6].

إن الجبن والخوف، "لا يجتمعان مع الإيمان الصادق بالله ﷻ؛ لأن الإيمان بالقضاء والقدر، والاعتزاز بالله يدفعان إلى الجرأة والإقدام، ويملآن النفس المؤمنة شجاعة فائقة، وثقة تامة بالنفس لا تعرف التخاذل والتردد، أو الضعف والهرب، والشجاعة فضيلة تعبر عن الجرأة الفائقة وغضب النفس المنقادة للعقل والحكمة، والاتزان والنجدة؛ ثقة بالنفس عند الإقدام على الموت دون خوف، فهي قوة تنشأ عن الشجاعة، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الأنفال).

وقد امتاز الأنبياء والرسل عليهم السلام بعزيمة قوية، وشجاعة نادرة وجرأة ونجدة واضحة، لكمال إيمانهم وقوة يقينهم بالله، وصدقهم مع الله، وكان نبينا ﷺ في قمة هذه الأوصاف، فكان إقدامه في مقارعة الأعداء مثلًا فذًّا لا مثيل له، ولا نظير له عند أحد الشجعان البارزين"[7].

"لقد كان النبي ذا شجاعة وبسالة وشدة وبأس وشهامة وحماسة وصرامة وإقدام، أذهب الشك بحق اليقين وأرهب العدا بسيفه المتين، وسفّه أحلامهم، ونكّس أعلامهم، وزَيّف أقوالهم وأفعالهم، واستباح أرضهم وديارهم وأموالهم، وأظهر دين المسلمين بصحبه الأشداء على الكفار، حضر الوقائع، وشهد الملاحم، وتولّى الكُماة[8] عنه وهو مستقر، وفر المسلمون من حوله يوم حنين، وهو ثابت لا يبرح، مقبل لا يدبر ولا يتزحزح، ما لقي كتيبة إلا وكان أول ضارب، ولا توانى القوم لحدوث صوت إلا كان أسرع

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٤٧١٢).
٢. الكَلِيل: الكسلان المُتعَب.
٣. العُرْي: غير مُلجَّم ولا مُسرَّج.
٤. لم تُراعوا: لا فزع ولا روع، فاسكنوا.
٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق (٢٧٥١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في شجاعة النبي وتقدمه للحرب (٦١٤٦)، واللفظ للبخاري.
٦. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل أحمد، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٨٩ بتصرف يسير.

٧. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٢٣.
٨. الكُماة: المقاتلون الأبطال.

واثب، لم يُرَ أثبت منه جأشًا في الجهاد، ولا أقرب لجهة المشركين وقت الجِلاد.

تصدَّى لجهاد الأعداء، وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته: وهو في قطر مهجور، وعدد محقور، وبذلك جمع بين التصدي لشرع الدين حتى أظهره ومكافحة العدوّ حتى قهره، فلقد صابر العدوّ، وأبلى معه بلاءً حسنًا، فلم يشهد حربًا إلا صابرًا حتى انجلت عن ظفر أو دفاع، وهو في موقفه لم يزل عنه هربًا.

ما سمعنا بشجاع إلا أُحصيتْ له فرَّة سوى محمد ﷺ فقد ثبت في جميع المواقف الصعبة؛ لذلك قال علي رضي الله عنه: "كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه"[1]. ولم يكن مثله مثل قُوَّاد هذا الزمان، يكونون أقرب إلى المنعة والأمنة منهم إلى مرمَى القنابل والمُهلِكات[2].

إن شجاعة النبي ﷺ كانت أعظم من شجاعة أي شجاع، إذ تحدَّى الوثنيات والأنظمة الاجتماعية الفاسدة في العالم، واجهها بقوة وصرامة، حتى غيَّر النفوس والأفئدة والأنظمة.

فهل يُعْقَلُ بعد هذا كله أن يَزعم زاعم أنه جبان؟! إذا كان النبي ﷺ جبانًا فلا شجاعةَ إذن، ولا شجاع®!!

الخلاصة:

- لقد كان العرب منذ جاهليتهم مضرب الأمثال في الشجاعة والتضحية بالنفس، وقد كانوا يأبون الذل والمهانة.
- وكما كان العرب أصحاب شجاعة في الجاهلية وكانوا أكثر من ذلك بعد الإسلام، إذ أكسبهم الإسلام قوة الإيمان الصادق بما يدعون إليه، وقد ظهر ذلك في معاركهم التي نشروا بها الإسلام في جميع أنحاء العالم، وقد هزم العرب المسلمون الفرسَ والرومَ، وأكبر دليلٍ على شجاعتهم غزوة تبوك التي خرج لها المسلمون رغم قلة عددهم وعدتهم، وكثرة عدد عدوهم ووفرة سلاحه.
- لم يكن النبي ﷺ جبانًا كما يزعمون، بل كان أشجع من عرفت البشرية، وكتب السيرة تشهد بذلك بما حَوَتْهُ بين طياتها من مواقف تدل على شجاعته ﷺ، فلم يفعل كما يفعل القادة من التخطيط، والتحريض على القتال فقط، بل كان رسول الله ﷺ مشاركًا بنفسه في الحروب والغزوات التي غزاها، وفي ذلك يقول علي رضي الله عنه: "كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه"، وشواهد شجاعته كثيرة منها أنه تحدى قريشًا بعظمائها، وطلب منهم تحطيم الأصنام، وتغيير النظام الاجتماعي والسياسي، إذا لم يكن مثل هذا التحدي شجاعة، فما هي الشجاعة إذن؟



---

١. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١٣٤٦)، وأبو يعلى في مسنده، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٠٢)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقات المسند (١٣٤٦).

٢. محمد المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٢١، ٢٢.

® وفي **"ظهور شجاعة النبي ﷺ في غزوتي أحد وحنين"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة والعشرين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

الشبهة العشرون

الطعن في حيائه ﷺ(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المفترين في حياء النبي ﷺ، مستدلين على ذلك بأنه ﷺ تعمَّد كشف عورته أمام الناس أثناء بناء الكعبة، وأنه ﷺ استقبل أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - ذات مرة وهو مضطجع كاشفٌ فخذَه، فلما دخل عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه غطَّى فخذه، واستحيي أن يراه عثمان على هذا الوضع، وأنه ﷺ لم يكن يستحيي من لبس مِرْط[1] زوجه عائشة - وهو في ظنهم ثوبها أو فستانها - بل وأن يستقبل فيه زائريه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) كان النبي ﷺ أشد الناس حياءً، فقد كان أشد حياءً من العَذْراء في خِدْرها، والمتأمل في سيرته ﷺ يجد الكثير من الشواهد على هذه الحقيقة.

٢) لم يتعمَّد النبي ﷺ كشف عورته قبل البعثة، فالله حفظه حتى من التعرِّي على سبيل الخطأ وهو صبي؛ وذلك بسقوطه ﷺ على الأرض ممَّا مكَّنه من شدِّ إزاره ﷺ على عورته.

٣) إن استقبال النبي ﷺ لعثمان بن عفان رضي الله عنه على غير الهيئة التي استقبل عليها أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما -، فإنما يدل على مراعاته لحياء عثمان، ولا يطعن في حيائه ﷺ أو ينتقص من مكانة أبي بكر وعمر عنده ﷺ.

٤) ليس في لبس النبي ﷺ لمرط السيدة عائشة أيَّة منقصة لحيائه ﷺ؛ لأن المِرْط ليس معناه الثوب أو الفستان كما يتوهمون، بل هو الكساء غير المخيط، وهو مشترك بين النساء والرجال، وليس فيه خصوصية لأحد الجنسين، ويكون لبسه أن يُلتحف به أو يُفْرش على الأرض.

التفصيل:

أولا. كان النبي ﷺ أشد الناس حياءً:

الحياء قسمان: غريزي، ومكتسب، والحياء المكتسب: هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلَّف به دون الغريزي، وقد يتطبع الشخص بالمكتسب حتى يصير كالغريزي، وقد جُمِع النوعان للرسول ﷺ، فكان في الغريزي أشدَّ حياء من العذراء في خدرها؛ وكان في المكتسب في الذروة العليا[2].

وخُلُق الحياء من أعظم الأخلاق التي ينبغي أن يتحلَّى بها كل مسلم، ولأجلِ عظيمِ أثره، وشَرَف قدره، تصدَّر الحياء طليعة الخصائص الأخلاقية لهذه الملة الحنيفة؛ فقد رُوي عن زيد بن طلحة عن الرسول ﷺ أنه قال: "إن لكل دين خلقًا، وخلق الإسلام الحياء"[3][4].

(*) موقع الكلمة. www.alkalema.net. موقع طريق الإيمان. www.Imanway.com

١. المِرْط: كِساء غير مَخِيط يُلتَحَف به.

٢. موسوعة أخلاق الرسول، محمود المصري، مرجع سابق، ص٥٢٧ بتصرف يسير.

٣. صحيح: أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في الحياء، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحياء (٤١٨٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٠).

٤. موسوعة أخلاق الرسول، محمود المصري، مرجع سابق، ص٥٢٥.

لهذا لا نعجب إذا علمنا أن النبي ﷺ كان أشد الناس حياءً حتى إنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه، عرفناه في وجهه"[1]. ولهذا نجد مظاهر حيائه تبدو في عامة أحواله، وذكر بعضها يدل على سائرها.

لقد كان النبي ﷺ أعظم الناس حياءً؛ لأنه أعظمهم إيمانًا، وقد قال: "الحياء من الإيمان"[2]، وقد مرَّ بنا حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها"، ومن المعلوم أن المرأة العذراء، وهي البكر المستترة في خدرها أي من ناحية بيتها أو خيمتها، تكون شديدة الحياء، فلقد كان رسول الله ﷺ أشد حياء منها.

ومن حيائه ﷺ: "أنه كان إذا أراد حاجة لا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض"[3]. عن بلال بن حرث: "أنه كان إذا أراد الحاجة أبعد"[4]؛ أي: قصد مكانًا بعيدًا منعزلًا[5].

فكيف يدعي هؤلاء أن النبي ﷺ كان دائم التعري، أو أنه كان يكشف عورته للناس؟! إن هذا ما لا يقبله عقل إنسان راجح.

وقد جاء عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: سألت امرأة النبي ﷺ كيف تغتسل من حيضتها؟ قالت: فذكرت أنه علَّمها كيف تغتسل، ثم تأخذ فُرْصَة[6] من مسك فتطهَّر بها، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: "تطهري بها، سبحان الله"! واستتر بيده على وجهه، قالت عائشة: واجتذبتها إليَّ، وعرفت ما أراد النبي ﷺ فقلت: تتبعي أثر الدم"[7].

ومن حياء الرسول ﷺ ما رُوي عن مالك بن صعصعة ﷺ من تردد النبي ﷺ ـ ليلة المعراج ـ بين ربه وبين موسى، وسؤال ربه التخفيف في الصلاة حتى جعلها خمسًا، فقال له موسى ﷺ: "ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك"، قال: "سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضَى وأسلِّم"[8][9].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٥٧٥١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ (٦١٧٦).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان (٢٤)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١٦٣)، واللفظ له.

٣. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الطهارات، باب من كره أن ترى عورته (١١٣٩)، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب كيف التكشيف عند الحاجة (١٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٧١).

٤. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب التباعد للبراز في الفضاء (٣٣٦)، والنسائي في المجتبى، كتاب الطهارة، باب الإبعاد عند إرادة الحاجة (١٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٥٩).

٥. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص١٤٤ بتصرف.

٦. الفُرْصة: قطعة مشقوقة من الثوب.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض وكيف تغتسل وتأخذ فرصة (٣٠٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك (٧٧٤).

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج (٣٦٧٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات (٤٢٩)، واللفظ للبخاري.

٩. موسوعة أخلاق الرسول، محمود المصري، مرجع سابق، ص٥٣١.

وورد أن بعض أصحابه ﷺ كانوا ـ لفرط كرمه ـ يتناولون الطعام في بيته، ثم يأخذون في الحديث، فكان هذا يؤذي النبي ﷺ وقد يكون منه اضطراب في بيته، وإقلاق لراحة أهله، وضيق في ذات نفسه، ولكن النبي ﷺ كان يستحيي من أن يأمرهم بالخروج، أو يطلبه منهم، أو يشير به بأي نوع من أنواع الإشارة حتى تولَّى الله ﷻ تعليم المؤمنين الأدب في هذا المقام، وأعفى رسوله من أن يخالف قانون حيائه، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

ومن مظاهر الحياء النبوي وعدم المجابهة من غير ضياع للحق، أنه كان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لا يجابهه بأنه فعل ما يكره في الشرع ولا يحبه رسول الله ﷺ، بل كان يقول: "ما بال أقوام يصنعون كذا أو يقولون كذا"، فينهى عن العمل ويستنكره ولا يُسمِّي فاعله.

ومن مظاهر حيائه ﷺ، أن الفعل إذا كان يندر وقوعه، لا يجابِهُ صاحبه ـ إذا وقع منه ـ بالنهي، بل يحث أصحابه على أن ينبهوه، وقد دخل عليه مرة رجل عليه ثياب معصفرة زاهية تبهر الأنظار، فرأى أن هذا لا يليق أن يكون لبسة الكاملين، ومع ذلك لم ينبهه النبي ﷺ، بل بعد أن خرج أمر بعض صحابته أن ينبهه، وقد دفع النبي ﷺ إلى ذلك حياؤه أولًا، والرفق بالرجل من مرارة الإعلان ثانيًا، وصونه من أن يلحقه خزي ثالثًا.

ومن مظاهر حيائه ﷺ ولطف مودته أنه كان إذا لقي الرجل بوجه لا يتجه بصفحة وجهه إلى جانب آخر، حتى يكون محدثه هو الذي ينصرف عنه، وروى أنس أنه كان إذا صافح رجلًا لا ينزع يده منه، حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده، وإذا أراد رجل أن يُسِرَّ إليه حديثًا في أذنه، حنى رأسه له، واستمر حانيًا رأسه، حتى يكون الرجل هو الذي ينحِّيه.

وقد يقول قائل: ما للحياء والشمائل النبوية التي من شأنها أن تسهِّل دعوة الرسول ﷺ، إنه أدب شخصي ليس له صلة بالدعاية أو تبليغ الرسالة؟!!

ونقول إن خلق الداعي يجذب إلى موضوع الدعوة، فلو كان الداعي فحَّاشًا، أو صخَّابًا، أو يغلب عليه التقريع والتعنيف وغلظة العبارة لنفر منه الناس، وما استجاب له إلا أهل الحق الصِّرف الذين لا يهمهم لون الدعوة، بمقدار ما يهمهم لبها.

وإذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس، ويوجهها نحو الحق، فإن الحياء أشد الأخلاق اجتذابًا للنفوس، فإن الحياء يجعل صاحبه لا يفْجأ الناس بما لا يسرُّهم بل يجيء إليهم من جانب ما يألفون، فلا تنفر النفوس، ولا تنشعب عن الحق، وإنَّ عنف الداعي وتفحُّش قوله يعوق دعوته، ويكون استثقاله مؤديًا إلى رده.

وإذا كان في الرجل مع الحياء لين في الطبع من غير ضعف، وقوة في الحق وُصل إليه من مداخل سهلة لينة، ولقد قال علي بن أبي طالب في وصف النبي ﷺ إنه كان أوسع الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة.

ولقد كان لالتقاء الخلق الحسن، اللطيف المعشر مع الحياء، والاستمساك بالحق مزيج من أخلاق كريمة،

جعله لا يترك التنبيه إلى الحق في رفق، وجعله يصل إلى ما يريد من إيغاله في القلوب.

ذكر بعض الذين أدركوه قصة تدل على جمع النبي ﷺ بين لُطف العِشرة، والحياء والتأديب اللطيف. يقول خوات بن جبير: "نزلت مع رسول الله ﷺ مر الظهر، فخرجت من خِبائي[1]، فإذا نسوة يتحدثن، فأعجبنني، فرجعت فأخرجت حُلَّة حَبِرَة[2] فلَبِسْتُها، ثم جلست إليهن، وخرج رسول الله ﷺ من قبته، فقال: "يا أبا عبد الله، ما يجلسك إليهن"، فهِبْتُ رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، جملٌ لي شرودٌ أبتغي له قيدًا، قال: فمضى رسول الله ﷺ، وتبعته فألقى رداءه.... ودخل الأراك فقضى حاجته وتوضأ، ثم جاء فقال: "يا أبا عبد الله، ما فعل شراد جملك"؟ ثم ارتحلنا، فجعل لا يلحقني في منزل إلا قال لي: "السلام عليك يا أبا عبد الله، ما فعل شراد جملك"؟

فتعجلت إلى المدينة، فاجتنبت المسجد، ومجالسة رسول الله ﷺ، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلو المسجد، فجعلت أصلي، فخرج رسول الله من بعض حجره، فجاء، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم جاء فجلس، فطوَّلت رجاء أن يذهب ويدعني، فقال النبي ﷺ: طوِّل يا أبا عبد الله ما شئت فلست بقائم حتى تنصرف.

فقلت: والله لأعتذرنّ إلى رسول الله ﷺ، ولأبردن صدره، قال: فانصرفت، فقال: السلام عليك يا أبا عبد الله، ما فعل شراد جملك؟ فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك منذ أسلمت، فقال ﷺ: رحمك الله مرتين أو ثلاثًا، ثم أمسك عني فلم يعد"[3].

فلتنظر لتأديب النبي ﷺ لأصحابه من غير فحش، لقد لاحظ رجلًا يرى جمعًا من النسوة يعجبنه، فيلبس أحسن ثيابه، ويجلس إليهن، فيسأله فيكذب، فيراه يخطئ خطأين:

أولهما: أن يخرق حجاب الحياء فيجلس في مجلس النساء وذلك خدش لحيائهن، وتهجّم عليهن، واختراق لحجاب الحياء في ذات نفسه.

ثانيهما: أن يكذب على رسول الله ﷺ، ويلح النبي ويومئ من طرف خفي إلى أنه لم يقل الحقيقة، فيكرر له ما اعتذر به وقتًا بعد آخر بأناة، وذلك ليحمله على التوبة والاستغفار، إنه يريده على التوبة عن أصل ما ارتكب ثم عن الكذب، فأخذ يكرر السؤال في شبه مداعبة، وهو يقصد اللوم، إنه ما انتهى من تكرار القول، وهو يعرف مداه من القلب، حتى أقرَّ بما ارتكب، وبأنه قد كذب على الرسول ﷺ، والإقرار بالذنب أول أبواب التوبة، وقد ندم على ما فعل؛ بدليل تهرُّبه من مواجهة النبي ﷺ[4].

ولم يكتف النبي ﷺ ببلوغ قمة الحياء فحسب، بل حضَّ المسلمين على التحلي بهذا الخلق الرفيع، فقد

---

١. الخِباء: بيت من وَبَر أو شَعر أو صوف.

٢. الحَبِرَة: ثوب من قطن أو كتان مُخطَّط كان يصنع باليمن.

٣. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب الخاء، خوات بن جبير الأنصاري بدري يكنى أبا عبد الله ويقال أبو صالح (٤١٤٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب المناقب، باب ما جاء في خوات بن جبير رضي الله عنه (١٦١٠٥)، وقال: رجاله رجال الصحيح غير الجراح بن مخلد وهو ثقة.

٤. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص١٨٧: ١٩٠ بتصرف يسير.

قال ﷺ: "الحياء كله خير"[١]. وقال أيضًا: "الحياء لا يأتي إلا بخير"[٢]. وقال: "الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبَذاء من الجفاء، والجفاء في النار"[٣].

وهكذا فقد كان النبي ﷺ، أشد الناس حياءً، وكان حياؤه ﷺ محمودًا، لا يصده عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعليه فإن أي قول يطعن في حيائه ﷺ، إنما هو قول باطل لا يقوم على أي دليل من الواقع، فما بالنا بوجود كثير من الأدلة التي تنفيه نفيًا تامًّا، وتنزه حياءه ﷺ عن أي مطعن؟!

ثانيًا. عصمته ﷺ من التعرِّي قبل البعثة:

حينما أرادت قريش تجديد بنيان الكعبة بعد تصدعه، شارك رسول الله ﷺ أعمامه في البناء ونقل الحجارة؛ فقد رُوي عن جابر قال: لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض وطمِحَت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: "إزاري إزاري، فشد عليه إزاره"[٤][٥].

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١٦٦).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحياء (٥٧٦٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١٦٥).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (١٠٥١٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٥).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب بنيان الكعبة (٣٦١٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة (٧٩٧).

٥. السيرة النبوية، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٨.

إن الخبر يدل على أن الله تبارك وتعالى كان يرعاه، وقد ربَّاه على عينه، فلما أخذ بنصيحة عمه العباس، ووضع بعض ثوبه على رقبته انكشف بعض عورته، فطمحت عينه إلى السماء، وأصابته غشية اتصال بالملأ الأعلى، وسترت عورته، فقد كان في حراسة الله ﷻ وحياطته.

إن المشككين إنما يهتمون ـ فقط ـ بفكرة تعرّي الرسول ﷺ، دون التفات منهم إلى كيفية هذا التعري، ودون التفات منهم إلى عصمة الله تبارك وتعالى له، ويصوِّرون الأمر على أنه تعمُّدٌ من النبي ﷺ، والصحيح أن رسول الله ﷺ لم يتعمد ذلك، فذلك من خوارم المروءة ®.

ثالثًا. استقبال النبي ﷺ لعثمان على غير الهيئة التي استقبل عليها أبا بكر وعمر، ليس فيها ما يطعن في حيائه:

لقد كان النبي ﷺ يُجِلُّ أصحابه كلَّهم أيَّما إجلال، ولم يفرق بينهم في يوم من الأيام في معاملة أو في حديث أو غير ذلك.

وفي حديثنا السابق عن حياء النبي ﷺ تبين لنا أنه كان أشد الناس حياءً وأبعدهم عن الفُحْشِ في القول والفعل، وعلى الرغم من تسليمنا بهذه الحقيقة التي لا يماري فيها أحد، فإن بعض الناس يحلو لهم تشويه الحق، وقلب الحقائق، فيذهبون إلى تصوير النبي ﷺ بصورة الرجل الذي لا حياء له، ولا يحترم أصحابه أو يتأدب معهم، ونحن إذا تتبعنا حجتهم في ذلك نجدها

® في "إثبات عصمة النبي ﷺ قبل البعثة" طالع: الشبهة السابعة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

حجة واهية لا أساس لها.

وفيما يأتي نذكر القصة التي يستدلون بها لتمحيصها وإظهار وجه الحق فيها كما رواها الإمام مسلم:

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله وسوَّى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ[1] له ولم تُبالِهْ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تُبالِهْ، ثم دخل عثمان فجلست وسوَّيْت ثيابك! فقال: "ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة"[2].

وفي رواية: فقالت عائشة: "يا رسول الله، مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: "إن عثمان رجلٌ حييٌّ، وإني خشيتُ إن أذنتُ له على تلك الحال أن لا يبلغ إليَّ في حاجته"، أي: يستحيي فيخرج من غير أن يطلب حاجته التي جاء من أجلها"[3][4].

والمتأمل في هذا الحديث لا يجد أي قدح في حيائه ﷺ كما يزعمون؛ لأنه لا توجد أية غضاضة في أن يضطجع النبي ﷺ في بيته كاشفًا جزءًا يسيرًا من فخذيه أو ساقيه، بين صاحبيه المقربين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، ولا توجد أية غضاضة أيضًا لو لم يسوِّ النبي ﷺ ثيابه عندما دخل عليه عثمان بن عفان ﷺ، ولكنه ﷺ فعل ذلك من باب الفضل لا من باب الواجب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد خشي ﷺ أن يمنع الحياءُ عثمان ﷺ عن طلب حاجته، فجلس بعد أن كان مضطجعًا، وسَوَّى ثيابه بعد أن كان كاشفًا فَخِذَيْه، وقد جازى ﷺ عثمان ﷺ من جنس عمله فاستحيى النبي منه لِما علم من حيائه ﷺ، فقد كان عثمان ﷺ أشد الناس بعد الرسول ﷺ حياءً.

يقول المناوي: "مقام عثمان مقام الحياء، والحياء فرع يتولد من إجلال من يشاهده، ويعظم قدره، مع نقص يجده في النفس، فكأنه غلب عليه إجلال الحق ﷻ، ورأى نفسه بعين النقص والتقصير، وهما من جليل خصال العباد المقربين، فعلَت رتبة عثمان لذلك، فاستحى منه خلاصةُ الله من خلقه ﷺ"[5].

ومن ثم فإن ما فعله النبي ﷺ من تسوية ثيابه واعتداله في جلوسه هو من باب تكريم عثمان بن عفان ﷺ، ويُعدُّ من مناقبه ﷺ.

ولكن لا يظن ظان أن النبي ﷺ لم يفعل ذلك مع أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ لدنو منزلتهما عن منزلة عثمان بن عفان ﷺ فهذا لم يقل به أحد، فالنبي ﷺ يجلُّ أصحابه، ويحترم قدرهم ويكافئ كلًّا منهم بما يستحق، ولعله من الأجدر أن نذكر طرفًا من أحاديث ومواقف النبي ﷺ التي تعدّد مناقب أبي بكر وعمر وغيرهما من

---

١. اهتشَّ: اهتمَّ وطَرِب له.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان (٦٣٦٢).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان (٦٣٦٣).

٤. أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، مرجع سابق، ص١٦٧، ١٦٨.

٥. المرجع السابق، ص١٦٨.

الصحابة، ليفهم هؤلاء كيف تعامل النبي ﷺ مع أصحابه كلّ على طريقته.

من ذلك ما رُوي عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: "اقتدوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعمر"[1] [2]. ورُوي عن علي رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فأقبل أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - فقال: "يا علي، هذان سيِّدَا كُهول أهل الجنة وشبابها بعد النبيين والمرسلين"[3].

إذن فالحديث - السالف الذكر - لا يدل على نقص في حيائه ﷺ، إنما يدل على تقدير النبي ﷺ لأصحابه، ومكانة أصحابه عند الله ﷻ رفيعة، فأبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة، ولو كان نبي بعد رسول الله لكان عمر.

ولعل في هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام ورسوله ﷺ وصحابته.

رابعًا. المِرْط كساء مشترك بين الرجال والنساء:

ليس في لبس النبي ﷺ مرط السيدة عائشة أية منقصة لحيائه ﷺ؛ لأن المرط - كما يقول علماء اللغة - هو الكساء غير المخيط، وهو مشترك بين الرجال والنساء، وليس فيه خصوصية لأحد الجنسين، ويكون لبسه أن يلتحف به أو يفترش على الأرض.

ويتأكد ذلك من خلال شرح الحديثين اللذين ينقلان الموقف:

عن يحيى بن سعيد بن العاص عن أبيه أنه أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه أن أبا بكر استأذن على رسول الله وهو مضطجع على فراشه لابسًا مِرط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال لعائشة: اجمعي عليك ثيابك، فقضيت إليه حاجتي ثم انصَرفْتُ، فقالت عائشة: يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله: "إن عثمان رجل حييٌّ، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إليَّ في حاجته"[4].

وواضح من الحديث أن الرسول ﷺ كان مضطجعًا في فراشه لابسًا مرط عائشة، فلما حضر عثمان لم يُرِدْ الرسول ﷺ أن يراه عثمان هكذا لِمَا يعرفه من حياء عثمان وخجله، فأعطى المِرْط لعائشة وجلس، وقال لها: اجمعي عليك ثيابك، وباقي التفاصيل واضحة في الحديث.

والمرط ليس فستانًا ولا ثوبًا خاصًّا، بل هو كساء من صوف أو خزّ يضعه الرجل عليه كما تضعه المرأة، ويلتحف به الرجل والمرأة سواء، كما في جامع الترمذي، فمثلًا خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مِرْط

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ (٢٣٢٩٣)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب من مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (٣٦٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٣٣).

٢. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٤١٦.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٦٠٢)، وابن ماجه في سننه، فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٩٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٢٤).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه (٦٣٦٣).

من شَعْرٍ أسود.

وقد اتفق علماء الحديث الذين شرحوا هذه الروايات، وعلماء اللغة الذين بينوا معاني كلام العرب، أن المرط هو الكساء، قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: "لابس مرط عائشة: هو بكسر الميم، وهو كساء من صوف، وقال الخليل: كساء من صوف أو كتان أو غيره"، وقال ابن منظور في "لسان العرب": "المرط: كِساء من خَزٍّ أو صوف أو كتّان، وجمعه مروط. الواحد: مرط يكون من صوف، وربما كان من خزٍّ أو غيره يؤتزر به، وفي الحديث: أن النبي ﷺ كان يصلي للصبح، فينصرف النساء متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغَلَس"[1][2]. والمِرْط: كل ثوب غير مخيط " فهذا الكساء ليس بمخيط كما اتضح من كلام أهل اللغة، وهو مشترك بين الرجال والنساء فليس فيه خصوصية لأحد الجنسين، وإذا كان الأمر كذلك، فهل يُعقل أن يقال: إن المرط هو ثوب المرأة ؟!

ومن ناحية أخرى فإن الكساء غير المخيط يكون لبسه عند العرب أن يُلتحف به أو يفترش على الأرض، فكيف يكون لبس النبي ﷺ لمرط السيدة عائشة - رضي الله عنها - معيبًا؟!

وقد جاء في الحديث على لسان أنس بن مالك أن جدته مليكة دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته فأكل منه، ثم قال: "قوموا فأُصلِّ لكم"، قال أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس، فنضحته بماء، فقام عليه رسول الله ﷺ"[3]. أي: من طول ما جلس عليه تلف الحصير، فمعنى كلمة "لبس" أعم في لغة العرب، فهي تشمل وضع الرداء أو اللحاف على الجسد، بل والجلوس على الحصير أو أي بساط ونحوه.

والقصة واضحة لا إشكال فيها، فقد كانت السيدة عائشة في ناحية البيت، ومتحجبة بالحجاب الشرعي، والنبي ﷺ مضطجع وعليه مرط، هو في الأصل ما تلتحف به عائشة، ولكنه وضعه عليه وهو مضطجع، ثم دخل أبو بكر ودخل عمر والنبي ﷺ على هذه الحال، وعائشة على حجابها، ثم لما دخل عثمان - وهو شديد الحياء - خشي أن يشعر عثمان أنه قد أحرج النبي ﷺ فيمتنع من قول حاجته، فأمر ﷺ عائشة - رضي الله عنها - أن لا تكتفي بالحجاب ولكن تجمع عليها ثيابها أكثر حتى يبدو أهل البيت في حال استقبال الناس، وأما هو فجلس له وتهيأ، حتى لا يمنعه الحياء من سؤال حاجته.

هذا هو المعنى المستفاد من الحديث لا أكثر، ولهذا رواه أهل الحديث، وتلقاه المسلمون من غير استنكار؛ لأنه ليس فيه ما يستنكر، أما من يُوهمون ويتوهمون ما ليس يدل عليه سياق الحديث ولا لغته، وهو أنه كان يلبس ثوب عائشة وهي بلا ثوب، ثم لما دخل أبو بكر وعمر كان على هذه الحال، ثم لما دخل عثمان نزع ثوب عائشة لتلبسه هي - نقول أما هؤلاء فقد جانبهم الفهم

---

١. الغَلَس: ظُلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت الفجر (٥٥٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب استحباب التكبير بالصبح في أول وقتها وهو التغليس (١٤٩١).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الصلاة في الثياب، باب الصلاة على الحصير (٣٧٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز الجماعة في النافلة والصلاة على حصير وخمرة وثوب (١٥٣١)، واللفظ له.

الصواب لدلالة الحديث[1].

الخلاصة:

- لقد كان النبي ﷺ أشدَّ الناس حياءً، فقد كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، والمتأمل في سيرته ﷺ يجد الكثير من الشواهد على هذه الحقيقة، ومن ذلك حياؤه ﷺ من أصحابه الذين كانوا يطيلون عنده الجلوس للحديث بعد تناول الطعام، وكان ﷺ يستحيي أن يأمرهم بالخروج؛ فأعفى الله رسوله من أن يخالف حياءه وتولّى تعليم المؤمنين أدب الجلوس في بيت النبي ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).
- خبر انكشاف عورة النبي ﷺ أثناء بناء الكعبة قبل البعثة، خبر صحيح، يدل على عصمته ولا يطعن فيها كما توهم الواهمون، فهو يدل على أن الله ﷻ كان يرعاه، وقد رباه على عينه، فإنه لما وضع بعض ثوبه على رقبته انكشف بعض عورته، فطمحت عينه إلى السماء، وأصابته غشية اتصال بالملأ الأعلى وسترت عورته، فقد كان ﷺ في حراسة الله ﷻ وحياطته.
- لم يكتف ﷺ ببلوغ قمة خلق الحياء، بل كان يأمر أصحابه بالتحلي به، ولا توجد أية غضاضة في أن يضطجع النبي ﷺ كاشفًا شيئًا من فخذه في بيته مع صاحبيه أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -، وما فعله النبي ﷺ من جلوسه وتسوية ثيابه عند دخول عثمان بن عفان ﷺ، إنما هو من باب التكريم لعثمان ﷺ، فقد جازاه النبي ﷺ من جنس عمله، فقد كان ﷺ أشد الناس حياءً بعد النبي ﷺ، وهذا ليس فيه نقص من قدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقدرهما في الإسلام لا ينكره أحد.
- لا توجد أيّة مَنقَصَة لحياء النبي ﷺ في لبس مرط زوجه عائشة؛ فليس المرط ثوبها كما يظنون، بل هو كما يقول علماء اللغة: كساء غير مخيط يلتحف به الرجل والمرأة على السواء، وليس مختصًّا بالنساء كما يتوهمون.

الشبهة الحادية والعشرون

التشكيك في قناعته ﷺ واتهامه بالنَّهم والشَّره(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن النبي ﷺ كان أكولًا مُحبًّا للطعام، بخلاف ما كان يأمر به أصحابه من الصيام، والحضّ على الإقلال من الطعام. ويهدفون من وراء ذلك إلى الطعن في قناعته وورعه، والتشكيك فيما عُهد عنه ﷺ من التخفُّف من الشهوات وملاذّ الحياة.

وجها إبطال الشبهة:

١) النبي ﷺ كان دائمًا ما يدعو إلى الاعتدال في المأكل والمشرب، ولم يُروَ عنه أنه ﷺ شبع من طعام قط

---

١. رد افتراءات المنصّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، مصر، ٢٠٠٨م، ص٦٢: ٦٤.

(*) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، د. عبد المتعال الجبري، مرجع سابق.

حتى فارق الحياة.

٢) كان النبي ﷺ صَوّامًا، ورغم هذا كان يُنكر على أصحابه أن يكونوا مثله، ويقول لهم: "إني أظل عند ربي فيطعمني ويسقيني"[١].

التفصيل:

أولا. النبي ﷺ كان دائمًا ما يدعو إلى الاعتدال في المأكل والمشرب:

لقد كان النبي ﷺ مفتاح كل خير للدنيا بأسرها وسبب كل غنى أصاب المسلمين، ومع هذا كان يمر على أهله ثلاثة أَهِلَّة دون أن يُوقد في بيته نار، لا لخبز ولا لطبيخ.

وقد رُوي عن علي بن رباح قال: "كنت عند عمرو بن العاص بالإسكندرية، فذكروا ما هم فيه من العيش، فقال رجل من الصحابة: لقد تُوفي رسول الله ﷺ وما شبع أهله من الخبز الغَلِيث والسَّلْت[٢] إذا خُلطا"[٣][٤] وقد رُوي عن عائشة أنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قُبض رسول الله ﷺ[٥].

هكذا كانت حياته ﷺ:

فقد رُوي عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: "ألستم في طعام وشراب ما شئتم، لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقَل[٦] ما يملأ به بطنه"[٧].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت تقول لعروة بن الزبير: "والله يا ابن أختي إنْ كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أُوقد في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ. قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأَسْوَدان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح[٨]، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا"[٩].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "دخلت عليَّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها، فبعثت إليَّ بفراش حَشْوُه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ، فقال: "ما هذا"؟ فقلت: فلانة الأنصارية دخلت عليَّ، فرأت فراشك،

---

١. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٧٤٣١)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٢. الغَلِيث والسَّلْت: نوعان من الشعير.

٣. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ (١٧٨٠٧)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الزهد، باب في عيش رسول الله ﷺ والسلف (١٨٢٥٠)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٤. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل، مرجع سابق، ص١٩٣ بتصرف يسير.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون (٥١٠٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٣٥)، واللفظ له.

٦. الدَّقَل: رَدِيء التَّمْر.

٧. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٥٠).

٨. المنائح: النُّوق التي تَدِر اللبن.

٩. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب فضلها والتحريض عليها (٦٠٩٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٤٢)، واللفظ له.

فبعثت إليَّ بهذا، فقال: "رُدِّيه"، فلم أَرُدَّه، وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ذلك ثلاث مرات فقال: "يا عائشة، رُدِّيه، والله، لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة"[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثَّر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، فقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا! فقال رسول الله ﷺ: "ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلَّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها"[٢].

كما كان النبي ﷺ يكثر من هذا الدعاء: "اللهم اجعل رزق آل محمدٍ قوتًا"[٣]. أي: ما يسد الرمق.

وانظر هذا المشهد الجليل:

ففي الحديث الذي رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فقال: "ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة"؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال: "وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوما"، فقاما معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا، فقال لها رسول الله ﷺ: "أين فلان"؟ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا مني، فانطلق فجاءهم بعِذْق فيه بُسْر وتمر ورطب، فقال: كلوا، وأخذ المُديَة، فقال له رسول الله ﷺ: "إياك والحلوب"، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورَوَوا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: "والذي نفسي بيده، لَتُسألُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"[٤].

وهذا حاله ﷺ عند الموت:

ففي الحديث الذي رُوي عن عمرو بن الحارث أخي جويرية بنت الحارث أم المؤمنين - رضي الله عنها - قال: "ما ترك النبي ﷺ عند موته دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا ولا أَمَةً، إلا بَغْلَته البيضاء التي يركبها، وسلاحه، وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة"[٥]. وهو الذي قال: "لو كان لي مثل أُحُدٍ ذهبًا ما يَسُرُّني ألَّا يمُرَّ عليَّ ثلاث وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدَين"[٦].

وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: "تُوفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا

١. صحيح: أخرجه أحمد في الزهد، المقدمة (١/ ١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حب النبي ﷺ، فصل في زهد النبي ﷺ وصبره على شدائد الدنيا (١٤٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٨٤).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٧٠٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٣٩).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي وأصحابه (٦٠٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (٢٤٧٤)، واللفظ له.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك (٥٤٣٤).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٩٢)، وفي مواضع أخرى.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب أداء الديون (٢٢٥٩)، وفي مواضع أخرى.

من شعير"[1].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: "تُوفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كَبِد إلا شطر شعير في رفٍّ لي، فَأَكَلْتُ منه حتى طال عليَّ، فكِلْته ففني"[2][3].

فهل صبر أحدٌ مثل صبره، أو رأى بيتًا مثل بيته من شَظَفِ معيشة ونُدرَة زاد. ولقد صبر على الجوع صبرًا لا يصبره غَيرُ محمد ﷺ كي لا يأتي داعيةٌ بعده وتُحدِّثه نفسه أن قد جعت وما جاع محمد ﷺ، أو يقول انكشفت حال بيتي بسبب الحق وامتلأ بيت محمد ﷺ.

وعلى هذه المسغبة المترادفة على حياته ﷺ وعلى بيته، وذاك الصبر الكامل عليها فإنه ﷺ كان المثل الأعلى في العطاء والجود، أشبعَ الناس وأجاع نفسه وبيته ﷺ[4].

ولقد قالت أم المؤمنين عائشة: "ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض"[5]، ولقد كان ﷺ لا ينفي عن الخبز نخالته، بل كان يأكله من غير نخل، فقد قالت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق: "ما رأى رسول الله ﷺ منخلًا من حين ابتعثه الله حتى قبضه"[6][7].

وليس أدل على أن النبي ﷺ كان زاهدًا في طعامه وشرابه، ولم يكن أكولًا من قصته المذكورة في القرآن:

فقد طلب أزواجه ﷺ أن يُمتعهن وينفق عليهن، مما يفتح الله عليه من خيرات البلاد المفتوحة، فجاءت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الأحزاب)، لتقرر أن الإسلام ما جاء ليحقق مَزِيَّة لرسول الله ﷺ ولا لآله؛ لكن مجيء الآية هكذا بصيغة الأمر دليل على حدوث شيء منهن يدل على تطلعهنَّ إلى زينة الحياة الدنيا ومُتعها، وقد رُوي عن عمر رضي الله عنه أنهن اجتمعن يسألن رسول الله النفقة، وأن يوسع عليهن بعد أن قال ﷺ عن الكفار: "نغزوهم ولا يغزونا"[8].

وقد خيَّرهُن الله عز وجل بين زينة الحياة الدنيا، وبين الله ورسوله والدار الآخرة، فاخترن الله ورسوله، والدار الآخرة[9].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (٢٧٥٩)، وفي مواضع أخرى.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب نفقة نساء النبي ﷺ بعد وفاته (٢٩٣٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٤١)، واللفظ للبخاري.

٣. موسوعة من أخلاق الرسول ﷺ، محمود المصري، مرجع سابق، ص٤٢١: ٤٢٣.

٤. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ، د. يحيى إسماعيل، مرجع سابق، ص١٩٤، ١٩٥.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون (٥١٠٠)، وفي مواضع أخرى، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حدثنا قتيبة بن سعيد (٧٦٣٣).

٦. خاتم النبين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢١٣.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون (٥٠٩٧).

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٨٣، ٣٨٨٤).

٩. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٩، ص١٢٠٠٣، ١٢٠٠٤، بتصرف يسير.

وهذا يدل على مدى شظف العيش الذي كان يجده رسول الله ﷺ وأهل بيته، رغم ما فتح الله عليه من الخيرات والغنائم من البلاد المفتوحة، حتى إنه كما تروي عائشة كان طعامَه الأسودان؛ التمر والماء.

فهل يكون مثل هذا أكولًا؟!

ومع هذا كله لم يكن ﷺ يُحرِّم على نفسه صنفًا من فاكهة، أو طعامًا من أطعمة أهل الترف والنعيم، بل يقبل كل الحلال، ولكنه يكتفي بالأدنى دائمًا، فاطمًا النفس عن أهوائها وملاذها؛ تقوية لها، ولتكون الإرادة الحاكمة بسلطان العقل هي المسيطرة.

ومع هذه الزَّهادة التي التزمها، وأخذ نفسه بها، ما كان يدعو الناس إليها؛ لأنهم لا يطيقونها، ولكنه الذي أمر المؤمنين بألا يفعلوا إلا ما يطيقون غير مسرفين على أنفسهم، إذ يقول: "إن الدين يُسْرٌ، ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا"[1][2] ®.

ثانيًا. لم يأمر النبي ﷺ أصحابه بصيام غير المفروض عليهم، ولكنهم اقتدوا به؛ لأنه كان كثيرًا ما يصوم متطوعًا:

أجمعت مصادر سيرة النبي ﷺ على أنه كان كثير الصيام في الأيام التي لم يُفرض فيها صيام.

فقد كان ﷺ يصوم فوق رمضان ستًّا من شوال، والثلاثة الأيام البيض - ١٣، ١٤، ١٥ - من كل شهر عربي، ويوم الإثنين والخميس من كل أسبوع، وكثيرًا ما صام الجمعة. وقد أخبرتنا عائشة - رضي الله عنها - أنه كان ربما أتى إليها ضحوة فسألها: هل عندك من طعام؟ فإن قالت له: لا، قال: إذن نصوم[3].

ومن ذلك أيضًا: ما جاء عن ملحان القيسي قال: "كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نصوم الليالي البيض؛ ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة، وقال: هن كهيئة الدهر"[4].

ومن ذلك أيضًا ما جاء عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت: "وكان ﷺ يتحرَّى صيام الإثنين والخميس"[5]، وكان ﷺ أيضًا: "يصوم ثلاثة أيام من غُرَّة كل شهر"[6][7].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (٣٩).

٢. خاتم النبين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص٢١٤ بتصرف يسير.

® في "زهد النبي ﷺ وجوده وتواضعه" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الخامسة، من الجزء الأول (حياة النبي ﷺ الخاصة). والشبهة العاشرة، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

٣. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مرجع سابق، ص١٠٩.

٤. حسن: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الصيام، باب صيام ثلاثة أيام (٧٨٧٣)، وأحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث قتادة بن ملحان (٢٠٣٣٥)، وحسنه الأرنؤوط في تعليقه على المسند (٢٠٣٣٥).

٥. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب صيام يوم الإثنين والخميس (١٧٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٩٧).

٦. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب ما جاء في صيام ثلاثة أيام من كل شهر (١٧٠٩)، والنسائي في سننه، كتاب الصيام، باب صوم النبي ﷺ وذكر اختلاف الناقلين للخبر (٢٣٦٨)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٨٧).

٧. الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص١٥١ بتصرف يسير.

وقد رُوي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - : أن النبي ﷺ واصَلَ[1]، فواصل الناس، فشقَّ عليهم، فنهاهم، قالوا: إنك تواصل، قال: "لست كهيئتكم، إني أظل أُطعَم وأُسقَى"[2]. وأيضًا: فإن النبي ﷺ لما نهاهم عن الوِصال فأبوا أن ينتهوا، فواصل بهم النبي ﷺ يومين أو ليلتين ثم رأوا الهلال، فقال النبي ﷺ: "لو تأخَّر الهلال لزِدتكم"[3]. كالمنكِّل بهم حين أبوا أن ينتهوا عن الوصال. وفي لفظ آخر: "لو مُدَّ لنا الشهر لواصلنا وصالًا يدع المتعمقون تعمقهم، إنكم لستم مثلي"، أو قال: "إني لست مثلكم، فإني أظل يطعمني ربي ويسقيني"[4].

فأخبر أنه يُطعَم ويُسقَى مع كونه مُواصِلًا، وقد فعل فعلهم منكِّلًا بهم. مُعَجِّزًا لهم، فلو كان يأكل ويشرب، لما كان ذلك تنكيلًا، ولا تعجيزًا، بل ولا وصالًا، وهذا بحمد الله واضح.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة للأمة، وأذِن فيه إلى السَّحَر، فعن أبي سعيد الخدري أنه سَمِعَ النبي ﷺ يقول: "لا تُواصِلوا، فأيُّكم أراد أن يُواصِل فلْيُواصل إلى السَّحَر"[5][6].

وأما صيامُ يوم عاشوراء فإنه كان يتحرَّى صومَه على سائر الأيَّام، فلما قَدِمَ المدينة رأى اليهودَ تصومُه وتُعظِّمُه، فقال: "ما هذا"؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجَّى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: "فأنا أحقُّ بموسى منكم"، فصامه، وأمر بصيامه[7]. وذلك قبل فرض رمضان، فلما فُرِضَ رمضان قال: "مَنْ شاء صامه، ومن شاء تركه"[8][9].

ورغم هذا ما كان ﷺ يأمر الناس بذلك ويجعله واجبًا؛ لأنهم لا يطيقون ذلك، وهو ﷺ الذي أمر المؤمنين بألا يفعلوا إلا ما يطيقون، غير مسرفين على أنفسهم، إذ يقول: "إن الدين يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، ولكن فسدِّدوا وقاربوا"[10]. فهو ﷺ يأخذ نفسه بزهد لا يأخذ به غيره[11].

١. واصَل: لم يفطر أيامًا تباعًا.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب (١٨٢٢)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم (٢٦١٨)، واللفظ للبخاري.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع (٦٨٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم (٢٦٢١)، واللفظ للبخاري.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم (٢٦٢٦).

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الوصال إلى السحر (١٨٦٦).

٦. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٨، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٤.

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (١٩٠٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (٢٧١٤)، واللفظ للبخاري.

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة (٤٢٣١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (٢٦٩٣)، واللفظ له.

٩. زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مرجع سابق، ص٦٦.

١٠. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (٣٩).

١١. خاتم النبين، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص٢١٤ بتصرف.

هكذا كان ﷺ صوَّامًا، ومع ذلك لم يكن يشقُّ على أمته، ولم يأمر أحدًا بصيام هذه النوافل التي كان يصومها، ولكن أصحابه كانوا يقتدون به عملًا بقوله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب).

الخلاصة:

- كان النبي ﷺ في سيرته العملية يتناول القليل من الأكل والشرب، ويأخذ بالأقل الضروري، أي الحد الأدنى الذي لا يصح التجاوز عنه، ويجب الانتفاع به؛ حفظًا للبِنْية، وقوة على الطاعة. ومن توجيه النبي ﷺ للأمة قوله: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنٍ، حسب ابن آدم أكلات ـ وفي رواية: لُقَيْمات ـ يُقمن صُلبَه، فإن كان لا محالة فثُلُثُ طعامٍ، وثلث شرابٍ، وثلث لنفسه"[1].

- لقد كانت حياة النبي ﷺ كلُّها عبادة لله ﷻ فكان صوَّامًا بالنهار قوامًا بالليل، وكان ينكر على أصحابه أن يكونوا مثله فيقول لهم: "إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني"، ولم يَفرض عليهم صيامًا سوى المفروض عليهم من الله، وهو شهر رمضان، رغم أنه كان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم، كما تروي السيدة عائشة رضي الله عنها، وقد اقتدى به أصحابه والتابعون له من عباد الله الصالحين عملًا بقوله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب).

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث المقداد بن معديكرب الكندي (١٧٢٢٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع (٣٣٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٦٥).

الشبهة الثانية والعشرون

الزعم أن النبي ﷺ كان مُدْمنًا للخمر حتى إنه ﷺ مات في نوبة سُكْر، وأكلت من جسمه الخنازير(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الطاعنين أن النبي ﷺ كان مدمنًا للخمر، ويستدلُّون على ذلك بما يدَّعونه من أنه ﷺ مات في نوبة سُكْر، ووُجد جسده ملقًى على كَوْم من الرَّوْث بعد موته، وقد أكلت الخنازير منه؛ ولذا حرَّم المسلمون ـ بعد موته ﷺ ـ شرب الخمر وأكل لحم الخنزير. ويهدفون من وراء هذا الزعم إلى إثبات مخالفة أفعال النبي ﷺ لمقتضى رسالته.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد أجمعت كتب السِّير والحديث على أن النبي ﷺ قد مُرِّض في بيت السيدة عائشة، ومات في بيتها وفي يومها بين سَحْرها ونحرها، وفي وجود بعض الصحابة، وقد غُسِّل ودُفن في مكان موته، كغيره من الأنبياء. فكيف وقع ما يزعمون؟! وأين؟!

٢) كان تحريم الخمر، ولحم الخنزير عليالمسلمين قبل موت النبي ﷺ بسنوات عديدة؛ لما فيهما من أضرار جسيمة، ولم يكن أثناء موت النبي ﷺ ولا بعده.

(*) مطاعن وردود، فضل حسن عباس، دار البشير، عمان، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م. ردُّ مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. تُوفِّي النبي ﷺ في بيت عائشة، ودُفِن حيث مات:

إن المتأمل في كتب التاريخ والسير والسنة النبوية يجدها جميعًا قد اتفقت في حديثها عن أخبار مرض النبي ﷺ ومكان تمريضه ووقت وفاته ومكانه؛ وذلك أنَّ موتَ النبي ﷺ كان أشدَّ الأحداث إيلامًا لقلوب المسلمين، فكيف يمكِن أن ينسوا تفاصيل هذا الحادث ومقدماته؟!

ويمكننا أن نتحدث عن هذه التفاصيل بإيجاز شديد على النحو الآتي:

طلائع التوديع: لما تكاملت الدعوة، وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تتبدَّى من مشاعره ﷺ، وتتضح في عباراته وأفعاله.

فقد اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، وتدارس مع جبريل عليه السلام القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: إني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، وأُنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نُعِيَت إليه نفسه.

وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي ﷺ إلى أُحُد، فَصَلَّى على الشهداء كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: "إني فَرَط لكم[١]، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعْطِيت مفاتيحَ خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تَنَافَسُوا فيها"[٢].

وخرج ليلة - في منتصفها - إلى البقيع فاستغفر لهم، وقال: "السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون"[٣].

بداية المرض: وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ - وكان يوم الإثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع - وهو في الطريق - أخذه صداع في رأسه، وارتفعت درجة حرارته، حتى إنهم كانوا يجدون سَوْرَتها[٤] فوق العصابة التي تُعْصَبُ بها رأسه. وقد صلَّى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يومًا، وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يومًا.

الأسبوع الأخير: وثقل برسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟ ففهِمْنَ مُراده، فأذِنَّ له يكون حيث شاء، فانتقل إلى عائشة، يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصبًا رأسَه تَخُطُّ قدماه في الأرض، حتى دخل بيتها، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته.

وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ، فكانت تنفُثُ على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل يوم أو يومين: ويوم السبت أو الأحد وجد

١. فَرَط لكم: سابقكم إلى الحوض كالمهيِّء له.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد (١٢٧٩)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا وصفاته (٦١١٦).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٢٣٠١).

٤. سورتها: شدتها.

النبي ﷺ في نفسه خِفَّةً، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بألَّا يتأخر، قال: "أجلساني إلى جنبه"، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، وكان أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي ﷺ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ قاعد"[١].

قبل يوم: وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبي ﷺ غِلْمانه، وتصدَّق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل استعارت عائشة الزيت للمصباح من جارتها، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير[٢].

آخر يوم من حياته ﷺ: في فجر يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة، "وبينما الناس في المسجد يُصلُّون خلف أبي بكر ﷺ، إذا بالستر المضروب على حجرة عائشة قد كُشِفَ، وبرز رسول الله ﷺ من ورائه، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسَّم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبه ليصلَ الصف، فقد ظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمَّ المسلمون أن يُفتنوا في صلاتهم؛ فرحًا برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده ﷺ أن أتمُّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة، وأرخى الستر، وانصرف الناس من صلاتهم، وهم يحسبون أن النبي ﷺ قد نشط من مرضه.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به (٦٥٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما (٩٦٣).

٢. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٤٦٤: ٤٦٨ بتصرف يسير.

ولكن تبيَّن أنها كانت نظرة وداع منه ﷺ إلى أصحابه، فقد عاد ﷺ فاضطجع إلى حجرة عائشة - رضي الله عنها - وأسندت - رضي الله عنها - رأسه إلى صدرها، وجعلت تتغشَّاه سكرات الموت، قالت: وكان بين يديه رَكْوَة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: "لا إله إلا الله، إن للموت سكرات". وكانت فاطمة - رضي الله عنها - إذا رأت منه ذلك قالت: واكرب أباه! فيقول لها ﷺ: "ليس على أبيك كَرْبٌ بعد اليوم"[٣][٤].

"ودعا الحسن والحسين فقبَّلهما، وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن، وطفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السُّمِّ الذي أكله بخيبر حتى كان يقول: "يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أَبْهُرِي[٥] من ذلك السم"[٦].

وأوصى الناس فقال: "الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم"، كَرَّر ذلك مرارًا[٧].

الاحتضار: وبدأ الاحتضار، فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: "إن من نِعَم الله ﷻ عليَّ أن رسول الله ﷺ

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٩٣).

٤. فقه السيرة، د. محمد سعيد البوطي، مرجع سابق، ص٣٥٢.

٥. الأَبْهُر: وريد متصل بالقلب يحمل إليه الدم.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٦٥).

٧. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أم مسلمة زوج النبي ﷺ (٢٦٧٧٠)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب الخدم والمماليك، باب حسن الملكة (١٥٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٦٨).

تُوُفِّيَ في بيتي، وفي يومي، وبين سَحْري ونَحْرِي، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عبد الرحمن ـ ابن أبي بكر ـ وبيده السواك، وأنا مسندة الرسول ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولْتُهُ، فاشتدَّ عليه، وقلت: أُلَيِّنُه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فَلَيَّنْتُهُ. فأمرَّه ـ وفي رواية أنه استَنَّ بها كأحسن ما كان مستنًّا ـ وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يُدْخِلُ يديه في الماء فيمسح بها وجهه، يقول: "لا إله إلا الله، إن للموت سكرات"[1]. كرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدَّ الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام[2].

وَقْعُ خبر الوفاة على الصحابة: "انتشر خبر وفاته ﷺ في الناس، وأقبل أبو بكر على فَرَس من مسْكَنِهِ في السُّنح ـ وكان قد ذهب إلى منزله هناك آملًا أنه ﷺ قد عُوفي من وجعِه ـ حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلِّم الناس حتى دخل على عائشة، فقصد رسول الله ﷺ وهو مُغشًّى بثوب حَبِرَةٍ، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه فقبَّله وبكى، ثم قال: "بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مِتَّها". ثم خرج ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ يكلِّم الناس فقال: "اجلس يا عمر"، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: "أما بعد، من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (آل عمران)"، فكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا وأخذ يتلوها"[3].

قال ابن المسيِّب: قال عمر: "والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرْتُ[4] حتى ما تُقِلُّني[5] رِجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، وعلمت أن النبي ﷺ قد مات"[6].

وفي يوم الثلاثاء غسَّلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجرِّدوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل العباس، وعليًّا، والفضل وقثم ابني العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولى.

فكان العباس والفضل وقثم يُقلِّبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسِّله، وأوس يسنده إلى صدره.

ثم كفَّنوه في ثلاثة أثواب بيض سَحُولية[7] من كُرْسُف[8]، ليس فيها قميص ولا عمامة، أدرجوه فيها

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٨٤).

٢. الرحيق المختوم، المباركفوري، مرجع سابق، ص٤٦٨، ٤٦٩.

٣. فقه السيرة، د. محمد سعيد البوطي، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

٤. عُقِر: بقي مكانه لم يتقدم أو يتأخر لفزع أصابه.

٥. تُقِلُّني: تحملني.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٨٧).

٧. سَحولية: السَّحل: ثوب أبيض رقيق.

٨. الكُرْسُف: القطن.

إدراجًا.

ودخل الناس الحجرة أرسالًا[1] عشرة فعشرة، يصلُّون على رسول الله ﷺ ولا يؤمُّهم أحد، وصلَّى عليه أولًا أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلَّت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلَّى عليه الصبيان، ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملًا، حتى دخلت ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي[2] من جوف الليل من ليلة الأربعاء.

ودُفِنَ رسول الله ﷺ حيث قُبِضَ، لقوله ﷺ: "ما مات نبيٌّ إلا دُفن حيث يُقبض"[3][4].

ما ذكرناه آنفا هو الصحيح من الأخبار عن مرض النبي ﷺ ووفاته، والتي اتفقت عليها كل كتب السيرة وكتب الحديث النبوي، وليس فيها ما يشير ـ ولو على سبيل الإنكار ـ إلى أن النبي ﷺ قد مات في نوبة سكر ـ كما يزعم هؤلاء الطاعنون ـ وإنما ما ورد هو إصابته ﷺ بالحُمَّى كما سبق أن قلنا في الحديث عن مرضه.

فقد ورد أن النبي ﷺ كانت تنتابه حمَّى شديدة من وقت لآخر، وتروي عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه ﷺ لما رجع من البقيع استقبلته وهي تقول: وارأساه، فقال لها ﷺ: "ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك"، فقالت عائشة: واثُكْلَياه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذلك لظللت آخر يومك مُعرِّسًا ببعض أزواجك، فقال النبي ﷺ: "بل أنا وارأساه"[5]. ثم ثقل عليه الوجع فكأن حُمَّى شديدةً تنتابه.

وروى ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعَكُ، فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله، إنك تُوعَك وَعْكًا شديدًا، فقال ﷺ: "أجل، إني أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم"، قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين؟ فقال رسول الله ﷺ: "أجل، ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حطَّ الله به سيئاته، كما تحط الشجرةُ ورقَها"[6][7].

ومن هذين الحديثين يتضح لنا أن سبب وفاة النبي ﷺ أن الله ابتلاه بالحمَّى واشتدت عليه حتى تُوفي.

فأين إذن نَوبَة السكر التي يدَّعونها، وما دليلهم على ذلك، وحياة النبي صفحة مضيئة أمام الناس؟! ثم كيف تجرَّأ هؤلاء على أن يزعموا أن جسد النبي ﷺ وُجِدَ بعد موته ملقًى على كوم من الرَّوَث وقد أكلت الخنازير من جسده؟!، وقد مات ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها، وبين سحرها ونحرها، وأصحابه رضي الله عنهم

١. الأرسال: الجماعات.

٢. المساحي: الفُئوس.

٣. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ﷺ (١٦٢٨)، وأبو يعلى في مسنده، مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٧٠).

٤. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٤٧١، ٤٧٢ بتصرف يسير.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول: إني وجِع أو وارأساه أو اشتد بي الوجع (٥٣٤٢).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب وضع اليد على المريض (٥٣٣٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرضٍ أو حزنٍ أو نحو ذلك (٦٧٢٤).

٧. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٣٥٢: ٣٥٤.

حوله يتابعون أخباره لحظة بلحظة.

لا شك أن ما يزعمه هؤلاء هو مجرد تشويه للحق الناصع، وقلب للحقيقة التي لا يُماري فيها صاحب عقل منصف.

ثانيًا. كان تحريم الخمر، ولحم الخنزير على المسلمين قبل موت النبي ﷺ بمدة طويلة، ولم يكن أثناء موت النبي ﷺ ولا بعده:

قبل الحديث عن تحريم الخمر ولحم الخنزير في الإسلام نود أن نشير إلى حقيقة هامة تتعلق بمبدأ التحليل والتحريم في الإسلام، وهي "أن الإسلام قد حدَّد السلطة التي تملك التحليل والتحريم، فانتزعها من أيدي الخلق، أيًّا كانت درجتهم في دين الله أو دنيا الناس، وجعلها من حق الرب تعالى وحده.. فلا أحبار أو رهبان، ولا ملوك أو سلاطين يملكون أن يحرِّموا شيئًا تحريمًا مؤبدًا على عباد الله، ومن فعل ذلك منهم فقد تجاوز حدَّه واعتدى على حق الربوبية في التشريع للخلق، ومن رضي بعملهم هذا واتبعه فقد جعلهم شركاء لله، واعتُبر اتباعه هذا شركًا. قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (الشورى)"[1].

وعليه فإن موت النبي ﷺ لم يكن ليحلَّ حرامًا، أو يحرِّم حلالًا في ذاته، إذ لم يمت ﷺ حتى أكمل الله الدين للمسلمين، وأتمَّ النعمة عليهم، ورضي لهم الإسلام دينًا، قال ﷻ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) هذا وقد كان تحريم الخمر في السنة السادسة من الهجرة، قبل موت النبي ﷺ بأربع سنوات، وكان النبي ﷺ قد قدم المدينة وهم يشربون الخمر، ويلعبون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة: ٢١٩)، فقال الناس: ما حُرِّم علينا، إنما قال "إثم كبير"، وظلوا يَشْرَبُونَ الخمر، حتى كان يوم من الأيام صلَّى رجل من المهاجرين، وأمَّ الصحابة في المغرب فخلط في قراءته، فأنزل الله تعالىآية أغلظ من ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (المائدة) إلى قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (المائدة)، فقالوا: انتهينا ربنا.

وقيل إن سبب نزول هذه الآية أن عمر ﷺ قال: اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فإنها تذهب بالمال والعقل، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة: ٢١٩)، فَدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فأنزل الله الآية التي في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ﴾ (النساء: ٤٣). فكان ينادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة: "أن لا يقربن الصلاة سكران"، فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التي في

١. الحلال والحرام في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر، ط١٦، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٢٢، ٢٣.

المائدة، فدعى عمر فقُرئت عليه فلما بلغ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المائدة)، قال عمر: انتهينا انتهينا[١].

وكان الانتهاء من الصحابة بمجرد نزول الأمر من السماء، "فلم يحتج الأمر أكثر من منادٍ في نوادي المدينة: "ألا أيها القوم، إن الخمر قد حُرِّمَتْ"، فمن كان في يده كأس حطمها، ومن كان في فمه جرعة مجَّها، وشُقَّت زقاق الخمر، وكسرت قنانيه.. وانتهى الأمر، كأن لم يكن سكر ولا خمر"[٢]!!

هكذا كان موقف القرآن الكريم من الخمر موقفًا حازمًا لا هوادة فيه، وكذلك كان موقف النبي ﷺ، وكان أول ما أعلنه النبي ﷺ في ذلك أنه لم ينظر إلى المادة التي تتخذ منها الخمر، وإنما نظر إلى الأثر الذي تحدثه وهو الإسكار... وقد سُئل النبي ﷺ عن أشربة تصنع من العسل أو من الذرة والشعير، تُنبذ حتى تشتد، فأجاب: "كل مسكر خمر، وكل خمر حرام"[٣]. وكذلك لم يفرِّق النبي ﷺ بين كثير الخمر وقليله فقال: "ما أسكر كثيره فقليله حرام"[٤].

ولم يكتفِ النبي ﷺ بتحريم شرب الخمر، بل لعن النبي ﷺ في الخمر عشرة: "عاصِرها ومُعتَصِرها[٥] وشاربها، وحاملها والمحمولة إليه، وساقيها وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها والمشتَرَاة له"[٦]. بل حرَّم النبي ﷺ القعود في مجالس الخمر، فعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر"[٧].

كما لم يُبِح النبي ﷺ شربها - ولو القليل منها - للتداوي، فقد سأله رجل عن الخمر، فقال الرجل: إنما أصنعها للدواء، قال ﷺ: "إنه ليس بدواء ولكنه داء"[٨].

هكذا كان النبي ﷺ حاسمًا كلَّ الحسم في محاربة الخمر وإبعاد المسلم عنها، فلم يفتح منفذًا - وإن ضاق - لتناولها أو الاقتراب منها.

فإذا ثبت لنا أن تحريم الخمر على المسلمين كان قبل موت النبي ﷺ بسنوات عديدة، وإذا ثبت لدينا أن النبي ﷺ لم يذق طول حياته شربة خمر واحدة، سواء

---

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، ط٢، د. ت، ج٢، ص٣٢١، ٣٢٢ بتصرف يسير.
٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج٢، ص٩٧٥.
٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٥٣٣٩).
٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو (٦٥٥٨)، وابن ماجه في سننه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيره فقليله حرام (٣٣٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٣٠).
٥. مُعتَصِرها: طالب عصرها.
٦. حسن صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب (٤٧٨٧)، والترمذي في سننه، كتاب البيوع، باب النهي أن يتخذ الخمر خلًّا (١٢٩٥)، وقال عنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح (٢٣٥٧).
٧. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله (١٤٦٩٢)، والنسائي في سننه الكبرى كتاب آداب الأكل، النهي عن الجلوس على مائدة يدار عليها الخمر (٦٧٤١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٦٠).
٨. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر (٥٢٥٦).

قبل بعثته أو بعدها؛ تبين لنا أن النبي ﷺ لم يمت في نوبة سكر كما يزعم هؤلاء المضللون.

ثم إننا نسأل هؤلاء: كيف لم ينتقد أصحاب النبي ﷺ النبي وهم يرونه يقول ما لا يفعله؟! بل كيف لم ينتهز أعداؤه هذه الفرصة لتنفير الناس منه وهم يتربصون به أيَّة فرصة للنيل منه؟!

أما لحم الخنزير فقد حرَّم الله ﷻ أكله في الآية رقم ١٧٣ من سورة البقرة. قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ (البقرة)، وقد نزلت سورة البقرة في المدينة، وصلَّى بها معاذ الفجر إمامًا بالمسلمين، فشكوه إلى رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ: "أفتَّان أنت يا معاذ"؟! وكان لذلك قصة مشهورة.

ولم يكن الإسلام أول الأديان التي حَرَّمت أكل لحم الخنزير؛ فالديانة اليهودية تحرِّم أكل لحمه، ولا يوجد حتى الآن يهودي في أوربا وأمريكا يأكل لحم الخنزير إلا فيما ندر، ولم يعِبْ أحدٌ اليهودَ على ذلك، بل يحترم الغرب العادات الدينية لليهود، وعندما جاء السيد المسيح ، صرَّح - كما جاء في الإنجيل - بأنه لم يأت لينقض الناموس بل ليكمِّله، أي أنه لم يأت ليغير التشريعات اليهودية - ومن بينها بطبيعة الحال تحريم أكل لحم الخنزير-، والأمر المنطقي بناء على ذلك أن يكون محرَّمًا في المسيحية أيضًا[1].

والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم؛ لأن أشهى غذائه إليه القاذورات، والنجاسات، وهو ضار في جميع الأقاليم لا سِيَّما الحارة منها، كما ثبت بالتجربة، وأكل لحمه من أسباب الدودة القتالة.

إذن.. تبين لنا أن تحريم الخمر، وتحريم لحم الخنزير، كان قبل موت النبي ﷺ بسنوات عديدة، ولم يحرِّمها المسلمون لأن النبي ﷺ مات في نوبة سكر، أو لأن الخنازير أكلت من جسده بعد موته كما يزعم الطاعنون.

ولكننا في النهاية نود أن نقول لهؤلاء الذين يزعمون أن النبي ﷺ كان مدمنًا للخمر: من الذي تشير النصوص إلى أنه شرب الخمر؟ محمد أم يسوع، كما ورد في كتبهم المحرَّفة، والمسيح براء من ذلك عندنا؟!

يقرر الكتاب المقدَّس أن أول معجزات الرب يسوع - في ظنهم - هي صنع الخمر وشربها، وإليكم الدليل من الإنجيل: "وفي اليوم الثالث كان عُرْسٌ في قانا الجليل، وكانت أم يسوع هناك، ودُعي أيضًا يسوع وتلاميذه إلى العُرس، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: "ليس لهم خمر"، قال لها يسوع: "ما لي ولك يا امرأة؛ لم تأتِ ساعتي بعد"، قالت أمه للخُدَّام: "مهما قال لكم فافعلوه". وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود، يسع كل واحد مِطْرَين أو ثلاثة، قال لهم يسوع: "املأوا الأجران ماء". فملأوها إلى فوق، ثم قال لهم: استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المُتَّكأ، فقدَّموا، فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحوِّل خمرًا ولم يكن يعلم من أين هي، لكن الخُدَّام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، دعا رئيس المتكأ العريس وقال له: "كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولًا، ومتى سَكِروا

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ٦٤٩.

فحيئنذ الدُّون، أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن". هذه بداءة الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل، وأظهر مجده فآمن به تلاميذه". (يوحنا ٢: ١ـ ١١).

وأيضًا: "جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فتقولون: هو ذا إنسان أكول وشِرِّيب خمر، محبٌّ للعشَّارين والخُطاة". (متى ١١: ١٩).

ونلاحظ أن ابن الإنسان، المقصود به يسوع معبود النصارى، والنص يخبرنا بأنه شريب للخمر، فنجد أن يسوع هو الذي تشير نصوص كتبهم المحرفة إلى أنه شرب الخمر وصنعها، ولكن المغالطين يحاولون إلصاق شرب الخمر بالنبي الكريم وحاشاه ـ وحاشا لعيسى عليه السلام والأنبياء جميعًا ـ أن يفعلوا هذا[1] ®.

الخلاصة:

- من الثابت تاريخيًّا أن النبي ﷺ مات في بيت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بين سحرها ونحرها، وذلك يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وقد شهد وفاته ﷺ جماعة من المسلمين، وغسّلوه ودفنوه في المكان الذي توفي فيه، فكيف يدَّعي المفترون أنه مات بنوبة سكر، وقد مات ﷺ متأثرًا بحُمّى شديدة كانت تنتابه من وقت لآخر؟! فكيف يدَّعون أنه ﷺ قد أكلت الخنازير من جسده؟! وقد مات ودُفِنَ في بيته، وهذه سُنّة الأنبياء قبله.

- ثم إن تحريم الخمر، ولحم الخنزير كان قبل وفاة النبي ﷺ بمدة طويلة، فكيف يدَّعون أنهما لم يُحرَّما إلا بعد وفاته؟! كيف وقد نزل الدين كاملًا على النبي ﷺ قبل أن يموت: يقول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، إن هذا التحريم من الله ﷻ صالح لكل الأمم والشعوب؛ لأن الله هو الذي خلق الناس، وهو أعلم بما ينفعهم وما يضرهم، فليس للمسلمين الحق في تحريم أو تحليل.

ولكنها العقلية المغرضة المستهزئة التي لم تتحرج من نسبة صنع الخمر وشربها إلى عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، وتأبى إلا أن تضمَّ خاتمهم وسيِّدهم إلى قائمتها المفتراة دون سندٍ أو دليل.



---

١. رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، مرجع سابق، ص١٤١، ١٤٢ بتصرف يسير.

® في **"تحريم الخمر في الإسلام"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده). وفي **"إباحة استخدام النبيذ والفرق بينه وبين الخمر"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده). وفي **"عقوبة شارب الخمر"** طالع: الشبهة السادسة عشرة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

المصادر والمراجع

- الأدب الضائع، د. محمد إسماعيل المقدم، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية، د. هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام وتصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- أصحاب الرسول ﷺ، محمود المصري، دار التقوى، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية، سليمان عبد القوي الطوخي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- البداية والنهاية، ابن كثير، دار التقوى، مصر، د. ت.
- بطل الأبطال أو أبرز صفات النبي ﷺ، عبد الرحمن عزام، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- بنديكت السادس عشر البابا الذي لا يعرف شيئًا، د. عبد الودود شلبي، كتاب المختار، القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- البيان المحمدي، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- تاريخ الشعوب العربية، د. ألبرت حوراني، ترجمة: نبيل صلاح الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.
- التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- التشريع الجنائي في الإسلام، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، مصر، ١٩٩١م.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، ط٢، د. ت.
- تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجهاد في الإسلام، محمد شديد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- حرب الغرب على الإسلام والنبي ﷺ، محمد بن عبد الملك الزغبي، دار الحكمة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

- حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، ترجمة: عبد العزيز جاويد، وعبد الحميد العبادي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الحلال والحرام في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، مصر، ط١٦، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- حياة وأخلاق الأنبياء، أحمد الصباحي عوض الله، دار اقرأ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الخصائص الكبرى، أبو الفضل جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع كفافي، دار الفتح، مصر، ٢٠٠٥م.
- دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد رواس قلعجي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، مصر، ٢٠٠٨م.
- رد مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٢م.
- رسالة القتال من مجموع الرسائل النجدية، ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت، د. ت.
- الرسول ﷺ، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- الرسول ﷺ، عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
- الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- الروض الأُنف، الإمام السهيلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٨، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- سقوط الغلو العلماني، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- السيرة النبوية، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م.
- شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- ضلالات منكري السنة، د. طه حبيشي، مطبعة رشوان، مصر، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- عثمان بن عفان: شخصيته وعصره، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- العصمة النبوية، محمد فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- عظمة الرسول ﷺ والرد على الطاعنين في شخصه الكريم، محمد بيومي، دار مكة المكرمة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- فرسان النهار من الصحابة الأخيار، د. سيد بن حسين العفاني، دار ماجد عسيري، جدة، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، مصر، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، مصر، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، القاهرة، د. ت.
- لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
- لكن محمدًا لا بواكي له، د. إبراهيم عوض، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- محمد ﷺ المثل الكامل، أحمد جاد المولى، مكتبة دار المحبة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- محمد ﷺ والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- محمد خير البشر وأمته خير الأمم، عمر أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- محمد رسول الله، أتيين دينيه، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، د. ت.
- محمد في حياته الخاصة، نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: د. عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- مطاعن وردود، فضل حسن عباس، دار البشير، عمان، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
- معاوية بن أبي سفيان، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.
- مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، د. يحيى إسماعيل أحمد، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- موسوعة القرآن العظيم، عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- موسوعة من أخلاق الرسول ﷺ، محمود المصري، دار التقوى، مصر، ط١، ١٤٢٨هـ.
- النبوة المحمدية دلائلها وخصائصها، محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، ط٣، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- نظرية الحرب في الإسلام، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- هَدْي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- وامحمداه، د. سيد حسين العفاني، دار العفاني، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، دار كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ.
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، مصر، ٢٠٠٠م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الثاني: الرسول

المجلد الثاني

ج ٢

شبهات

حول أخلاق النبي ﷺ